

تَشْيِيتُ هَذَا الْإِثْلِ النَّبَوِيَّةِ

لقاضي القضاة
عبد الحبيب بن أحمد الهذلي
المتوفى سنة ٤١٥ هـ.

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
الدكتور عبد الكريم عثمان

دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

(١) فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	المقدمة
٥	البدء بما في القرآن من إكفار الرسول للامم والبراءة منهم وهو وحيد ضعيف
٧	سلامته ﷺ مع حرصهم على إبدائه
٨	وعده وهو في وحدته انه سيكون في جماعات كثيرة
٣٨	استرواح المشركين لأدنى غم يصيب الرسول
٤٠	عرض المشركين على الرسول ان يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه
٤٤	وعد الرسول اصحابه في حال ضعفهم ان الله سينصرهم
٤٦	اسراء الرسول من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى
٥٢	ما نزل بمكة في رجال بأعيانهم انهم يصرون على شركهم الى ان يموتوا
٥٥	ما كان بمكة من انشقاق القمر
٥٩	ما كان بمكة من غلبة الفرس على ارض الجزيرة ادنى ارض الروم
٦٤	من اعلامه ﷺ انقضاء الكواكب بمكة
٨٠	دعوة رسول الله ﷺ على مضر وإمساك الفطر عنهم
٨٣	ما كان بمكة حين بكى الرسول عليهم قوله تعالى : اقتربت الساعة
٨٤	ما نزل بمكة من قوله تعالى « فاستمسك الذي اوحى اليك ... »
٨٥	من اعلامه قوله عز وجل « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن »

(١) اكتفينا هنا بفهرس الموضوعات ، وأجلنا باقي الفهارس الى نهاية الجزء الثاني .

الصفحة	الموضوع
٩١	من اعلامه اخباره عز، النصرانية ومذاهبها
١٠٨	ما اشار إليه من اختلاف النصاري حول المسيح عليه السلام
١٢١	ما جاء به الرسول حول الزعم بصلب المسيح ، واختلاف النصاري حول الانجيل ، وتأثر المجتمعات النصرانية بعقائد الروم واخلاقهم
٢٣٥	اكفار الرسول ﷺ للعرب وسائر الامم الاخرى واسخاطها وكيف عصمه الله من اذاهم
٢٤٥	الاخوة والمودة التي كانت قائمة بين الصحابة
٢٥٢	افعال رسول الله وأقواله تشهد بأنه ما عهد لرجل بعينه
٢٥٥	كيف خاض الصحابة في امر الامارة ولم يذكروا انه نص علي أحد بعينه
٢٦١	كيف فكر الانصار بالامارة ثم عدلوا عن ذلك بعد تبين الحق
٢٦٣	رفض علي، ما عرض عليه من المبايعة بالامارة بعد وفاة الرسول
٢٧٣	طلب ابي بكر من المسلمين اقالته ورفضهم ذلك
٢٧٣	تمنى ابي بكر ان لا يكون قد ولي إمرة المسلمين
٢٨٠	كيف رد المسلمون الأمر الى عبد الرحمن بن عوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الإيمان بالنبوة أو قيام صلة بين الله والانسان بواسطة احد عباده الذي نسميه نبياً او رسولاً من أهم ما يميز الأديان السماوية عن غيرها من الديانات ، إذ أن هناك أديانا كالبرهمية تؤمن بوجود الله لكنها تنكر النبوات ولا ترى حاجة لوجود هذه الصلة بين الله والانسان ، وحجتهم في ذلك ، أن ما أتى به الانبياء إما موافق للعقل ففي العقل غنى عنه أو مخالف له فلا حاجة لنا به ، لأن العقل هو المصدر الوحيد الذي نستدل به على حقائق الأمور .

والحق أن من المستحيل ان نؤمن بفكرة وجود الخالق المدبر ولا نتبعها بالإيمان برعايته لخلقه وتدبيره المستمر للكون . إذ ما الفائدة من الخلق اذا لم يمن الخالق بشؤون خلقه ، أما أن العقل قد يعارض ما تأتي به النبوة فليس هذا ضرورياً ، لأن جميع الأمور التي نزلت بها الوصايات السماوية يقرها العقل الذي يعتمد على تفكير علمي منظم ، هذا بالاضافة الى ان لكل من العقل والوحي ميدانه الخاص في كثير من المسائل ، واذا امكن لنا ان نتوصل بالمنطق التجريبي والرياضي الى حقائق علوم الكون والحياة فإننا لا نستطيع بغير الوحي ان نتوصل الى حقائق ما وراء المادة .

والصلة بين الله والرسول تتم بوسائل متعددة لن نبعث في تفصيلها وإنما سنلقي نظرة سريعة على أهم هذه الوسائل لتأخذ فكرة عنها .

إن الوحي غالباً ما يبدأ بالرؤى الصادقة ، وفي قصص الأنبياء كثير من حوادث هذه الرؤى . وقد قص علينا القرآن كيف أنها طريقة من طرق الوحي عندما حدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وكيف أمر إبراهيم بذبح ابنه « فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى » قال يا أبت افعل ما تؤمر « (١) » .

وقد تكون وسيلة الاتصال بالالهام في حالة اليقظة كما حدث للرسول محمد عليه الصلاة والسلام اذ أتاه هذا الالهام وهو جالس بين المسلمين وعبر عنه بقوله « هذا رسول رب العالمين نفث في روحي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ... » .

وقد يكون الاتصال بأن يكلم الله الرسول مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام مما قص علينا القرآن قصته « فلما أتاه نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ... » (٢) .

والطريقة المعتادة في حصول الاتصال بين الله والرسول هي الوحي بواسطة جبريل عليه السلام « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (٣) ، وكان جبريل أحياناً ينزل مجسداً ويراه المسلمون كما حصل

في حديث أركان الإيمان والإحسان وأشرط الساعة الذي روي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .

ومن الطبيعي حين يدعي انسان ما انه يتصل بالله ويحمل منه الى الناس رسالة ترتب عليهم تكاليف وواجبات ان يطالبه الناس بالدليل على صدقه ، ولم ير القرآن في هذا ما يخرج على المعقول والمنطق حتى انه قص علينا ان ذلك حصل من بعض الانبياء « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » قال أولم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي « (١) » .

ومن هنا ظهرت الحاجة الى وجود ما يثبت النبوة ، وتعد المعجزات من أهم الوسائل التي أنزلها الله على رسوله ليقتنع الناس انهم لا يمثلون أنفسهم وإنما يمثلون الله تعالى ، ولا شك ان الإيمان بالرسول مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالله وبالغيب الذي يعتبر من أهم صفات المسلم التقى « ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب » (٢) .

والقرآن يتحدث عن مجموعة من المعجزات المادية منها والمعنوية . والمعجزة في حقيقتها هي الحادث الخارق للعادة والقوانين التي يلاحظها الناس وتسير عليها حوادث الكون بحريه الله تأييداً للأنبياء . وقد حاول البعض ان يعطي المعجزة صورة الأمر المعادي الذي يحصل في الطبيعة بطريق الصدفة أو العلم ، ولكن المعجزة في الواقع تفقد معناها وكونها دلالة على صدق النبي اذا فقدت الصفة الخارقة .

فاذا قال مدعي النبوة إن دلالة صدقي أن تطلع الشمس من المغرب وهي تطلع عادة من المشرق كان ذلك دلالة وتأييداً له ، أما اذا أخبر قومه ان الشمس تطلع من المشرق فليس في طلوعها ما يثبت أي إعجاز .

(١) سورة البقرة ٢٦٠

(٢) سورة البقرة ١ و ٢

(١) الصفات ١٠٢

(٢) القصص من ٣٠ - ٣١

(٣) الشعراء من ١٩٣ - ١٩٤

ومن المعجزات المادية : ناقة صالح ، وقد قص القرآن خبرها بقوله :
 « قالوا إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت
 من المرسلين » قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء
 فيأخذكم عذاب يوم عظيم » (١). ومنها معجزة عصا موسى التي حدثنا القرآن
 خبرها بقوله : « قال لئن اتخذت إله غيري لأجعلنك من المسجونين » قال او لو
 جئت بك بشيء مبين ، قال : فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه
 فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . ومنها معجزات
 عيسى عليه السلام ، التي عناها القرآن بقوله : « اني اخلق من الطين كهيئة
 الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذني وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى
 بإذن الله ، وأنبئكم بما نأكلون وتدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم
 إن كنتم مؤمنين » .

والملاحظ ان معظم الأمم التي أتمتها المعجزات اصرت على كفرها وإلحادها
 ولم تؤمن ، وقد بين القرآن ان الهداية بيد الله ، وأنه مهما تكن قيمة المعجزة
 فان نفوساً كثيرة لن ترتدع أو تؤمن « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا
 يعمرجون » لقالوا : إنما 'سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ' (٢) .
 هل هناك أبلغ من هذه المعجزة ؟ إن البعض سيقول انه السحر او خداع
 البصر ، لذلك فإنه تعالى يخبر الرسول بهذا المعنى بقوله : « وما منعنا أن
 نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلوا
 بها ، وما نرسل الآيات إلا تخويفاً » (٣) .

(١) الشعراء ١٥٣ - ١٥٦

(٢) الحجر ١٤

(٣) الاسراء ٥٩

أما المعجزات المعنوية والعقلية فأماها : القرآن الكريم الذي نزل على محمد
 عليه الصلاة والسلام . ونستطيع ان نلاحظ بهذه المناسبة ان هذه المعجزة
 ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرسالة . والمعجزات إما ذاتية تتعلق بنقل ماهية
 الرسالة او انها خارجة عن جوهرها ، ومعجزة القرآن من النوع الاول لأنها
 عقلية تخاطب الفكر البشري وتعتمد على الاقناع العقلي اكثر مما تعتمد على
 القناعة الحسية التي هي اساس المعجزات المادية . ولا شك ان البشرية - حتى
 بعثة الرسول - كانت قطعت شوطاً كبيراً من الرقي العقلي ، فأمكن ان
 تخاطب عقولهم مباشرة ، وخطاب العقل أكثر شمولاً ودواماً واستقراراً ،
 لذلك كان القرآن الكريم معجزة الرسول حتى أبد الدهر .

اختلف العلماء والباحثون في حقيقة الاعجاز في القرآن ، ويمكن ان نحدد
 آراء هؤلاء العلماء في ثلاثة اتجاهات رئيسية :

١ - اتجاه يرى ان المعجز في القرآن هو صياغته اللفظية الخارقة للعادة
 وبلاغته الواضحة التي اعجزت العرب ان يأتوا بمثله .

٢ - واتجاه يرى الاعجاز فيما ورد في القرآن من الإعلام عن الغيوب وعن
 حوادث الامم السابقة وتاريخها وعقائدها ، فقد أشار القرآن الى حوادث
 ستقع في المستقبل ثم وقعت كما حدث ، مثال ذلك قوله تعالى : « ألم ،
 غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون » في بضع سنين .
 فقد حصل ان الفرس غلبت الروم ، فأخبر القرآن عن هذه الواقعة ، وأنبأ ان
 الروم سينتصفون من خصومهم في بضع سنين ، وتم ذلك فعلاً ؛ وبما ان
 الانسان لا يقدر على علم الغيب فان القرآن منزل من قبل الله وفيه من
 الاعجاز ما فيه . ثم إن القرآن تحدث عن تاريخ الامم السابقة وأديانها

حديث العلم بكل صغيرة وكبيرة من أحداثها وشؤونها ، ولما كان الرسول عليه السلام أمياً لم يطلع على كتب الأقدمين - التي لا تشير هي أيضاً بدقة الى تلك الامور - فلا بد انه تعالى هو الذي اخبر نبيه بهذه الاشياء .

٣ - وأخيراً فقد اتجه كثير من العلماء الى ان الاعجاز في القرآن هو فيما ورد فيه من انظمة انسانية باللغة الرقي لم يشهد الخلق لها مثيلاً في ضمان مصلحة بني الانسان وتأمين حياته الخيرة ، فقد ورد في القرآن انظمة لحياة الانسان في شتى الوان النشاط البشري السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي والروحي ، ولما كانت هذه الانظمة يستحيل ان يقدر عليها اي انسان فلا بد ان يكون القرآن منزلاً من الله مثبتاً لرسالة الرسول .

والواقع ان الاعجاز القرآني يشمل هذه النواحي جميعاً : فهو في اللفظ العجيب والتركيب البلاغي البديع ، وهو في اخباره عن الغيوب وانباء الامم السابقة ، وهو في انظمته الرائعة السامية ؛ ولا نستطيع ان نقول بحصر الاعجاز في جانب واحد ، لأن القرآن معجزة الرسول الى الناس جميعاً في مختلف ازمانهم وامكنتهم ، لذا كان لا بد ان يحوي هذه الوجوه المتعددة ، فاذا آمن العربي به لإعجازه البلاغي فقد يؤمن به الرومي لإخباره عن الامم السابقة كما قد يؤمن به الفارسي للأنظمة التي فيه ، فالقرآن معجز كله ، لفظاً ومعنى ونظاماً .

وبعد فإن الكتاب الذي بين ايدينا يبحث في النبوة وإثباتها ، وقد عرض له القاضي^(١) في أكثر من موضع من كتبه ، إلا انه تكلم عنه بالتفصيل في كتابين :

(١) ضربنا صفحاً عن التعريف بحياة القاضي وثقافته ومؤلفاته لأننا عرضنا لذلك في مقدمتنا لكتابه «شرح الاصول الخمسة» وسيصدر لنا قريباً كتاب خاص عن القاضي عبد الجبار ، بالإضافة الى رسالة الدكتوراء التي كانت بعنوان «القاضي عبد الجبار وآراؤه الكلامية» .

١ - الجزء الخامس عشر من موسوعته الكبيرة «المفني في اصول الدين» وقد أسماه «النبوات» .

٢ - الكتاب الذي بين ايدينا «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد» .

أما في الكتاب الاول فإنه يعنى بالحديث عن اساس نظرية النبوة وفكرة المعجزة بصورة عامة ، ثم يفصل الحديث عن عدد من المعجزات الحسية ويبين اختلافها عن السحر والشعوذة والصدفة وخفة اليد .

لكنه في كتابنا هذا يتحدث عن اثبات نبوة محمد ﷺ بصورة خاصة ، ويلج على جانب الإخبار عن الغيوب سواء جاء في القرآن الكريم او في احاديث الرسول ، فيقتبع هذه الاخبار مبيناً الى اي حد يصدقها الواقع والتاريخ .

إن القاضي يؤمن بالمعجزات الحسية التي وردت في القرآن والسنة الصحيحة يستنكر موقف البعض كالنظام من إنكارها ، ويرى الإعلام عن الغيوب من اهم دلائل النبوة ، كما ان القرآن في رأيه حجة من نواح ثلاثة : فهو حجة «من طريق الفصاحة والبلاغة» وهو حجة لما فيه من الاخبار بالغيوب ، وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول^(١) .

وحين تفصيل كلامه عن دلائل النبوة لا يلتزم القاضي البقاء في نطاق الحوادث او الدلائل بل يعرج - كمعادة القدماء - على كل ما يحد الحديث عنه ضرورياً بالمناسبة .

لذا فإننا نستطيع من خلال هذا الكتاب ان نتعرف على موقف القاضي من الاديان المختلفة : الساوية منها وغير الساوي ، وموقفه من الفلسفة اليونانية ، ومن اخذ بها من يسمون بفلاسفة الاسلام ، واخيراً موقفه من الاتجاهات العقائدية الاسلامية المختلفة وخاصة الاتجاه الباطني . وللقاضي مع هذه الاتجاهات جولات ومناقشات طويلة متشعبة .

حمل القاضي عبد الجبار على الفلسفة اليونانية عموماً وبين ان كتبهم التي وصلت الينا فيها الشيء الكثير من النقص والتحوير والتعديل اجراء أصحاب الاغراض والاتجاهات العقائدية المختلفة لتأييد عقائدهم وآرائهم ، وأفرد ارسطو بحملة عنيفة وخاصة في كتابه « الآثار العلوية » وانتقد نظريته في الكون والكواكب وما يراه من انها غير قابلة للقسمة او الزيادة او النقصان وانها حية عالمة سمعية بصيرة تخلق وترزق وتحيي وتميت ^(١) .

ومن الغريب انه ينتقد نظرية الرازي في اللذة والألم ، وقوله ان الله لا يستطيع ان يخلق الانسان إلا بالطريق الطبيعي ، ويتهمه بالإلحاد ، ولكنه يتجاوز عن رأيه في النبوة مع انه يخالف الاتجاه الاسلامي العام فيه ^(٢) .

أما الكندي فإنه - برأي القاضي - احد الملاحدة الذين تظاهروا بالاسلام لكنهم ما فتئوا يكيدون له ويمكرون به ، وقد عرض لرأيه في المد والجزر وأن القمر سبب لحصولها فشدّد النكير عليه .

ويظهر انه ينتقد فكرة القانون بصورة عامة لما كان يظنه من انها تحد من

(١) التثبيت ١٩٦
(٢) التثبيت ٢٩٣ ط ٢٩٤

قدرة الخلق المطلق من قبل الله وكونه خالقاً للشيء جميعاً على الاستمرار وأنه يخلقها من لا شيء ^(١) . ويبدو هذا واضحاً من بيانه لفعل الاحراق بالنار ^(٢) ، وحقيقة الشفاء بالدواء ، وقد نبه الاطباء بهذه المناسبة الى ان مهمتهم يجب ان تنحصر في معرفة العادات والتجارب فلا تتعدى ذلك الى الاهتمام بمعرفة اصول الأشياء ^(٣) .

أما موقف القاضي من اصحاب النجوم وسائر من يدعي معرفة الغيب والمستقبل فقد كان شديد العنف عليهم ، ولفت النظر الى حقيقة بديهة ولكنها لبدايتها قد تغيب على المرء ، وهي ان المنجم « يكذب في ألف شيء ويخطئ في ألف شيء فلا يحفظ عليه لأن ذلك غير منكر منه ، فاذا اتفق له الصواب في شيء واحد تعجبوا وحفظوا لقلته من مثله ولأنه اتى من غير معدنه ^(٤) .

ولا ينسى القاضي ان ينكر على رجال الباطنية موقفهم في التفرقة بين الصحابة وقولهم انهم ظلموا علياً رضي الله عنه ، وبين هذه المناسبة الصلة الوثيقة التي كانت تقوم بين الصحابة ^(٥) . كما اتهم الباطنية بأنها كانت مستغلة من الملحدين والذين لم تطمئن قلوبهم بالايان ، اذ تستر هؤلاء بالباطنية وتظاهروا بالتشيع لعلّ لخدمة اغراضهم في تحطيم الاسلام عن طريق تفريق المسلمين وإظهار الصحابة بمظهر المعتدين الخارجين على حدود الاسلام ، وعدد القاضي منهم

(١) التثبيت ٢٩٧ ط ٢٩٨ و
(٢) التثبيت ٣٠٢ و
(٣) التثبيت ٢٩٩ ط
(٤) التثبيت ١٨٨
(٥) التثبيت ١١٦

عددًا من الفلاسفة والكتّاب ، كالحداد والوراق والحصري وابن الراوندي وجابر وابن العميد .

ولم ينس القاضي ان يعرج على الديانات سواء منها غير السماوي كالديانات الفارسية والهندية القديمة ^(١) ، او السماوي في اصوله كالنصرانية ، وخص هذه الاخيرة بتفصيل طويل طريف ونظر اليها على انها امتداد للحضارة الرومانية والفلسفة اليونانية ، فالروم - في رأي القاضي - لم يفتصروا ولكن النصرانية تروّمت فأخذت أخلاق الرومان وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها بما فيها عقيدة التثليث ، « وهذا التثليث الذي للنصارى قد كانت فلاسفة الروم تنحو نحوه في أن العقل والعقل والمقول قصير شيئاً واحداً ، ويقولون هرمس المثلث ^(٢) » .

ولأهمية كتاب القاضي وطرافة الموضوعات التي تطرق لها ، والأسلوب الذي تناولها فيه ، كان موضع ثناء العلماء والكتّاب متقدميهم ومحدثيهم ، وقد اثنى عليه ابن العماد وابن شهبه وابن تيمية ، وكتب عنه الشيخ الكوثري في مقدمة « تبين كذب المفترى » : « ولم نر ما يقارب كتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار في قوة الحجج وحسن الصياغة في دفع شكوك الملشكين ^(٣) » .

والحق اننا نستطيع ان نعد هذا الكتاب الاول من نوعه في موضوعه ، ولا نعلم بين ما وقع في ايدينا ما يفوقه او يصل الى مرتبته .

(١) التثبيت ٨٧ ، ٨٠ ، ٨٨
(٢) التثبيت ٨٠ و
(٣) مقدمة كذب المفترى ص ٢٨

ورد هذا الكتاب لدى المؤلفين بأسماء متعددة ، فابن الملّغن في طبقات الشافعية وابن العماد في شذرات الذهب وابن حجر في اللسان يذكرونه باسم « دلائل النبوة » . أما ابن شهبه في طبقاته فقد ذكر انه « تثبيت دلائل النبوة » ، أما العنوان الذي كتب على الورقة الأولى من المخطوط الذي بين ايدينا فقد كان « تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد » .

ومن الثابت لدينا ان « التثبيت » كتب بعد « المغني » ، يدل على ذلك ما ذكره القاضي نفسه في اكثر من موضع من الكتاب من انه كتبه سنة ٣٨٥ هـ ^(١) ومن المعلوم لدينا انه انتهى من كتابة المغني سنة ٣٨٠ هـ .

أما المخطوطة التي اعتمدنا عليها في النشر فهي مخطوطة شهيد علي باستانبول وهي النسخة الوحيدة في العالم المعروفة حتى الآن .

وقد جهدنا - قدر استطاعتنا - ان نقدم النص الصحيح لهذا الكتاب القيم ، عازفين عن التعليق إلا في الحالات التي لا بد فيها منه كالتعريف بعلم من الأعلام او فكرة من الأفكار ، فاركبن للقارئ الكريم ان يقتبّع فكر القاضي كما أراد ان يعرضه وبحرية كاملة . وحرصنا أن نثبت في هامش الكتاب ارقام اوراق المخطوط ليسهل للباحث الرجوع اليه .

واذا كان لنا ما نرجوه فهو ان نكون قد اسهمنا - بفشرنا لهذا الكتاب - بإضافة لبنة جديدة الى صرح الثقافة الاسلامية ، غير طامعين إلا بثواب الله ورضاء .

عبد الكريم عثمان

بيروت - ٣٠ جادى الاولى ١٣٨٦ هـ
١٥ ايلول ١٩٦٦ م

(١) انظر التثبيت ١٩ ط ٨٠ و

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، الحمد لله الذي منّ على عباده بإرسال
رُسُلِهِ ، وختمهم بسيدهم محمد صلى الله وعليهم اجمعين ، فأرسله بالهدى ودين
الحق ، « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (١) .

هذا كتاب « تثبت دلائل نبوة نبينا محمد » رسول الله صلوات الله
عليه وسلامه ، والادلة على معجزاته وظهور آياته ، والرد على من
انكر ذلك .

بَاب

فنبداً من ذلك بما في القرآن ، وبما يحرى مجراه مما يعلمه من مجمع
اخباره ، كالعلم بالقرآن ، فقد علم كل من اخباره عليه السلام انه ظهر بمكة ،
فأكفر اليهود وبرى منهم ، والنصارى والروم وبرى منهم ، والفرس
والجوس وبرى منهم ، والهند وبرى منهم ، وقومه من قريش والعرب
وبرى منهم ، وعاب آلهتهم ، وأكفر اسلافهم ، وضلل اديانهم ، وفرق

آلافهم ، وقال لهم : الله ارسلني واصطفاني من العالمين ، وجعلني خبجة على كل من بلغتته دعوتي من الاولين والآخرين ، وجعلني خاتم النبيين وآخر المرسلين ، وإن ديني يظهر على الاديان كلها ، وإن كلمتي وكلمة اتباعي تملأ ، وإنهم هم الغالبون القاهرون المالكون .

وهو اذ ذاك فقير وحيد ، اجبر مُعيل ، قد اغضبهم وغازطهم بهذه / الدعوة ، وألبسهم الذل مع وحدته ، وبالحق في إسقاطهم ، فنهوه وزجره ، بعد ان عاتبوه وعذلوه ؛ ثم توعدوه بالاستئصال والبوار ، بعد ان رغبوه . فقلبهم على امره ، وقال : إني قد قلت لربي حين ارسلني : إني ان قلت هذا لقريش رضخوا رأسي ، فقال لي : قل ، وبلغهم ، فسيغضبهم ذلك ، وسيبعثون مكروهم عليك ، وسيحزبون ويحلبون ^(١) في عداوتك ، ويجمعون العساكر لحربك ، فأعصمك منهم ، وأبعث جنوداً لك منهم ومن غيرهم ؛ فتكون العقبى لك ، فقال هذا وما هو اشد منه .

يعلم ذلك كل من سمع اخباره من صدقه او كذبه ، وهو لا يعتصم بمخلوق ، ولا يصبو ملكاً من ملوك عصره ، ولا يلوذ بأحد من البشر . بل قد رماهم كلهم عن قوس واحدة بالعداوة ، وأسخطهم اجمعين ، وبعثهم بهذا الصنيع على عداوته . ثم ما رضي ان يجعل ذلك قولاً ثم صفحاً ، بل خلده ودونته ، وجعله كتاباً يقرأ ، وقرآناً يتلى ، يسمعه عدوه وقال : ربي قال لي ، وربى وربكم اوحى به اليّ ، فقال : « وإذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس ^(٢) » وقال : « يا ايها الرسول بلغ ما انزل

(١) جلب ، توعد بالشر

(٢) الاسراء ٦٠

اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ^(١) .

فأنهم ^(٢) زادوا غيظاً عليه ، وصاروا هم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يداً واحدة في عداوته ، وطلب نفسه ، والحرص على قتله ، وهم اشد الناس حقداً وأنفة وجبرية ^(٣) ، وطلباً بطائله ، لا يقارئون من عاب / خيولهم وجمالهم فكيف بن عاب آلهتهم وآباءهم وعقولهم وضلل اديانهم ، فعصمه الله منهم وهو رجل فريد بينهم ، وهو في مثوبة الموت ، وخندق الخوف ، وفل اليتيم ، ووحشة الوحدة ، لا يعتصم منهم بمخلوق ، فصرفهم الله عنه وهذه حاله ، فلو لم يكن من آياته ودلائل نبوته الا هذا لكفى وأغنى وزاد على الكفاية ، لأنه إخبار بغيوب كثيرة ، لأنه قال لجميع قريش ولجميع العرب ولجميع اليهود ولجميع النصارى ولكل واحد منهم : لا تقتلونني ، مع ما قد جاءهم به مما قد غاظهم وأغضبهم ، وهو في هذا القول كالباعث لهم على نفسه ، وكالحامل لهم على مكروهه وهو يذكرهم بذلك ، فلم منهم مع هذه الأحوال ، فهذا باب كافٍ شافٍ .

بَاب آخِر

وهذا مقام لا يقومه عاقل إلا ان يكون على غاية الثقة بالله عز وجل السكون الى وعد الله لأنه لو لم يكن كذلك لم تلبث ان تغضب أمم

(١) المائدة ٦٧

(٢) في الاصل ، فإن

(٣) الجبرية والجبرية : التكبر ، انظر القاموس ، مادة جبر

العرب والمعجم لأديانهم، ويأنفوا لأنفسهم وألهتهم، فيستأصلونه ويضطلمونه^(١) ويقتلونه ويمحون أثره. فلما سلم مع الحرص على قتله، وآلت الامور الى ما قال، علمت وتيقنت أنه من قبل الله، لأن مثله في هذا مشكل من قال اني أخوض هذه النار المضرمة فلا تحرقني، او كمن قال: أتردى من شاهق على الأنسة وانا عريان فلا تنفذ فيّ، او كمن قال: أدخل من هذه السباع الضارية الجائعة التي قد أغضبتها وقتلت اولادها وهي حريصة على افتراسي وبحاجة الى قتلي والراحة مني فأسلم منها ولا تقتلني، فهذا باب شاف.

وباب آخر

وهو ما كان وعد وقال وهو في وحدته، اني سأصير في جماعات وعساكر فكان كما قال وأخبر، لأنه حين دعاهم أنكروا قوله وأكفروه وتلقوه بالرد والتكذيب، ثم ما زال والنفر بعد النفر يجيبونه، حتى صار في عساكر، فاعتقدوا بصدقه ونبوته، وصاروا له جنداً مطيعين، وحزباً متفقين، ينفقون أموالهم ويسفكون دماءهم في طاعته، ويفرون من آباءهم ويقتلون أبناءهم ويفارقون أوطانهم لأجله وامثالاً لأوامره، وأزكى الأعمال عندهم ما أَرْضاه بلا دنيا بسطها فيهم، ولا أموال دفعها اليهم، ولا لرئاسة كانت له عليهم، بل كان يتيماً فقيراً وحيداً معيلاً محتاجاً.

ثم جاءهم مجيئاً ما جاء نبي قبله في مثل حاله، فان موسى عليه السلام أتى قومه من بني إسرائيل، وهم أولاد الأنبياء، قد اعتقدوا الربوبية وعرفوا

(١) اضطلم الشيء: استأصله. انظر القاموس، مادة: سلم

الطريق اليها واعتقدوا النبوة وعرفوا الأنبياء قبل موسى، كآدم ونوح، ثم الى ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط، وألفوا عبادة الله، واعتقدوا المعاد وعرفوه. ثم جاءهم في ذل وأسر وقهر في أيدي الجبابرة من القبط والفراعنة، يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويمنعونهم الصنائع الشريفة والاحتراف، ويقصرونهم على ضرب اللبن وقطع الأحطاب والاعمال الشاقة المؤلمة، فجاءهم موسى بما يعتقدون من الربوبية والنبوة، ثم أخرجهم من الذل الى العز، ومن الشقاء الى الرفاهية والدعة، ومن الفقر الى الغنى.

ثم جاءهم من بعد موسى من الأنبياء بما جاءهم به موسى، الى أن انتهت النبوة الى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فأتى بني اسرائيل بسنن موسى، وشرائع التوراة.

فقدم هو والأنبياء قبله على أمر مبهدي مألوف معروف، وعلى قوم قد ألفوا وعرفوا، وجاء محمد عليه السلام قوماً لا يعرفون الربوبية، ويمبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صلاة ولا صياماً ولا زكاة، أشد الناس نخوة وجبرية وأنفة، قساة جفاسة، معاشهم من شن الغارات، يسفكون دماءهم ويشدون ذريتهم فراراً من العار.

ودعاهم عليه السلام الى الربوبية، والى الاقرار بالنبوة والبعث والقيامة، وأخذهم بالصدق والوفاء وأداء الأمانة والخضوع للحق، وبالطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف والزكاة، وصلات الأرحام، وقطع السارق، وجلد القاذف والزاني وشارب الخمر، ومساواة الموالى والفقراء والأعاجم والضعفاء في الدماء، وأخذهم بالبراة من آلهتهم التي يعبدونها من دونه الله، ومن

آبائهم ومن أديانهم ، وبالإقرار بضلالهم ، والتدين بالبرامة منهم ، وببذل دمايتهم وأموالهم في طاعته ، وبمجاهدة الأمم ومعاداة الجبابرة والملوك في طاعته (١) ، فأخذهم بكل شدة ، وأخرجهم من الراحة الى الكد ومن المسألة الى العداوة ، وألزمهم ما لم يكونوا ألفوا ولا عهدوا ، وألزمهم الكلف والمؤن ، فأجابوه بهذه الشرائط ، فكان مجيئه على الوجوه التي قدمنا ذكرها من آياته ودلائل نبوته صلى الله عليه ، ولم نجعل طاعة اصحابه له وتصديق القوم له ومصيره في عساكر وجاعات من دلائل نبوة إلا لأنه اخبر قبل ذلك ان هذا سيكون فكان كما اخبر وكما قال على تلك الوجوه التي شرحناها وبينناها . لأنه دعاهم الى امور وشرائط ظاهر التدبير وموجب الرأي واقتضاء الحزم ألا يجيبوه ولا يتبعوه إلا ان يكون من قبل الله ، واثقا بوعد الله ، فان سبيله في ذلك سبيل من قال : هذه النملة الضعيفة تهزم هذه العساكر المعدة ، او هذه الزجاجة الرقيقة ترص هذه الجبال الصلبة الشديدة ، لأنه قد كان في الضعف

(١) كانت الصبغة الغالبة على أديان العرب في الجاهلية هي الصبغة الوثنية ، أي عبادة الاوثان ، الا ان هذا لم يمنع وجود عدد من الاديان الاخرى . فقد كان بين العرب صابئة يعظمون الكواكب والنجوم ويعبدونها ، ودانت بعضهم وخاصة في البحرين باليهودية الثنوية ، كما وجدت مراكز صغيرة لليهودية النصرانية . ووجد بعض الافراد من اعتقد بتوحيد الله ، ومعظم هؤلاء كان متأثرا بالاديان السامية السابقة ، ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل بن أسد ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث بن اسد .

وليس غرضنا هنا تفصيل أديان العرب في الجاهلية ، فان ذلك يعرف في مواضع من كتب العقائد والديانات وخاصة كتاب الآراء والديانات للتونجي ، والملل والنحل للشهرستاني ، والفصل في الملل والنحل لابن حزم .

الا اننا نحب ان نشير الى ان القاضي عبد الجبار تعرض لهذا الموضوع بالتفصيل في الجزء الرابع من موسوعته الكبيرة المغنى .

والوحدة على ما قد علمه الناس ، ثم دعاهم الى ما يكرهون ، وأخذهم بكل شدة ، وفرض عليهم الامور الغليظة الصعبة على ما تقدم من شرح ذلك ، فعلمت وتيقنت / أنه نور الله ومن قبل الله .

فإن قيل : أوليس قد اباحهم الغنائم ، فما تتكبرون ان تكون اجابيتهم له لهذه العلة ؟ قيل له : هذا لا يسأل عنه من يعقل ولا من يفكر لأن القوم قد اعتقدوا صدقه ونبوته فكانت اجابيتهم له لهذا وعلى هذا القربى الى الله عن رضى بذلك ، فمن ادعى غير هذا فقد أنكر المعلوم ، او يكون لم يسمع الاخبار . فهم إنما أجابوه على ان ينفقوا أموالهم ويسفكوا دمايتهم ويقتلوا آباءهم وأبنائهم في طاعته ولأجله ، فكيف يسوغ لعاقل فكتر وتدبر ان يقول إنما أجابوه طلبا للدنيا ورغبة في الراحة والدعة والأمر بالضد من ذلك . وبعد فان لم يكن تبعوه (١) إلا للغارة وللغنائم لكانوا يقولون له : حاجتنا اليك في الغارة والغنائم ونحن أعلم بها منك ، وهي صناعتنا نحن وعادتنا ، وما الذي يدعوننا الى اتباعك وما معك وما تبعك إلا ان تبعتنا على الغارة والغنائم ؟ أمن أجل سعة أموالك وكثرة كنوزك ومروج خيولك واصطبلات دولك ؟ أم لخزائن سلاحك . ومن أخذنا بأن نكفر آباءنا ونشهد بضلالهم ونسحق أجلاهم ، ونسوء اختياراتهم ، ونعادي الأمم وجبابرة الملوك ، ونسفك دمايتنا في طاعتك ، ونقتل كل من عاداك وخالفك وإن كانوا آباءنا وأبنائنا أو إخواننا ، ونفارق اوطاننا وأزواجنا ، ونهجر اللذات من شرب الخمر ولبس الحرير وشفاء الغيظ بقتل / من سبنا أو عاب آباءنا كعادتنا في ذلك ، ثم لا نحصل إلا على شيء اذا غنمناه بقوتنا وغلبنا عليه بأسيا فانا بعد المخاطرة بدمايتنا

(١) في الأصل ، تبعه

أن نسله إليك فتعطينا بعضه ، هذا لا يختاره بله النساء فكيف بالمهاجرين والانصار الذين أجابوه فصار بهم في عز ومنعة ، وصبروا على تلك الشرائط التي شرطها .

وبعد فإن لم يكن نبياً فهم لا يدرون هل يصل الى غنيمة ؟ ولعله لا يتم له شيء مما يعد ، فما كانوا ليتبعوه لما يظنه الخصم ، ولولا أن هذا قد كان في أهل الذمة وطبقات الزنادقة ، وتعدوا الى قوم زعموا أنهم من المسلمين لما ذكرناه ، ولكنه شيء يستزلون به المسلمين الذين لا ينظرون فيما هذا سبيله ، ويفترون بالظاهر .

هؤلاء الذين ادعوا أنهم من المسلمين ، وأنهم من خاصة الخاصة (١) ، ومن قد عرف ما لا يعرفه غيره ، وأن الأمور غوامض وبواطن قد عرفها ، فيعتقد من يسمعه في المهاجرين والانصار الغفلة والبله وقلة العقل ، ومن تدبر ، يعلم أنهم أوفر عالم الله عقولاً ، وأحسنهم تحصيلاً ، وأمرهم استدراكاً لحفريات الأمور وغوامضها ، لا فرق بين من رمى المهاجرين والانصار بذلك ، وبين من رمى رسول الله ﷺ بذلك . فإن آثار عقول المهاجرين والانصار معروفة في أفعالهم ، وتدبيرهم الدنيا ، وسياسة أهلها ، وترتيب خواصهم وعوامهم ، وأخذها من أيدي دهاة الملوك وعقلاء الناس ، وتفصيل ذلك يطول .

فإن قيل : ومن سلم لكم عقل صاحبكم حتى تقولوا إن من دفعنا عن عقول المهاجرين والانصار كمن دفعنا عن عقل رسول الله ﷺ ؟

(١) يقصد هؤلاء الباطنية ، فقد وقعوا بأكثر الصحابة وهاجمهم ، فادعوا أن اسلامهم انما كان لمال او جاه ، ولم يستخلصوا من الصحابة الا عدداً محدوداً .

قيل له : إن أعداءه لا يدفعونه عن ذلك ، فإنهم قالوا : ما جمع المهاجرين والانصار وهو فقير وحيد أجير معيل وقد دعاهم الى ما قدمنا وعلى الشرائط التي ذكرنا إلا بعقل وافر ، وحلم واسع ، وبلطف في التدبير ، وحسن تأتٍ وعلم بالعواقب ، وسعة في الفطن ، وهذا قول عدوه فيه . فأما وليه فيقول : هذا لا يبلغه عاقل بعقله ، ولو كان أتم الناس عقلاً ، وأوسعهم علماً وحلماً ، وأكثرهم مالاً ، ولا يكون هذا على تلك الشرائط إلا بتدبير الله عز وجل ، الذي يملك العقول ، ويقلب القلوب ، ويوحى منه عز وجل .

فإن زعم الأعداء أن الذي تم له كان مع قلة العقل وبالعجز فيه والخبط فقد خرجوا من كل معقول ، وتبرؤوا من كل تمييز ومحصول ، وجعلوا أنفسهم ضحكة وأحلاوا بها المكارة ، وأعطوا خصمهم أكثر مما طلب ، وشهدوا بأن الله قد نقض له العادات أكثر مما نقضها لأحد من الناس كلهم ممن ادعى النبوة والحكمة وغيرهم لأنهم زعموا أنه تم له ما تم بتلك الشرائط وعلى تلك بعقل ضعيف وخلق سخي وبالدعاب عن الحزم والحلم ومع طول الغفلة ، فإذا تبين عقله لمن تفكر من / عدوه ، علم أن عقول المهاجرين والانصار مثل عقله أو قريب منه ، وكذا عقول قريش ثم العرب ؛ فإن العقلاء والحكماء يقولون : الأمم العاقلة هم : العرب والفرس والهند والروم ، ثم قالوا : أعقل الأربع العرب والفرس ، ثم اختلفوا أيها أعقل وأحكم وأفطن ، الفرس أم العرب ؟ وخاضوا في ذلك ، وذكروا ما لكل أمة من وصية وحكمة ، وتدبير وسياسة ، وهذا ما لا يدفعه العاقل المتفكر المتدبر .

فإذا كان عقل رسول الله ﷺ قد عرفه عدوه ووليته ، فمن هذا عقله

لا يأتي تلك الامم ويستقبلها بتلك المكاره التي فصلنا وحاله في الوحدة ما ذكرنا ثم يقول : لا تقتلونني مع حرصهم على قتله ، ويقول : ستصبرون أنصاري مع شدة ما دعوتكم إليه وهو غير واثق بما قال ، ولا ساكن الى ما أخبر ، ثم لا يرضى او يجعل ذلك كتاباً يُقرأ ، وقرأنا يُتلى ، ويجعله في يد عدوه فيقول : «سريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق» (١) .

يريد بالآفاق : ظهور الاسلام عليها ، وبلوغ دعوته إليها ، لأنه قد كان وعد بذلك وهو بمكة ، وحين ادعى النبوة ، فكانوا يقولون : أيطمع محمد أن يظهر على الآفاق ؟ لا ، ولا على مكة ، ولا على دار من دور مكة ؟ « وفي أنفسهم » يريد : في اسلام من يسلم منهم بعد الرد والتكذيب / ومن يقيم على تكذيبه ويموت على شركه على ما لعلته ان يرد تفصيله عليك .

وفي هذا المعنى قوله عز وجل : «خلق الانسان من عجل ، سأريكم آياتي فلا تستعجلون» (٢) لأنه ﷺ كان اذا ذكر ظهور دينه ، وغلبة اصحابه ، وقتلهم لأعدائه ، استبعدوا هذا بل أحالوه ، وقطعوا الشهادة بأن هذا لا يكون أبداً ، فيقول في جواب ذلك : «خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون» .

وفي هذا المعنى قوله عز وجل : «فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين» (٣) يعني هؤلاء : مثل أبي جهل ، وأبي لهب ،

(١) فصلت ٥٣

(٢) الأنبياء ٣٧

(٣) الانعام ٨٩

وعقبة بن أبي معيط ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل وأشباههم وأمثالهم من اعداء رسول الله ﷺ . فعزى الله نبيه ، وبشره بقوم يطيعونه ويتبعونه ، فيسر له المهاجرين والأنصار كما وعده .

وقد أذكره بإنجاز هذا الوعد ووقوع الوفاء به ، فقال عز وجل : « وإن يريدوا ان يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألّف بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم » (١) لأن اجتماع المهاجرين والأنصار له ، واعتقادهم نبوته ، وإخلاصهم في طاعته على تلك الشرائط التي تقدم ذكرها ، وعلى الوجوه التي / قرر دعوته عليها لا يكون ولا يتم باتفاق جميع ما في الارض ، ولا يكون ذلك إلا بتدبير الله وصنعه ، وهو من آياته التي نقض العادات بها .

ومثله قوله : «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٢) ، وهم قد كانوا عقلاء قد عرفوا هذا ، ولا يجوز في العقل ان يقول رئيس قوم لأتباعه : قد كنتم اعداء يعادي بعضكم بعضاً ثم صرتم اخواناً يخلص بعضكم لبعض المودة وبني هداكم الله وجمعكم

(١) الانفال ٦٢ و ٦٣

(٢) آل عمران ١٠٣ و ١٠٤

(٣) يشير القاضي الى الدعوة العباسية التي حمل العباس الأكبر في تأسيسها ابراهيم بن محمد ابن علي بن عبيد الله بن العباس ، وقد بويع بعده لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وذلك في سنة ١٣٢ هـ .

وهو يعلم انهم يعلمون انه قد كذبهم ؛ هذا في رئيس لا يدعي النبوة فكيف بن يدعي الصدق والنبوة ؟ وهذا قول قد سمعه عدو النبي ﷺ من اليهود والنصارى وقريش والعرب ، وأخرسهم صدقه ، وبهر عقولهم تمامه والوفاء به ، لأنهم اجتمعوا له بتلك الشرائط التي قد تقدمت ، وهو بخلاف اجتماع الاتباع لخطاب الملك وطلاب الدنيا .

فان قيل : أفليس علي بن عبدالله ابن العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وابنه محمد وبنو محمد ، كإبراهيم الامام وإخوته ، كأبي العباس ، وأبي جعفر ، وغيرهما ، قد كانوا مقهورين ومغلوبين ببني أمية ، فدعوا الى انفسهم بخراسان فأجبيوا ، وصاروا في عساكر وجماعات ، فغلبوا بني أمية على الملك ، وقتلوه وأخذوا كل ما في ايديهم الا بلاد الاندلس من ارض المغرب ، فلم لا يكون سبيل نبيكم وغلبته هذه السبيل ؟ وإلا فقد لزمكم ان تقولوا بنبوة بني العباس كما قلتم بنبوة صاحبكم .

قيل له : قد فرغنا من هذا مرة وتبيننا الجواب فيه ، وهو أنا لم نقل بنبوة محمد ﷺ لأنه صارت له رئاسة وصار متبوعاً وصارت له عساكر ، ولكن لأنه أخبر بالأمور قبل كونها على غير مجرى العادة ، بل على ما هو نقض للعادات ، لأنه أتى الناس وهو وحيد فقير أجير ، فأغضبهم وغازظهم وجادلهم وعادوه ، وأخبر أنهم سيغلبون ، وأنه يغلبهم ويقهرهم ، وقالوا : بل نحن نغلبك ونديرك ، وكان موجب التدبير ومقتضى الحزم أن تكون الغلبة لهم لا له ، إلا أن يكون من قبل الله ورسوله ، لأنهم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يدّوا واحدة في عداوته والقصد

لقتله وإطفاء نوره ولمنع اتباعه ، والرجال والكرع (١) والسلاح مع عدوه لا معه ، فألت الأمور الى ما قاله ، وكما أخبر ، وعلى ما فسر .

ولم تكن هذه سبيل بني العباس ؛ فإنهم ما ادعوا نبوة ولا رسالة ، ولا أتوا مثل ما أتى من الإخبار بالغيوب .

وأخرى ان بني العباس قصدوا ، المسلمين من اهل خراسان ، الذين قد اعتقدوا نبوة محمد ﷺ ، فتدينوا باقامة شريعته وحد حدوده ، بإنكار ما أنكروه وإكرام من أكرمه ، وإجلال من أجله ، وباهانة من ارتكب الكبائر فشكوا اليهم ما نزل ببني هاشم خاصة ثم بالمسلمين عامة من بني أمية . وبنو هاشم اذ ذاك كلمة واحدة ، ما اختلفوا ولا تباينوا . فكان ولد العباس وولد علي وولد جعفر وولد عقيل (٢) وسائر بني هاشم متفقين ، وانما اختلفوا بعد مصير الدولة والملك الى بني العباس أيام أبي جعفر المنصور ، فجرى بينه وبين بني عمه من ولد الحسن ما هو معروف ، فعينئذ اختلفوا ، فذكر بنو هاشم لأهل خراسان ما صنعه بسر بن أرطاة بعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وأنه قصده وهو عامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهرب من يده ، ووجد له ابنين طفلين فقتلها وقتل جماعة من اصحابه (٣) . وأذكروهم بقتل حجر بن عدي

(١) الكراع من الدابة : ما دون الساق ، يريد القاضي ان يشير الى الخيل وغير ذلك من الحيوانات التي يتقوى بها على القتال . انظر لسان العرب ، مارد كرع

(٢) يقصد : العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب ، وجعفر بن أبي طالب ، وعقيل بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً .

(٣) انظر لتفصيل هذه الحادثة الطبري ١ : ٣٤٥١ و ٣٤٥٢

وأصحابه^(١)، وبكربلاء ومن قتل من بني هاشم بها، وبقتل مسلم بن عقيل^(٢)، وبالحرّة^(٣)، وبمسكر التوابين^(٤) من أهل عين الورد، وبما أنزلوه بالكعبة في قتال آل الزبير^(٥)، ثم بمن قتلوه من القراء أو الفقهاء الذين ثاروا مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث^(٦) في الإنكار على الحجاج وعبد الملك بن مروان، وبقتل زيد بن علي ويحيى بن زيد^(٧)، وبصنيع

(١) لتفصيل حادثة مقتل حجر بن عدي من قبل بسر بن أبي أرقطة عامل معاوية انظر الطبري ٢ : ١١١ .

(٢) قتل مع الحسين رضي الله عنه سنة ٦١ هـ هو واخوه وابنه الطبري ٢ : ٣٨٨ .

(٣) الحرّة في الأصل هي الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة كأنها أحرقت بالنار، وهناك أماكن كثيرة أطلق عليها هذا الاسم . والمقصود هنا حرّة المدينة حين ورد بها مسلم بن عقبة من قبل زيد بن معاوية وكانت فيها وقعة الحرّة سنة ٦٣ هـ حيث استبيحت المدينة بعدها ثلاثة أيام . انظر معجم البلدان ٢ : ٢٤٧ والطبري ٢ : ٤١٢ وما بعدها .

(٤) المقصود بهم من خرج من أهل العراق يطلبون دم الحسين رضي الله عنه سنة ٦٥ هـ وقالوا : أخرجتنا التوبة من ذنبنا والطلب بدم ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم . انظر تفصيل ذلك في الطبري ٢ : ٥٣٨ - ٥٧٦ .

(٥) كان رمي الكعبة بالمنجنيق بأمر من الحجاج سنة ٧٣ هـ وقيل ٧٤ هـ، وكان أميراً لجيوش بني أمية المحاصرة لعبد الله بن الزبير في مكة . وقد قتل عبد الله بن الزبير في تلك السنة . ابو الفداء ١ : ١٩٧ .

(٦) خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج سنة ٧٥ واستولى على خراسان وغلب على الكوفة، لكن الحجاج قضى على حركته في نفس السنة، وكان قد خرج مع الأشعث مجموعة من القراء والفقهاء . ابو الفداء ١ : ١٩٧ .

(٧) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ٧٩ - ١٢٢ هـ كان فقيهاً، وقرأ على وأصل بن عطاء واقتبس منه بعض آراء المعتزلة . خرج على الأمويين سنة ١٢٠ في العراق وكان عامل الأمويين فيه يوسف بن عمر الثقفي، وقد قاتله والي الكوفة الحكم بن الصلت، واستشهد سنة ١٢٢ هـ . الطبري ٨ : ٢٦٠ ، ٢٧١ ، قوات الوفيات ١ : ١٦٤ .

الوليد بن يزيد/ بن عبد الملك^(١) وما أتى من شرب الخمر والمجاهرة بذلك . فأثار بنو العباس ودعاتهم أهل خراسان بذلك، فقدم بنو العباس على أمر ممد وجند مجند، وعلى قوم مسلمين قد صدقوا رسول الله ﷺ، ورضوا بما رضي رسول الله، وغضبوا بما يغضب منه رسول الله ﷺ . فبنو العباس إلى رسول الله نَحَوًا، وبأمرته والمصدقين به استجاروا، فالذي تم لهم فبرسول الله ﷺ تم، وبظله تقيسوا، وبه تستروا، وهذه سبيل كل من ادعى بعده ﷺ الإمامة من بني هاشم ومن جميع قريش أو ادعى أنه من قريش . وكلهم برسول الله ﷺ تشبثوا، وبه تستروا واستعاذوا ولاذوا، ولأجله تم لهم ما تم . وأنت تجد ذلك في واحد واحد منهم في مشارق الأرض ومغاربها، وتعرف الحق منهم من المبطل، والدّعي من الصريح، فأين هذا من دعوة رسول الله ﷺ وسبيلها ما قدمنا وشرحنّا .

فإن قيل : أوليس مع ادعائه النبوة قد حمل السيف على من خالفه، وحارب بمن أطاعه من عصاه، فما تنكرون أن يكون الذي تم له من أوله إلى آخره إنما تم بالسيف وبالمكابرة، لا بالآيات والمعجزات ؟

قيل له : ما أنكرنا أنه حمل السيف، وإنما كلامنا في الذين صاروا سيوفاً له وعساكر / وبهم استطال على عدوه، فإن هؤلاء قد أجابوه بلا دنيا ولا سيف كما قد قدمنا وبيننا، وبصيرهم إلى طاعته صحت نبوته فظهرت دلائل رسالته، لأنه ما خلق قوماً حملوا السلاح معه، وإنما أجابه المهاجرون

(١) الوليد بن يزيد هو الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني أمية، تولى أمرة المسلمين سنة ١٢٤ هـ وعكف على شرب الخمر وسماع الغناء ومعاشرة النساء، وقد ثقل أمره على الرعية والجنود فثاروا عليه سنة ١٢٦ هـ بعد أن دعا يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى نفسه، وقد قتل الوليد في نفس السنة . تاريخ أبي الفداء ٢٠٥ - ٢٠٦ .

والأنصار الذين هم من قريش وغيرهم من العرب وقد أتاهاهم بإكفارهم وإكفار آبائهم على ما شرحنا وبيننا ، وهو من الوحدة والفقر على ما ذكرنا ، فمكت بمكة بعد ادعائه النبوة خمسة عشر سنة يدعو إلى دينه ، فيجيبه النفر بعد النفر على خوف شديد ، وقد تجردت قريش وغيرهم من أعدائه له صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه وأطاعه ، فيقصدونهم بالضرب والتعذيب الشديد ، ويمنعونهم الأقوات ، ويتعاهدون على أن لا يبيعوهم ولا يشاروهم ولا يناكحوهم ، وقد كتبوا في ذلك الصحف ^(١) ، وقد قتلوا منهم قبل الهجرة رجالاً ونساء وكانوا يرصدون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدعائه إذا خرج إلى الموسم لدعاء الناس وإظهار ما معه وتلاوة القرآن ، فيقولون للعرب : هذا منا وقد صبا وهو ساحر كذاب ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا لما معه ، فنحن اعلم به ، وقد سفه احلامنا ، وضلل ادياننا ، واكفر آباءنا ، وفرق آلافنا ، وأفسد أحداثنا وعبيدنا ونساءنا .

ثم كان هو صلى الله عليه وسلم يرمي ويضرب بالضرب المبرح ، ويداس ويطرح على رأسه الفرث والتراب / ويلقى من المكاره هو ومن اتبعه ما يطول شرحه ^(٢) . فلم يكن لأصحابه مع شرفهم وشرف أهلهم قرار ، ولا أمكنهم المقام للشدائد التي تناولهم ، حتى فروا بأديانهم في الأمصار والبلدان حتى عبروا البحار وصاروا إلى أرض الحبشة ^(٣) ، فتعرف قريش أخبارهم

(١) لما رأت قريش أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم في ازدياد وإن عه إيا طالب يحميه منهم اتعمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعقدون فيه على أن لا ينكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . وقد انحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه إلا عمه أبو لهب فإنه ظاهر قريشاً . وقد أقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا . الطبري ١ : ١١٩٠

(٢) انظر الطبري ١ : ١١٩٨ - ١١٩٩

(٣) كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعض المؤرخين أن عدد المسلمين المهاجرين منها كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة . الطبري ١ : ١١٨١ ، وقال بعضهم بل كانوا اثنين وثلاثين رجلاً . الطبري ١١٨٣ .

وإلى أين توجهوا ، فترسل في طلبهم وتغري بهم وتنفر عنهم وتنفق في ذلك الأموال . فأرسلوا إلى النجاشي ملك الحبشة وهو إذ ذاك نصراني بن ينفثره عن المسلمين الذين فروا بأديانهم إلى أرض الحبشة ، وحملت إليه قريش هدايا ولاطفوه ، وقالوا له : إن هؤلاء قوم منا ، وقد اتبعوا رجلاً منا فأفسدتم ، وهو عدونا وعدو النصاري ، وهو يقول في المسيح : أنه هبئ مخلوق ، فسلموهم إلينا .

وكان هناك عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر بن أبي طالب ومعه أسماء ابنة عيسى ، وخالد بن سعيد بن أبي أحيمة ، والزبير بن العوام ^(١) ، وعمار بن ياسر ^(٢) ، وأبو حذيفة بن عتبة ^(٣) ، ونحو مائة من وجوه المهاجرين ، وكانت لهم مع رسول قريش إلى النجاشي مجالس وخصوصات طويلة ، فصارت العقبي للمسلمين ، وقامت حاجتهم ، وعرفها النجاشي ملك الحبشة فأسلم واستبصر ^(٤) .

وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على أهل المواسم إذا اجتمعت / قبائل العرب ، وخرج إلى الطائف ^(٥) يدعو إلى الله ويقول : أنا رسول الله

(١) الزبير بن العوام الصحابي المشهور المتوفي سنة ٣٦ هـ ، ولعرفة خالد بن سعيد بن أبي أحيمة (العاص) انظر الاصابة ١ : ٩١ ، ولبنات عيسى وجعفر الاصابة ١ : ١١ ، وأسماء هي زوجة خالد بن سعيد .

(٢) عمار بن ياسر الصحابي الجليل المتوفي سنة ٣٧ هـ ، وقد شهد بدرًا وأحداً والخندق وليلة الرضوان . انظر الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ٤٦٩ .

(٣) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته سهيلة بنت سهيل بن عمرو .

(٤) كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر النجاشي بالخير دائماً ، وقد نعاه بنفسه للمسلمين سنة تسع من الهجرة .

(٥) كان ذلك بعد وفاة أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فردده سادتها : عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو رداً قبيحاً ، وأغروا به سفاهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى التجأ إلى حائط لعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة . الطبري ١ : ١٢٠٠ .

فمن يحيرني حق أبلغ رسالة ربي؟ وقريش تلبعه وتمنع من اتباعه . وقد عرض نفسه على القبائل^(١) ، ومعه ابو بكر الصديق وعلي بن ابي طالب ، وعمه ابو لهب يقول لتلك القبائل : نحن اهل وأعلم به فلا تسمعوا منه ولا تقبلوا قوله ، فتلقى تلك القبائل رسول الله بالجفاء ، ويقولون له : قومك أعلم بك ، ولو كان عندك خير لاتبعوك ، فأمسك عنا ، الى ان انتهى الى ربيعة والى ذهل بن شيبان ، فكلهم وتلا عليهم القرآن ، فقالوا : إنا على هذا الماء من ذي قار ، وقد اخذ علينا كسرى ألا نحدث حدثاً ، ولا نؤوي محدثاً ، وهذا الذي أتيت به ودعوت اليه تكرمه الملوك ، فإن شئت ان نجيرك إلا من الملوك فعلنا ، فقال ﷺ : ما أسأتم بالرد إذ أفصحتم بالصدق ، إن هذا الدين لا يكون من اهل إلا من حاطه من جميع جوانبه ، رأيتم إن أظهركم الله عليهم ، وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأفرشكم نساءهم أنطيعونه وتعبدونه حق عبادته ؟ فتمعجبوا من قوله ومن إقدامه على ان ملك كسرى يزول بدعوته ويصير ملكه لأصحابه ، استبعاداً لذلك ، واستعظاماً لملك كسرى ان يزول يجبارة الملوك الأقوياء الاغنياء ، فكيف يزول بهذا الوحيد الفقير ؟ ثم يقولون هذا عاقل ، ولم يكن ليقول هذا ويعرض نفسه للملوك إلا وهو على ثقة ، ثم انصرف عنهم وما اجابوه .

وما زال يدعو ويعرض نفسه في المواسم اذا اجتمعت العرب ، الى ان لقبته الانصار^(٢) ، فسمعت منه وأجابوه واسلموا ، وخرجوا الى المدينة

(١) انظر تفاصيل عرض النبي نفسه على القبائل في الطبري ١ : ١٢٠٠ - ١٢٠٩ .

(٢) كان اول من تلقى الرسول من اهل المدينة ستة نفر من الخزرج قدموا مكة في موسم الحج ، وعادوا الى المدينة بعد ان أسلموا ، فدعوا قومهم الى الاسلام ، وتوالت الوفود من المدينة الى مكة في مواسم الحج اللاحقة ، وكانت بيعة العقبة الاولى التي حضرها اثنا عشر رجلاً من الانصار ، ثم كانت العقبة الثانية التي شهدها سبعون رجلاً ومعهم امرأتان من نساءهم . انظر تفاصيل ذلك في الطبري ١ : ١٢٠٨ - ١٢٢٢ .

ودعوا الى الاسلام ، ثم عاد قوم آخرون في سنة اخرى وبإيعوه وهو مقسم بمكة ، ثم عادوا في سنة ثالثة مع آخرين فبإيعوه ورجعوا الى المدينة ، وظهر الاسلام بها .

والانصار رضي الله عنهم انما هم قبيلتان عظيمتان من قبائل اليمن ، ذو بأس وشدة وأموال ، وذو شوكة^(١) شديدة وعدد وعدة ، قد ترددوا اليه ، وسمعوا دعوته واحتجاجه ، فأجابوه على البراءة من اديانهم التي كانوا عليها ، ومن آياتهم ، وعلى ان يبذلوا اموالهم ودماءهم ، وعلى معاداة ملوك العرب والعجم في طاعته وله ولأجله .

وكم قد اسلم وأجاب على هذه السبيل من قبائل العرب ، كقبيلة اسلم ، وكقبيلة غفار ، وهما من قبائل خزاعة وكنانة^(٢) ، وكالذين اسلموا من عبد القيس^(٣) وهم من فرسان ربيعة ورجالهم ، ومن قبائل فزارة^(٤) ، ومن قبائل جهينة ، على هذه السبيل . وكم اسلم من اهل اليمن من ملوكها من حمير وغيرهم ، الى من اسلم من ملوك عمان من ولد الجلندي بن كركر^(٥)

(١) كذا في الاصل

(٢) انظر اسلام قبيلة اسلم وقبيلة غفار وفزارة وجهينة وفضائل هذه القبائل في البخاري ومسلم باب المناقب .

(٣) وكان قدوم وفد عبد القيس في السنة العاشرة للهجرة .

(٤) كان اسلام فزارة وكثير من قبائل العرب في العام التاسع للهجرة ، وكان على رأس وفدهم الى النبي خارجة بن حصن ، الطبري ١ : ١٧٢٠ .

وقد سمي العام التاسع بعام الوفود لكثرة ما ورد المدينة من قبائل العرب معلنة اسلامها .

(٥) انظر لفضل عمان والجلندي صحيح مسلم في المناقب . وكان عمرو بن العاص رسولاً من الرسول صلى الله عليه وسلم الى ملكي عمان جيفر وعبد بن الجلندي . السيرة الحلبية ٣ : ٢٥٢ .

وكم قد اسلم من المعجم والانباط بصنعاء الذين كانوا جنود كسرى، واخرجهم مع سيف بن ذي يزن ليقصروا له من ملوك الحبشة الذين قتلوا اباہ. ولعل قصتهم ان ترد عليك بأكثر من هذا الشرح .

فالذين اجابوه عليه السلام وبهذه الشرائط وبلا حرب خلق كثير، وامم عظيمة هي مذكورة، يعرفها اهل العلم، ومن اراد ان يعرف / ذلك حتى يصير في مثل حالهم قدر على ذلك ووجد السبيل اليه . فهؤلاء الذين اسلموا لله ومن خوف وتقرباً الى الله، وهم عساكره .

ولما نشأت بدعة الخارجية ^(١) وهي اول بدعة نشأت في الاسلام، ثم بعدها وبعد دهر طويل نشأت بدعة الارحاء ^(٢)، ثم بعدها بدهر طويل نشأت بدعة القدر ^(٣)، وبعد بدعة القدر بدهر طويل نشأت بدعة الرفض ^(٤). فكان العلماء يقولون : لا تسبوا اصحاب محمد عليه السلام فانهم اسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف اسياقهم .

(١) طائفة من المسلمين كانوا من اصحاب علي بن ابي طالب رضي الله عنه ثم خرجوا عليه بعد قبوله للحكم واتهموه بالكفر لذلك وطلبوا منه ان يتوب ويحدد اسلامه، وقالوا ان مرتكب الكبيرة كافر . وقد حاول علي ان يقنعهم فلم يستطع فحاربهم، ثم حاربهم خلفاء بني امية . لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل في عُمان وليبيا والجزائر .

(٢) المرجئة على النقيض من الخوارج، فقد قالوا ان مرتكب الكبيرة مؤمن وانه لا يضر مع الايمان كفر، وهم على درجات في عقيدتهم هذه .

(٣) يقصد من يقول ان العبد لا يقدر على فعله وان افعال العباد مخلوقة من الله فيهم .

(٤) الرفض طائفة من الشيعة، ويسمى القاضى احياناً بالباطنية، واصح الاقوال في سبب تلقيبهم بذلك انهم طلبوا من زيد بن علي بن الحسين (وتنسب اليه الزيدية) ان يسب ابا بكر وعمر فرفض ذلك فرفضوه، ولم نجد ضرورة لتفصيل القول في هذه الطوائف لأنه ليس من مجال حديثنا .

وفاض الاسلام بالمدينة وفي هذه القبائل، وأقيمت فيها الصلاة، وأديت الزكاة، وأقيمت الجماعات والجمعة، وأقرى القرآن، وصارت المدينة دار الهجرة؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة محصور في الشعب يؤذى ويُقصد بأنواع المكارة هو ومن اتبعه، الى ان هاجر الى المدينة ومعه ابو بكر الصديق الهجرة المعروفة .

فهؤلاء الذين اجابوا بلا حرب، وقبل الحرب احتججنا، وهو موضع دلائلنا في هذه الآية التي اخبر وهو في تلك الحال انكم ستجيبونني، وإن كان لنا في الحروب والحاربين دلائل اخرى لعلنا نذكرها لك في كتابك هذا ان شاء الله .

فإن قيل : أوليس قد كان يدافع عنه عمه ابو طالب وإن كان على غير دينه، ويشفع الى قريش فيه، ويعاتبهم في بابه، ويذكرهم بصدقه وأمانته وقد كان صلى الله عليه وسلم معروفاً فيهم قبل الرسالة بمحمد الامين، ويسألهم الكف عنه وعن اذيته . وقد نصره ابو بكر الصديق وصدقه وكاشف ^(١) في بابه، وأنفق ماله في / نوائب الاسلام وفي عتق المعذبين في الله واتبعه من اهل مكة جماعة . وأسلم عمر قبل الهجرة وكاشف، وقال : لا نعبد الله سراً، فكيف ادعيت له الوحدة وعليه الغلبة وهو بمكة ؟

قيل له : قد علمنا انه حين دعا كان وحده والناس كلهم على خلافه، وليس في اجابة هؤلاء ومدافعة ابي طالب طعن ^(٢) فيما استدللنا، بل هو من الدلائل على ما قال صلى الله عليه وسلم قبل ان يحاج انه يستجاب وينصر، ثم مع

(١) كاشفه بالعدواة : بادأ بها . انظر القاموس : مادة كشف

(٢) وقد كتب فوقها في الاصل : به، وهي زائدة من الناسخ او المعلق .

نصرة هؤلاء وإجابتهم له ﷺ ومدافعة ابي طالب ، ما خرجوا ولا هو خرج من ان يكون ويكونوا بمكة مقهورين مغلوبين ، حتى فروا من عدوهم بأديانهم .

فإن قيل : فاذا كان الله قد وعد هؤلاء الانبياء بزعمك بالنصر والظهور فلم يفرّون من اعدائهم؟ فقد فرّ موسى من فرعون ببني اسرائيل ليلاً وخفية ومن إيقاد النيران لثلاث اراها فرعون وجنوده فيستدلوا بها عليهم ومعه الآيات والمعجزات ، وفرّ عيسى من مكان الى مكان بزعمك وزعم النصارى ، فانها تقول في اخبارها وأنجيلها ان يوسف النجار فرّ بعيسى وأمه الى مصر من بيت المقدس خوفاً من هيردس^(١) ملك بني اسرائيل ، فأقاموا بها اثني عشر سنة ومعه بزعمك وزعم النصارى الآيات والمعجزات ، وفرّ صاحبكم من قريش وأقام بالغار ومعه ابو بكر ثلاثة ايام ومعه كما زعمتم الآيات والمعجزات .

قلنا : ليس في فرارهم طعن في اعلامهم ، وما قالوا لا يفرّ ولا يتوقى فيكون في فرارهم تكذيب ، فإن كل شيء وعدوا به وقالوه قبل ان يكون قد كان وتم على ما قالوه وشرطوه / قبل ان يكون ، وليس في فرارهم ايضاً مقارنة لعدوهم ولا مداينة ، بل انما احتاجوا الى الفرار لترك المداينة والمقاربة ، ولشدة المكاشفة لعدوهم ، والمبالغة في اسخاطه وإرغامه ، ولو قاربوا العدو واتقوه لما احتاجوا الى الفرار .

فاحفظ هذا فانك محتاج اليه ، فإن قوماً زعموا انهم اتباع الانبياء المسلمين ، اجازوا على انبياء الله وعلى من هو حجة الله على خلقه المداينة

(١) هيرودس او هيرودوس هو حاكم فلسطين الروماني آنذاك . وانظر لقصة هرب يوسف النجار وعيسى عليه السلام وامه مريم : الاصحاح الثاني ١٣ مق

والمقاربة للمشركين ولأعداء الدين ، وأن الانبياء يمدحون المشركين ويذكرون اعداء الدين ويظهرون ذلك ، ويذمّون المؤمنين ويتبرّؤون من الانبياء والمرسلين خوفاً من المشركين ، ويذمّون ان حجبتهم في ذلك فرار رسول الله ﷺ واستتاره في الغار ثلاثة ايام^(١) . وقد بينا انه لا حجة لهم في ذلك ، بل هو الحجة عليهم ، وأن الذي اخرج الانبياء الى الفرار شدة المكاشفة ، وترك المقاربة ، وقائل هذا لا يثق بأفعال الانبياء وأقوالهم ، ولا بتزكية من زكوه ، ولا بلعن من لعنوه ، لأنهم قد قالوا انه قد يجوز ان يكون ظاهر الانبياء بخلاف اسرارهم وضمائمهم ، وأيضاً فان الانبياء لا يجوز ان يكون ظاهرهم بخلاف باطنهم وإن خافوا وإن قتلوا ، وهذا اصل كبير فاعرفه .

فإن قيل : ادعيتم ان اعداء نبيكم من قريش والعرب واليهود والنصارى حرصوا على قتله وهو بمكة ، وهو في تلك الحال من الوحدة والذلة وضعف الاتباع ، فمن اعطاكم هذا ، ومن سلمه لكم ؟

قيل له : ان من سمع اخباره واخبار القوم معه يعلم ذلك ، علماً لا يرتاب به ، كما يعلم انهم قد كذبوه وعادوه واغضبهم ما اتاه وشرعه ودعا اليه ، ولا فرق / بين من قال : انهم ما حرصوا على قتله ، وبين من قال : ولا كذبوه ولا عادوه ولا برئوا منه ، ولا انكروا شيئاً اتى ، ولا خالفوه ، وادعى انه هو ايضاً ما خالفهم ، ولا عاب اديانهم وآلهتهم ، ولا ادعى النبوة ، ولا خالفهم في البعث والنشر .

وقد حرصوا ايضاً على ذلك وهو بالمدينة ، واعدائهم فيها معه من العرب

(١) يقصد بهؤلاء الباطنية

واليهود والنصارى وهم كثير ونزول بالمدينة وحولها في أطامهم وحصونهم
مصدقون بها كالأكليل ، وقد غدروا به ، وارسلت قريش اليهم في ذلك ،
ودست غير واحد ، وكان من عامر بن الطفيل وأزيد في الاحوال التي كان
يكون فيها وحده فيصرفهم الله عنه بألوان الصرف ، كما صرف ابا جهل
وعقبة بن ابي معيط والذين كانوا بمكة ، كما هو مذكور . وكما دسوا له السم في
الطعام فصرفه الله عنه ، وقد راموه منه في طول حياته ، وقد كان معهم
وهو بالمدينة في التبذل والتفرد والتطرح اكثر زمانه ، على مثل حاله وهو
بمكة . وانما كان يكون في جماعة في اسفاره وفي حروبه ، فأما بيوته
وحجرات نسائه فمن جريد النخل ، وقد علم اهل العقل والتحصيل الفتك
يجبارة الملوك في حصونهم وقصورهم وهم وراء الابواب الحديد ، وقد
تحرزوا بصنائعهم المشاركين لهم في نعمهم بعبيدهم ، كصنيع شيرويه
بكسرى ابرويز^(١) ، وقبله من ملوك فارس من كانت هذه سبيله . وكما
جرى على المتوكل من المنتصر ، ثم على ولده ، الى ما جرى من الفتك بمحمد
بن المعتضد / المسمى بالقاهر بالله ، الى المتقي ، والى المستكفي ، والى ما
جرى بالإحساء على ذكريره الاصفهاني من جنوده واعوانه سني نيف
وخسين وثلاثمائة للهجرة في جوف داره واحصن قصوره ، وحوله وفي حجرته
ومعه ممن له نوبة في حراسته وحفظه من الرجال المتسلحين اكثر من الفين ،
فقتل وحده من بينهم ، ورفع رأسه .

(١) يقصد الاشارة الى ما صنعه شيرويه في سبيل الحصول على الملك . اذ شارك في قتل ابيه
كسرى ابرويز وكان من اعظم ملوك فارس ، وقد عاصر الرسول عليها وكانت هجرته عليه
الصلاة والسلام ايام كسرى ابرويز . انظر الطبري .
ثم ما كان يفعله الخلفاء العباسيون في سبيل الوصول الى الحكم من قتل آبائهم او اخوانهم او اقاربهم .
وكذلك ما فعله خادم ذكريره (ذكرويه) الاصفهاني القرمطي من قتله .

وليس في هؤلاء من أغضب الناس إغضاب رسول الله ﷺ ، ولا من
ادهى دعواه ، ولا من أذكر عدوه بعداوتة وأيقظه وبعثه على قتله وخرج
إليه بذات نفسه وما يريد ان يعمل ، مثل رسول الله ﷺ . فانه أتاها على
الوجه الذي ذكرنا في الوحدة والفقر ورماهم بتلك العداوة ، ثم قال :
ولا تقتلوني ، بل أنا أقتلكم وأسبيكم وأستبيح حصونكم ، فكان كما قال .
فلما قيل : ومن سلم لكم أن المهاجرين والانصار كانوا يعتقدون نبوته
وصدقه ، سيما وفي اهل ملتكم اليوم من طوائف الشيعة من يقول : إن
أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات والمهاجرين والانصار ما آمنوا به قط ،
ولا اعتقدوا صدقه ولا تعظيمه ولا إجلاله ولا توقيره ، وما كانوا إلا زائرين^(١)
عليه ، معتقدين تكذيبه وافتعاله واحتياله ، وانما كان اتباعهم له هزء آبه ،
واغتيالاً له ، وسخرية منه ، وإرصاداً لزلالته وإفساد امره ، ولإبطال تدبيره ،
ولمغالبة على الرئاسة ، وأنهم ما أقاموا له وزناً قط . وانما كان الذين يعتقدون
ما ادعيت فيه نفراً يسيراً ، كانوا مغلوبين مقهورين بهذه الجماعات من المهاجرين
والانصار ، وأنهم خرجوا من الدنيا على حال القهر والغلبة من هؤلاء المهاجرين
والانصار ، ومعهم بذلك روايات وأقوال ونصوص يدعون انها من صاحبكم ،
وتصنيفات قد ملأت الدنيا .

قيل له : إنا ما قلنا في أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجلة والوجوه من
المهاجرين والانصار انهم قد اعتقدوا تبرئته وصدقته ، لجماعة من ادعيت من
الشيعة لنا ، وانما قلنا ذلك بالتأمل لأحوالهم وبلاستنباط الذي قد ذكرنا

(١) هذه الكلمة في الاصل تحتلظ مع زارين ، والزئير صوت الأسد من صدره ، والزائرام
الفاعل . يعني القاضي هنا بيان شدة موقف الصحابة بزعيم الباطنية من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لك ، فلن يقدر ذلك في علومنا ، ولن يوحشنا خلاف من خالفنا كأننا من كان من خلق الله ، وقد شرحنا كيف كانت دعوته وعلى أي شرط كان إجابة القوم له ؛ وقد علمنا قبل العلم بنبوته وصدقه أنه ﷺ قد كان يحب أبا بكر وعمر وعثمان ، وتلك الجماعة من المهاجرين والانصار يحبونه ، ويواليهم ويوالونه ، وأنهم كانوا ثقاته وبطانته وأمناءه على نفسه ودينه وأهله ، وأنه ﷺ كان أحب إليهم من أهلهم وآبائهم وأنفسهم ؛ كما قد علمنا أن أبا جهل وأبا لهب ، والوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث بن كلفة ، والعاص بن وائل ، وابن العيطلة ، وأمّية بن خلف ، وأبي بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأولئك الملأ من قريش ، كانوا أعداءه ، وكذلك الملأ من اليهود ، وكبني قريظة ، والنضير ، وكبني القمقاع ، وكخيبر ، وتلك القبائل من ثقيف ، وغيرها من العرب ، كانوا أعداءه وكان عدواً لهم يبغيضهم ويبغضونه ، ويعتقدون كذبه ، وأنه مبطل ، ولا فرق / بين من ادعى في أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والانصار أنهم ما اعتقدوا نبوته ، وبين من ادعى فيمن ذكرنا من قريش والعرب واليهود والنصارى أنهم ما اعتقدوا بغضائه ولا كذبه ؛ ومن انتهى إلى هذا فقد بلغ الغاية في الجهل ، ولا فرق بين ادعى هذا على هؤلاء من المهاجرين والانصار ، ومن ادعى أن الروم والفرس والهند الذين كانوا في زمانه وزمان نبوته ما اعتقدوا تكذيبه وإن كان قد ظهر منهم ما قد ظهر .

فإن قيل : فكيف صدت طوائف الشيع عن هذا ؟

قيل له : هذا إنما يعرف بالتأمل والتدبر وإن كان يسيراً ، فمن لم يتأمل ولم يتدبر ولم يستنبط يذهب ذلك عليه ؛ ومما يزيدك علماً بذلك ، وأن باطن هذه الجماعة من المهاجرين والانصار كظاهريهم ، وسريتهم كعلايتهم ،

وأن رسول الله ﷺ كان أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، أنهم قد بقوا بعده وملكوا الأمر واستولوا عليه ، وامتدت أيديهم إلى ملوك الدنيا وممالكها ، فجازوها وأنفقوها في إعزاز دينه وتأكيد شريعته ، وزهدوا في المباح المطلق ، وحسبوا نفوسهم وأبناءهم منه ، وأدخلوا الأمم من الفرس والروم والهند وغيرهم في دينه ، وفرضوا عليهم تصديقه وإجلاله ، ومن أبى القبول جعلوا دمه له ، وأوطئوا أعداءه وشأنه الذل والسيف في مشارق الأرض ومغاربها .

وقدم رحمك الله زهد رسول الله ﷺ ، فقد كان أزهد الناس فيما تناحر الناس عليه وقطاعوا فيه وتفاؤوا لأجله . فقد كان ﷺ ملكاً من أقصى اليمن إلى بحر عمان إلى أقصى / الحجاز إلى عرار العراق ، واستولى على جزيرة العرب وكانت مقسومة بين خمسة ملوك ، لكل واحد منهم شأن عظيم . هاداه غير واحد من الملوك ، وجبى ذلك كله فبذله ، وحسب نفسه منه وأهله ، وخير أزواجه على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة ، وعلى أن من أراد الحياة الدنيا وزينتها متمعه وسرحه سراحاً جيلاً (١) .

وكان ﷺ مع هذا الملك العظيم ألبس الناس عيشاً ، وأخشنهم لباساً . واعتبر من ذلك ببرده الذي يلبسه خلفاؤنا من بعده وقيمته مقدار دانتين ، وبقدسه وخاتمته ، وجميع ما صار عند خاصة أهله وعامة أنصاره . ثم توفي ولم يترك عيناً ولا ديناراً ولا شئد قصرأ ولا غرس شجرةأ ولا شقاً لنفسه نهراً ولا استنبط لنفسه عيناً ورغب لأهله وأصحابه في مثل ذلك .

(١) زلت آيات التخيير في سورة الأحزاب « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جيلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » الأحزاب ٢٨ و ٢٩ .

وملك بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه جميع ذلك ، ونفذ فيه أمره ، وامتدت يده الى بني حنيفة وقوم مسيلمة ، وغزا فارس ، وافتتح الحيرة والقادسية وعين التمر^(١) وصاروا ذمة له ، وجباها الأموال العظيمة . وافتتح الشام وأوائلها ونفذ أمره فيها ، فكان حاله في الزهد تلك الحال التي كانت عليها رسول الله ﷺ .

وقام بعده عمر رضي الله عنه فحوى ذلك كله ، وافتتح الى أقصى الشام وأخرج ملوك الروم منها واعتصموا منه بالحلجان والجبال ، وافتتح مصر والصعيد الأعلى ، وافتتح الجزيرة والعراق والسواد وفارس وكرمان وسجستان وكورة الاهواز ، وما سقته دجلة ، وما سقته الفرات / وما سقاه النيل ، وحملت اليه خزائن الملوك وذخائرهم ، ومكث على ذلك عشر سنين ثم قبض وحاله في الزهد تلك الحال .

ثم قام بعده عثمان رضي الله عنه ، فحوى تلك الممالك كلها ، وافتتح خراسان عن أقصاها ، وأخذ ملوكها وأصفهان من الجبال ، وفي زمانه قتل المسلمون يزدجرد بن شهریار ملك فارس ، وافتتح اذربيجان ، وافتتح ارمينية ، وجرجان وطبرستان وغير ذلك ، واستولى على ملوكها وممالكها ، وفتح المغرب وهي مسيرة سنين برأ وبحراً وطولاً وعرضاً ، وافتتح من جزائر البحر عدة جزائر عظيمة تكون مسيرة شهر طولاً وعرضاً ، وجبى ذلك كله ، ومكث على ذلك اثني عشر سنة ، وكانت مدته اطول ، وامتدت يده ،

(١) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة سميت كذلك لكثرة التمر فيها ، افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر علي يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة . معجم البلدان ٣: ٧٥٩ ، ارسل اليها معاوية النعمان بن بشير فأخذها من عامل علي سنة ٣٩ . الطبري ١: ٣٤٤٥

وملك وحوى اكثر مما ملكه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، ثم نفذ يده من جميع ذلك وزهد فيه مع قدرته عليه وتمكنه منه ونفذ أمره فيه ، وصار عند قوم عمر أزهد منه ، لأنه رحمة الله عليه برأ أقاربه من مال وولاهم ، ولم يفعل ذلك عمر ، فكان زهده يصغر في جنب زهد عمر .

ثم قام بعده علي رضي الله عنه ، فحوى جميع ما حواه الخلفاء قبله وجباها ونفذ أمره فيه ، إلا الشام ، ومكث على ذلك نحو ست سنين ، فنفض يده من جميعه وزهد فيه .

ثم اعتبر بزهد عمال أبي بكر وعمر والخاصة من أعوانها ، كعتبة بن غزوان^(١) وأبي عبيدة^(٢) ومعاذ بن جبل^(٣) وشرحبيل بن حسنة^(٤) وسعد بن أبي وقاص^(٥) وعمار بن ياسر^(٦) / وبلال^(٧) والنعمان بن

(١) هو عتبة بن غزوان بن جابر ، يكنى أبا عبدالله وأبا غزوان ، من حلفاء بني نوفل بن عبد مناف ، قديم الاسلام ، هاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ، وهو الذي مصر البصرة واختطها ، توفي في خلافة عمر وروى عن الرسول . الاصابة ٤ : ٢١٥ ، الطبري ٣ : ٢٣٧٦ .

(٢) ابو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح ، قديم الاسلام ، هاجر المجرئين وشهد بدرأ وبشر بالجنة ، مات في طاعون عمواس بالشام سنة ١٨ هـ . الاصابة ٤ : ١١ .

(٣) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عدي ، شهد المشاهد مع النبي وكان احد الذين أرسلهم رسول الله (ص) الى اليمن لدعوة اهلها الى الاسلام ، روى عن النبي (ص) ومات بطاعون الشام سنة تسع عشرة او بعدها . الاصابة ٦ : ١٠٧ .

(٤) هو شرحبيل بن حسنة نسبة الى أمه على الأغلب ، كان من سيره أبو بكر في فتوح الشام ، توفي بطاعون عمواس في الشام سنة ١٧ هـ . الاصابة ٣ : ١٩٩ .

(٥) هو سعد بن مالك بن أهيب ، احد العشرة وآخرهم موتاً ، كان اول من رمى بسهم في سبيل الله واحد الستة اهل الشورى وقائد فتوح العراق ، توفي بعد الحسين من هجرة الرسول . الاصابة ١ : ٣٠ .

(٦) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك حليف بني غزرم وأمه سمية مولاة لهم ، كان من السابقين الاولين ومن عذب في الله ، شهد المشاهد كلها مع النبي ، استعمله عمر على الكوفة ، قتل مع علي بصيفين سنة سبع وثلاثين . الاصابة ٤ : ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٧) هو بلال بن رباح مؤذن الرسول (ص) . الاصابة ١ : ١٨٩ .

مقرن^(١) واخوته ، وغيرهم ممن يطول الكتاب بذكرهم وشرح أحوالهم ، وهو المذكور في مواضعه ، ولا يشك في زهد هؤلاء إلا من شك في زهد رسول الله ﷺ ، ولا يبلغ ذلك إلا الجاهل القليل النظر البطيء التأمل .

فأما من نظر واعتبر وكان قصده التعرف والتبين ، فإن ذلك يفضي به الى العلم بأنه ما صحب نبياً قط قومٌ أزهد ولا أردع ولا أعلم من هؤلاء قبل ان يرجع الى قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »^(٢) . فلو كان غرض رسول الله ﷺ وأصحابه الدنيا والملك لكانوا وإن ابتدأوا بذكر الزهد في اول أمرهم إذا ملكوا وقدروا عليها قد ساروا فيها سيرة طلاب الدنيا وملوكها وخطاياها ، وما لبثوا ان تظهر سرائرهم وضمائرهم عند القدرة . بهذا جرت العادة ، وهكذا أخرجت العبرة ، فإن من تخلق للناس وتصبر خوفاً منهم واتقاء لهم ومداراة لهم ، اذا قدر وتمكن تغير وزال عما كان ، وظهر مكنونه ، فلما دام أمر رسول الله ﷺ وهؤلاء واتصل على طريقة واحدة ، علم العامل المتأمل ان سريرتهم كعلانيتهم ، وظاهرهم كباطنهم .

وقد رغب قوم منهم في المباح وفيما أحله الله لهم ، ولا لوم عليهم ولا تعنيف ، وإنما كان كلامنا فيمن زهد في المباح المطلق منهم ، وقد ملك هؤلاء ما لم يملك ابراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهرون وداود ومثى وعيسى ، وإن كان الأنبياء خيراً منهم .

(١) هو النعمان بن مقرن بن عائذ المزني ، أخو سويد واخوته ، له ذكر كثير في فتوح العراق وفارس . توفي سنة احدى وعشرين هجرية .

(٢) آل عمران : ١١٠

١٦ / ب وإنما ذكرنا هذا لأن اليهود والنصارى والمجوس وأعداء رسول الله ﷺ يقولون جهاراً ، بحضرة المسلمين وفي دواوين السلاطين ، وفي المحافل بحضرة الأمراء الأشراف : أما الاسلام فقد كفيناه ودفع بعضه بعضاً ، وقد كنا نقول سرّاً بيننا في أصحاب محمد ونفسه أشياء تقولها اليوم الشيعة جهاراً وتزيد علينا فيه ، من ان اصحاب هذا الرجل وأتباعه وأنصاره ما كانت لهم بصيرة في أمره ولا يقين مع الصحبة وطول المشاهدة ولا أقاموا له وزناً ، وإنما طلبوا الدنيا والنهب والفسادة ، وقد بينّا فساد ذلك ، وفيه من البيان اكثر من هذا ، وفيما ذكرناه كفاية .

فإن قيل : أفستدلون على صحة دينكم بأن هؤلاء قد اعتقدوا بنبوة صاحبكم وصدقه ، وان ظاهرهم فيه كباطنهم ، وهاهنا قوم من اليهود والنصارى والمجوس والمنانية^(١) والهند هذه سبيلهم في أديانهم .

قيل له : ما ندفع هذا ولا نمنع منه ، ولا نستدل على صحة الاسلام باعتقاد المهاجرين والأنصار بنبوة محمد ﷺ وصدقه ونبوته وزهده وزهدهم في الدنيا ، وإنما نعرف صحة الاسلام وانه دين الله بغير هذا . وإنما كان كلامنا على من ادعى ان هؤلاء ما اعتقدوا صدقه ولا نبوته ، فبينّا فساد قولهم وبطلان اعتقادهم وانه جهل ، ثم صرنا الى ذكر الدلائل والأعلام .

(١) المنانية والمنانية نسبة الى ماني بن بابك بن ابي رزام ، يقال انه كان اسقفاً ثم افاه الوحي بتغيير ديانته . ومن اهم مبادئه أن العالم كوني : احدهما نور والآخر ظلمة ، وكل واحد منهما منفصل عن الآخر . وقد فصل كتاب العقائد والفرق وأصحاب المقالات من الاسلاميين الحديث عن هذه النحلة . انظر الملل والنحل للشهرستاني ، والفهرست لابن النديم ، والآراء والديانات للتونجي ، والمغني للقاضي عبد الجبار الجزء الرابع ، وغيرهم . ويجمل مذهب المنانية مستخرج من المجوسية والنصرانية .

فمن ذلك أشياء نزل القرآن بها قبل كونها .
 فمن ذلك قصة إبي لهب ، وقد كان من المؤذنين لرسول الله ﷺ ،
 والمجردين / في مكروهه وطلب نفسه ، وفي الصدّة عن اتباعه ، فبشره الله
 بأن ذلك لا يضره ﷺ ، ولا يغني عن إبي لهب فيما قصد ما كسب
 من جاه ومال وأهل وولد وصداقة وإخوان ، وأنه يخسر ذلك كله ،
 وأنه وامراته يموتان على الكفر به ويصيران الى النار . نزل ذلك بمكة
 وهما حيّان سليان ، فكان ذلك كله على ما قال وعلى ما أخبر وكما فصل
 وفسر . وهذه غيوب كثيرة لا يكون مثلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا
 بالزرق (١) ، ولا يتفق لحدّاق المنجمين أقل القليل من هذا . ومن عجيب
 الأمور انها نزلت بمكة ، وتلاها رسول الله ﷺ ، وسمعا ابو لهب وجميع
 أعداء رسول الله ﷺ من قريش والعرب وغيرهم وهم أعوان إبي لهب ،
 فهاجهم هذا القول في عداوته ، وزاد في غيظهم وحنقهم ، وأذكرهم بنفسه
 وهو معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم ، فما ضره ، ولا تمّ لهم أمر في الظفر
 بقتله ، ولا على زلة يتبين فيها كذبه وسقوط قوله ، وهذا لا يقدم عليه
 العاقل إلا وهو على غاية الثقة بما يقول ، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع
 عدوّه عقله . ومنذ نزلت هذه السورة والى هذه الغاية يحرص أعداء
 رسول الله ﷺ ان يحدوا في ذلك مطعناً فما وجدوا . وقد رجع بعضهم
 الى بعض في ذلك وتشاوروا فيه ، وتعاضدوا وتعاونوا ، فكان عليه ما
 انتهى اليه كيدهم أن قالوا : لما رأى عمه وامراته قد صمما في تكذيبه
 وعداوته قال ذلك فيها .

(١) الزرق: الحداغ ، وفي اللسان : رجل ذراق اي خداع .

قيل لهم : قبل كل شيء قد تمّ ما قال على ما فسر وشرح ،
 وحصل ذلك على وجه انتقضت العادة به ، وظنونكم هذه لن تقدح في
 هذا العلم ، وهذا كاف في جوابكم .

ثم قيل لهم : قد صنع مثل صنيع إبي لهب خلق كثير فما قال هذا
 فيه ، ومنهم من أسلم . وايضاً فلو قال في إبي لهب انه يسلم قبل اسلامه
 وأسلم لأمكن الخصم ان يقول : ما في هذا دلالة ، لأن الرجل عمه ،
 وقد رأى اخوته حمزة والتعباس وقد أسلما ، وقد أسلم ولد أخيه إبي
 طالب جعفر وعلي ، فكيف لا يسلم هو ايضاً ؟ فهذا كان أقرب وأظهر
 في الرأي والتدبير ، فلم يقل ذلك وقال غيره وخلافه ، لتعلم ان هذا
 قول علام الغيوب وكلامه عز وجل .

وقالوا لو أسلم لكان له ان يقول : انما قلت انه سيصلى النار إن لم
 يسلم ، وإن أقام على الكفر ، كما قال : « إنه من يشرك بالله فقد حرمّ
 الله عليه الجنة » .

قيل له : قبل كل شيء قد تمّ ما قال وما وجد له خلف ، وحصل
 على وجه انتقضت العادة به كما بينا وقدّمنا ، وأخذت انت ايها الخصم
 تقول لو لم يكن هذا ويتم بأي (١) شيء كان يعتذر ، وحصلت على تدبير
 ما لم يكن ، وجهلت ايضاً اللغة وموضع العربية لأنّ قوله عز وجل :
 « انه من يشرك بالله فقد حرمّ الله عليه الجنة » انما هو جزاء ،
 وليس بخبر عن احد انه سيفعل ذلك ، وهذا كقول القائل : من سرق

(١) في الأصل : بأن ، والقراءة اجتهادية

مالي قطعته ، ليس بإخبار عن احد أنه سيسرق ما له ، ويجوز ان لا يسرق ماله أحد البتة مع هذا القول .

وقوله تبارك وتعالى في أبي لهب وامراته انه : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » من تلك / الأمور ، وانه سيصلى وامراته تاراً ذات لهب ، إخبار عن أمور ستكون فكانت كما قال ، كقوله عز وجل : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » (١) ، وكقوله : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٢) . وكقوله عز وجل « فينفضون اليك رؤسهم » (٣) . فهذا باب .

وَبَابُ آخِر

وهو أن قريشاً والعرب لما أعتبهم الحيل في أمر رسول الله ﷺ ، كانوا يستروحون الى أدنى غم يناله ﷺ ، فمات ابنه ابراهيم وهو أكبر ولده وبه كان يكنى ، ومات ابنه عبد الله ، فسرت قريش بذلك ، وقال بعضهم لبعض : ابشروا فقد انبتر محمد ، فأنزل الله عز وجل : « إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر » (٤) . فانبترت دبابات قريش والعرب كلها وبطلت عن آخرها ، ولم يبق على ذلك الدين عين تطرف ، وتم أمره ﷺ وسطع نوره وعلا وقهر .

(١) آل عمران ١٢

(٢) القمر ٤٥

(٣) الاسراء ٥١

(٤) الكوثر ١ و ٢ و ٣

وفي هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل ان تكون ؛ ثم وردت على وجه يغيظ ويغضب ويبعث على الوثوب به وعلى قتله وعلى إطفاء نوره ، وقد حرصوا على ذلك فما تم . وهذا قول لا يورده العاقل على الوجه الذي أورده رسول الله ﷺ إلا وهو على غاية الثقة بالله والسكون الى ما يوحى اليه عز وجل ، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوه عقله ، وكانت قريش تقول فيه لما مات بنوه : محمد 'صنبور' (١) ، أي منقطع الأصل منبتر الذكر .

وقيل لأعرابي : كيف نخلك ؟ / فقال : صبر أسفله وعشش أعلاه ، أي ضعف أصله وعشش أعلاه فبطل كله وزال الانتفاع به .

والكوثر هو على وزن فَوَعْل ، كدوفل وحوقل ، وهو الكثير من الجميز خاصة . فيريد عز وجل : إنا أعطيناك الكثير من التأييد والنصرة والحجة والعز والثواب والأجر ، وفيه دلالة على بطلان قول من قال : إن أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار كانوا أعداء رسول الله ﷺ وشائنيه ، وأنهم قصدوا تغيير القرآن ، وتبديل دين رسول الله ﷺ ، وإماتة نصوصه ، ودفع وصيته وخليفته ، ففعلوا ذلك وقهروا وغلبوا وكانت الغلبة لهم ، وخليفة رسول الله هو المغلوب المقهور ، وهم الغالبون القاهرون ، وان خليفة رسول الله ﷺ ووصيته ما تمكن الى ان خرج من الدنيا .

قلنا : فلو كان الأمر كما قلتم لكان هذا قد كذب وكان يكون : إن

(١) جاء في لسان العرب : الصنبور : النخلة المنفردة من جماعة النخل ، ورجل صنبور : فرد ضعيف ذليل لا اهل له ولا عقب ولا ناصر . لسان العرب مادة صنبور

شأنك هو الأقهر والأغلب والأظهر، وأنت الأبر، فلو أنصفوا وتدبروا القرآن لما قالوا في المهاجرين والأنصار هذا القول .

وَبَابُ آخِر

وهو ان قريشاً لما حرضوا على قتل رسول الله ﷺ وإبادته وإطفاء نوره ، وعلى التنفير منه والصد عنه والله تعالى يصرفهم بالطافه عنه مشوا اليه ، وهم : الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن ابى معيط ، والنضر بن الحارث بن كلفة ، وأميه بن خلف ، وعتبة بن خلف ، والجماعة من قريش ، قالوا : يا محمد ، انك قد سفهت أحلامنا ، وكفرت أسلافنا ، وعبت آلهتنا وأدياننا / ، وشتت كلمتنا ، وقطعت أرحامنا ، فهلم الى أمر يكون بيننا وبينك ، فتعبد أنت آلهتنا التي نعبدها ونعبد إلهك ، وتعبد آلهتنا التي كنا عبادها ونعبد إلهك ، ثم تعبد ما عبدنا ونعبد ما عبدت ؛ فإن كان معنا خير كنت قد أصبت منه ، وان كان معك خير كنا قد أصبنا منه ، وتكون كلمتنا سواء ، وتسلمنا ونسلمك ، وتكون لنا ونكون لك ؛ فأنزل الله تعالى : « قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » فأخبر انه لا يصير ولا يجب الى ما قالوا ، ولا يقبلهم بهذا الشرط ، ولا يكونون على هذا الوجه عابدين لله على الوجه الذي عبده ، فكان كما قال .

وفي هذا غيوب كثيرة مفصلة جاءت كما أخبر ، وهذا لا يكون إلا من علام الغيوب ، ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكفى وأغنى . فهذا

يدلّك على خضوع قريش واليهود والنصارى وجميع اعداء رسول الله ﷺ وانقطاعهم في يده ، وانه لا مطعن في آياته . ولهذا المعنى قال الله : « فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو 'تدهن' فيدهنون » (١) ، أي لو قاربتهم وأجبتهم الى ما دعوك لأجابوك ، ولو داهنتهم لداهنوك . فتأمل قوله : « قل يا أيها الكافرون » كيف يجبههم بالإكفار والتجهيل والتضليل ، وهم أشد عالم الله أنفة ونخوة وجبرية ، ودفاعاً عن انفسهم ، وموالية لعدوهم ، وهو بمكة معهم وفي ايديهم وفي قبضتهم ، والعزة والغلبة والكثرة لهم لا له ، فيجبههم على نفسه بهذا القول ، وبعثهم على مكروهه ، فنجاه الله منهم .

وهذا قول / لا يقوله عاقل وحاله ما وصفنا إلا وهو على غاية الثقة بالله ، يدفعه عنه ، ورسول الله ﷺ من لا يدفع عدوه عقله ، فمن أي شيء تعجب رحمك الله ؟ أم من إقدامه ، أم من مصير الأمر الى قوله وحكمه .

فاعرف هذه القصة واحفظها فانها عظيمة جليلة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة « قل يا أيها الكافرون » فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وكان يقال في صدر الاسلام لـ (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) المقشقتان (٢) ، اي هما براء من الشرك ، يقال للجرح اذا برأ واندمل : تشقشش الجرح .

(١) القلم ٩

(٢) قشقش : في اللسان يقال تشقشش الجرح : تعرض قرحه للبرء ، والقشقة : تهيؤ البرء ، والمقشقتان : قل هو الله أحد . وقل اعوذ برب الناس لأنها كأنها يبرأ بها من النفاق ، وقيل : هما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد . اللسان مادة قشش .

وقوم من الكتاب وعمال السلطان يعرفون ببني ابي البغل^(١)، يدعون
انهم من المسلمين ومن الشيعة وهم يميلون ميل القرامطة، ويلزمون صنعة
النجوم، وبقاياهم بالبصرة في سكة قريش، ومنهم ابو محمد بن ابي البغل،
وهذا خلقه وصنعه، وهو حي الى هذه الغاية وهي سنة خمس وثمانين
وثلاثمائة، يقولون في «قل يا ايها الكافرون»: هي من البوارد ومن الأشياء
التي لا معنى لها، ويتحدثون بذلك في دواوينهم ومحافلهم، ويضربون في
ذلك الأمثال؛ وهذا لجهلهم بالأسباب، ولو كان لهم تحصيل وتدبير
وقصدوا الانصاف وطلبوا العلم من موارد لعلوا ان هذا من معجزاته،
ولكن العجب قد شغلهم، وهم يعدون انفسهم من الخاصة وهم أسقط من
سقاط الغوغاء، ولولا ان هذا شيء قد شاع في الكتاب وأشباههم في
جميع البلاد لما ذكرته لك، ولكنه شيء قد دار وصار اهل الذمة مع
القرامطة يلقون به العامة والضعفاء من المسلمين، وليس للاسلام قيم
ولا ناصر بل كل السيوف عليه، فאלله المستعان.

وأخرى تبين لك جهل هؤلاء ونقضهم ونقض كل طاعن في القرآن،
ان الذي جاء بهذا القرآن ادعى انه كلام الله وقوله، وان الجن والإنس
لا يأتون بمثل ولا بمثل سورة منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وانه
حجة الله على خلقه الى يوم القيامة؛ وقد سمعه الناس كلهم منه، وقد

(١). ورد في الفهرست تحت عنوان ابن ابي البغل: اسمه محمد بن يحيى بن ابي البغل ويكنى
ابا الحسين، استدعى من اصفهان، وكان يلي الوزارة في أيام المقتدر، وكان بليغاً مقرباً فصيحاً من
اهل المروءات، وكان شاعراً ايضاً مجوداً مطبوعاً، فله ديوان رسائل كتاب رسائله في فتح البصرة.
الفهرست ١٩٧.

طالبهم ان يأتوا بمثل سورة منه فلم يأتوا مع شدة الحاجة الى ذلك،
وقد بذلوا ما هو أعز وأعظم في دفعه وإبطال أمره من الأموال
والأنفس والأولاد. واذا كان هذا شأنه من السخف والركاكة، وفيه
الكذب والتناقض على ما يدعي هؤلاء، أعداء الاسلام، فكيف يحتج
عاقل بما هذا سبيله؟ وكيف لم يقل أعداؤه له: تتحدثنا بشيء ركيك
بارد غث متناقض؟ وكيف لم يقل أعداؤه له ذلك؟ وكيف يُتبع
ويطاع من هذا سبيله؟ وكيف لم يقل أعداؤه لاتباعه: يا ويحكم فارقتم
دينكم، وأنفقتم أموالكم، وسفكتم دماءكم، وعاديتكم الأمم، واتبعتم رجلاً
حجته هذا القرآن وفيها الكذب والتناقض؟ ومثل هذا لا يُطاع ولا
يُتبع، بل يكون في سقوط المنزلة بمحل من يركب قصبة ويركض في
الاسواق ويقول: انا الملك، وانا الأمير، ويشتم الملوك والأمم والرؤساء،
ويتعادي خلفه الصبيان؛ ومثل هذا لا يعاديه أحد ولا يضربه ولا يسبه
فضلاً ان يقتله، لأنه لا يضر أحداً ولا يغضب عاقل من فعله وقوله
وإن شتمه وتواعده. فلم غضب أولئك العقلاء من قريش والعقلاء من
العرب والدهاة من اليهود والنصارى وطبقات الأمم والملوك منه ومن
أفعاله، وبذلوا أموالهم وأولادهم ودماءهم في عداوته وفي الصد عنه والمنع
من اتباعه، ورحلوا الى الملوك يشكونه ويضجون منه، ويبعثونهم على
قتله، ويخوفونهم سطواته وغلبته على ممالكهم؟ فقد رحلت قريش الى
النجاشي ملك الحبشة في هذا، ورحلت نصارى العرب الى قيصر ملك
الروم في هذا، وقد صار النضر بن الحارث بن كعدة الى الفرس في هذا،
وكان من كسرى أبرويز في هذا ما هو مذكور ولعله ان يرد عليك،
وهذا مع^(١) انه جواب لكل عدو لرسول الله ﷺ، فهو كاف.

(١) في الاصل: مع ما

وَبَاب آخِر

وهو ما وعد أصحابه من المهاجرين والأنصار والمكيين في حال ضعفهم ان الله سينصرهم ويمكنهم ويقوتهم ويظهرهم ، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وتكون العقبي لهم ؛ وتلا بذلك القرآن وخلّده وأسمعه عدوّه ووليّه ، فقال عز وجل : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس... »^(١) الى قوله : « والله عاقبة الامور » ؛ فتمكن أصحابه وخلفاؤه ، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وكانت العقبي لهم / .

وفي هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل ان تكون فكانت كما فصل وكما أخبر وفسر ، لتعلم ان هذا قول الله وكلامه ، وان محمداً رسوله . وهذا في سورة الحج وهي مكية ، ولو كانت مدنية لكان فيها من الدلائل مثل ذلك ، ولكنها اذا كانت مكية كانت آكد في الحجة لأن ضعفهم إذ ذاك أشد ، « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق »^(٢) ، ولقولهم : « ربنا الله » ، ولكفرهم بديانات قريش والعرب هم المهاجرون

(١) الحج ٣٩ وما بعدها

(٢) الحج ٤٠ ، والآيات هي : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين أن مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور » ٢٥

خاصة . وفي هذه الآية دلالة على صحة إمامة أبي بكر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وشهادة بأنهم أئمة هدى ، وأن طاعتهم طاعة الله ، لأنهم من المهاجرين والمكيين والتابعين ومن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق القولهم : « ربنا الله » ، وهم الذين تمكنوا وتولوا الأمر ودعوا الى الله وفعلوا ما قال الله ، كما هو مذكور في الآية .

ولو كانوا منافقين أو مشركين أو مرتدين كما تدعى ذلك عليهم طوائف الرافضة لكان هذا الخبر قد أخلف وكذب ، ولكان الذي أتى به وتلاه ليس بنبي بل كذاب ، لأن هؤلاء الذين تملكوا وتمكنوا وكان الأمر والسلطان والقهر والغلبة لهم ؛ فزعمت الرافضة انهم بدّلوا القرآن وأحرقوه ، وغيروا النصوص ، وعطّلوا الدين ، وغيروا الطهارة والأذان والمواقيت والصلاة والصيام والمناكح والطلاق ، وأماتوا السنن ، وأحيوا البدع ؛ وكان خليفة رسول الله ﷺ ووصيه^(١) مغلوباً مقهوراً يظهر ما يظهرون من الشرك ، ويجوز أحكامهم عليهم ، فأين صدق هذه الآيات . وقد كان ينبغي أن يكون / على ما يدعيه الرافضة أن تكون التلاوة : « والذين إن مكنهم في الأرض عطّلوا الصلاة والزكاة وأماتوا النصوص وقهروا الوصي المنصوص عليه ، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف » فتعلم أن هؤلاء قد ذهبوا عن القرآن وفارقوا الدين ، وتعلم أن هؤلاء السلف على الحق ، وان الله تولى نصرهم كما وعدهم ، والله لا ينصر إلا أوليائه وأحبيائه وأهل طاعته . وقد كان رحل الى عثمان في شأن قوم كانوا

(١) يقصدون علياً رضي الله عنه .

(٢) انظر الطبري حوادث سنة ٣٣ ، ففيه تفصيل حادثة النفر الذين اخرجهم سعيد بن العاص =

قد أساءوا فسيّرهم وحالهم معروفة - : ما رأيت أسرع جواباً من أمير المؤمنين عثمان ، قلنا له : أخرجنا من ديارنا أن قلنا ربنا الله ، فقال : كذبت ليست لك ولأصحابك ولكنها نزلت فينا معشر المهاجرين ، أخرجنا من ديارنا ان قلنا ربنا الله ، فمنا من مات بأرض الحبشة ، ومنا من مات بالمدينة ، فنصرنا الله ومكننا ، وأقمنا الصلاة وآتيننا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، وكانت العقبي لنا . وهذا لا يذهب على متأمل وإنما ذهب على اهل الغفلة .

باب آخر

وهو انه عليه السلام أسري به في ليلة واحدة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم عاد من ليلته الى مكة ، ومدة السفر في ذلك مقدار شهرين اي ذهاباً وإياباً ، وهذا لا يفعله الله إلا للأنبياء في زمن الأنبياء . ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث بذلك في أهله ، فقالت له ام هانئ بنت ابي طالب : لا تتحدث بهذا ، فوالله لا صدقك الناس ، وليكفرن بك من آمن بك ، وليكذبنك من صدقك . فقال صلى الله عليه وسلم : ان ربي أمرني ان أخبر الناس بذلك وان ابا بكر يصدقني ويشهد لي . فخرج وأخبر قريشاً بذلك فسرهم هذا ، وقالوا : الآن يظهر كذبه وينقطع الناس عنه ، قوموا بنا الى صاحبه ابن ابي قحافة لنخبره بما قال صاحبه . وكان ابو بكر

= من الكوفة بعد ان اتهموا بالشغب فيها ، وكان فيهم : مالك بن الاشتر ، وثابت بن قيس ، وكميل ابن زياد النخعي ، وضععة بن صوحان .

ثقل الوطأة على قريش وأعداء رسول الله ، فانه كان يدعو الى نبوته ، ويخطب بآياته ، وكان وجيهاً في الناس ، عالماً بقريش ، باين الفضل فيهم ، فكانوا يقصدونه بالمكاره لهذه الخصال التي كانت تضرهم . وقد استدعى خيارهم ووجوههم الى الاسلام ، وأنفق ماله في نواصب الاسلام ونصرته ، وكانوا يطلبون شيئاً يصدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمنع من اتباعه . فأتوه وقالوا له : يا ابا بكر ، ما زال صاحبك حتى أتى بكذبة خرج بها من أقطارها . قال ابو بكر : حاشاه ، وما هو ؟ قالوا : زعم انه أسري به في ليلة الى بيت المقدس . فقال ابو بكر : إن كان قال ذلك فقد صدق . قالوا : يا ابا بكر ، أتصدقه في هذا والعير تطرد في ذهابها شهراً وفي رجوعها شهراً ، أبلغه في ليلة واحدة ؟ قال ابو بكر : انه ليخبرني ان الخبر يأتيه من السماء الى الارض في ساعة واحدة فأصدقه ، وبعد السماء عن الارض اكثر من بعد بيت المقدس من مكة ؟ قوموا بنا اليه نسأله عن ذلك . فأتوه ، فقال له ابو بكر : ما شيء بلغني عنك يا رسول الله انك أتيت بيت المقدس في ليلتك ؟ فقال : نعم يا ابا بكر ، صليت بكم في هذا الوادي ، فأتاني آت ، فأيقظني وأخرجني وجاء بدابته فقال : اركب فأرقت^(١) ، فقال لها جبريل : اسكني ، فما حملت خيراً منه . فسارت بي ، واذا حوافرها تقع مدى / بصرها ، وكنت اذا أتيت صعوداً قصرت قوائها ، واذا أتيت حدوداً طالت قوائها ، فأتيت بيت المقدس ؛ وذكر صلاته ودخوله اليه ورجوعه . فقال له ابو بكر : يا رسول الله ، هل تستطيع ان تصف لنا بيت المقدس ؟ فقال : نعم . فوصف مدخله والمسجد

(١) ارفقت الناقة اذا رعت وحدها والراعي ينظر اليها ، وتعني هنا النفور والترك .
الظر القاموس . مادة : رفص .

وسقوفه وما فيه شيئاً شيئاً ، وكان إذ ذاك في أيدي الروم ، وكان ملك الشام لهم وبعضه في أيدي اليهود ، فقال ابو بكر : أسمعون ؟ وكان فعل ابو بكر ذلك ليعرف الناس صدق رسول الله ﷺ فيما ادعى . فقالت قريش : فان لنا غيراً بالشام عرفت خبرها ؟ فقال : نعم ، مرت بهم في ذهابي ، وهم في مضع كذا ، وقد ندّ لهم بغير من حسن دابتي فدللتهم عليه ، ورجعت عليهم وهم نيام وقدح فيه ماء وقد خمره ، فنزلت وكشفته وشربت وخمرته .

ثم قال : وآية اخرى أنهم يردون عليكم يوم كذا وقت طلوع الشمس ، وتقدم غيرهم من ثنية كذا ، يقدمها جبل أورق عليه غراران ، إحداها برقاء والأخرى سوداء . فأرصدت قريش لذلك اليوم ، فقال قائلهم : هذه الشمس قد طلعت ، وقال آخر : وهذه العير قد أقبلت وأمامها الجبل الأورق وعليه الغراران كما وصف . وسألوهم عن البعير الذي ندّ وعن القدح الذي كان فيه الماء فأخبروهم بذلك كما وصف ، وأنهم وجدوا القدح فارغاً بعد ان كان فيه ماء .

فتأمل ما في هذا من الآيات والمعجزات والعلامات الواضحات البينات التي لو لم تكن إلا هذه لكفت وأغنت في الدلالة على نبوته .

فنها مصيره ورجوعه في ليلة واحدة ، ومنها إخباره بالوقت التي ترد فيه عير قريش على أي سبيل ترد / ، فكم في هذا من الغيوب .

فإن قيل : ومن سلم لكم أن هذا قد كان على ما وصفتم لنا ، وكيف علمتم هذا ، وما طريق العلم به ؟

قيل له : قبل كل شيء قد علمنا انه ﷺ قد احتج بالإسراء وجعله قرآناً يتلى (١) ، وقد سمع هذا جميع اعدائه من قريش واليهود والنصارى وهم معه وجيرانه وأشد الناس عليه وأحرصهم على عثرة تكون له او عيب يكون فيه ، وهنالك اصحابه ومن قد اعتقد صدقه ونبوته ولم يتبعه إلا لأنه نبي صادق وعاقل لا يحتج على عدوه ووليه بما لا يقوم برهانه ، ثم لا يرضى أو يأتي في ذلك بقرآن يتلى ويضيفه الى ربه ويستطيل بذلك على عدوه ووليه ، وليس معه في ذلك إلا الدعوى الحالية من كل الحجج ؟ هذا لا يفعله عاقل ، وعقل رسول الله ﷺ عند عدوه فضلاً عن وليه فوق العقول .

وأخرى أن من فعل هذا على ما يدعيه الخصم لا يتبعه احد ولا يصدق احد بل يرجع عنه من قد اتبعه ، إذ ليس معه إلا الدعوى على ما يدعيه الخصم ، وكل احد يمكنه ان يدعي انه قد أسري به في ليلة واحدة من البصرة الى بيت المقدس او من العراق الى بلاد الهند وما تبينت بما هذه سبيله ، فتعلم ان الحجة بذلك قد قامت واتضحت .

وأخرى ما جرى بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، وبين قريش وأبي بكر الصديق ، وما كان في ذلك من طول المراجعة ، ومن عني بذلك يعلم ان الأمر كما حكينا ووصفنا علماً يقيناً لا يرتاب به ، كما يعلم فرار المهاجرين الى ارض الحبشة ، وإخراج قريش عمرو بن العاص وعمارة ابن الوليد بن المغيرة في طلبهم ، وما كان لهم معها مع النجاشي من

(١) تنازلت سورة الاسراء قصة الاسراء بقوله تعالى : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله للفرية من آياتنا انه هو السميع العليم » .

المخاطبات / والمراجعات ، الى ان صارت العقبي للسليين . وكما يعلم خروج رسول الله ﷺ الى المواسم وعرضه نفسه على القبائل ، وما كان له معهم من المحاورات والمراجعات والمخاطبات . وكما يعلم خروجه الى الطائف وعرضه نفسه ، وما كان له معهم من المراجعات والمخاطبات . وكما كان له مع قريش بمكة في حفل بعد حفل ومرة بعد مرة ، وفي مشيهم الى ابي طالب ليكفه عن مخالفتهم وتجهيلهم وذكر آلهتهم ، وما تعاهدوا عليه من عداوته وعداوات اصحابه ، ومن التجريد في قصدهم بالمكاره ، وما كتبوه في ذلك . وفي ترك مبايعتهم ومناكحتهم ومعاملتهم ، وما أشبه ذلك من الخطوب التي كانت منهم . فمن رسخ فيا هذا سبيله ، عرف قصة الاسراء وما كان لرسول الله ﷺ في ذلك مما تقدم ذكره ، ومن لم يكن هذه سبيله لم يعلم ، ولكل احد سبيل الى ان يعلم ذلك .

فتأمل رحمك الله ما في ذلك ، وقول أم هانئ ، واحتجاج قريش في ان المسير في ذلك يكون في شهرين فكيف تم في ليلة واحدة ، ومطالبتهم بالحجة في ذلك ، ثم مسألتهم عن غيرهم التي بالشام ، ثم مصيرهم الى المكان في الوقت الذي ذكر رسول الله ﷺ أن العير ترد فيه وتفقد صورتهما وما تقدمها ، ثم مسألتهم اهل العير عن القدح لتعرف عقول قريش وشدة فطنتها وعنايتها بأمر النبي والتفقد لأحواله . وانظر كيف قد سألوا عن ذلك مما يمكن العاقل ان يسأل عنه ويتكلم فيه .

وانظر الى فطنة أم هانئ بنت ابي طالب وخوفها مما يخاف مثله ، وأن هذا الأمر إن لم يقم على الدعوى به حجة لم يصدق احد ، بل

يكذبه / من صدق به ويكفره من آمن به ، لتعلم كذب الحداد ، وأبي عيسى الوراق (١) ، والحصري (٢) ، وابن الراوندي (٣) ، وهؤلاء علماء الإمامية ورؤساؤهم ، وعليهم يعولون ، والى كتبهم يرجعون . ولكل هؤلاء كتب يطعنون فيها على الانبياء ، ويدعون على قريش والعرب الجهل والبلادة والغباء وان رسول الله ﷺ خدعهم وسخر منهم .

وهذه الكتب منقوضة قد نقضها غير واحد من المعتزلة ، والمطاعن على الانبياء ، كلهم انما هي من جهة هؤلاء الشيع ، والإمامية تواليهم وترجع الى اقوالهم ، فاعرف هذا فإنه من العجائب وبك الى معرفته أشد الحاجة .

فمن كتب الحداد في هذا الشأن كتابه « الجاروف » وكتابه « الاركان » ، وكتاب الحصري « في تسوية اصحاب الكلام بالعوام » ، وكتاب « الزمردة » وكتاب « غريب المشرقي » وكتاب ابي عيسى الوراق ، وكتاب حنين « البهائم » ، وكتاب « التاج » في القدم لابن الراوندي ، و « الزمردة » و « الفريد » و « التصفح » وكتاب « نعت الحكمة » في الطعن في حكمة الله ، وكتاب « الدامغ » يطعن فيه في القرآن وغير ذلك من كتبهم .

(١) ابو عيسى محمد بن هارون الوراق المتوفي سنة ٢٤٧ هـ . منيع المقال ٣٢٨

(٢) هو احمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي ، ذكره القاضي في الطبعة الثامنة من رجال الاعتراف ، وذكر انه ألد وخروج عن الدين كما ذكر انه يقال بأنه تاب آخر عمره . من كتبه التاج في الرد على الموحدين ، والدافع في الرد على القرآن ، والفريد في الرد على الانبياء . المنية والأصل ٩٢ .

وفضيتهم في هذه الكتب واضحة ، وليس لرسول الله ﷺ اعداء مثلهم ، والشيعة تتوالاهم لأنهم عملوا كتباً لهم في الطعن في المهاجرين والأنصار .

فمن هذا العجب ، ان قوماً يدعون انهم من المسلمين يوالون هؤلاء ويرجعون الى كتبهم ، فتبين رحمة الله الحال في ذلك ، لتعلم انه لا يطعن على المهاجرين والأنصار إلا من يطعن على الأنبياء صلوات الله عليهم ، وإنما تستر هؤلاء الملحدة والزنادقة بالتحسين والإمامة ليستوي لهم الطعن على الانبياء وتشكيك المسلمين في الدين فاعلم ذلك / .

ب / ٢٤

وَبَابُ آخِر

وهو ما نزل بمكة في رجال بأعيانهم انهم يصرون على شركهم الى ان يموتوا ، وان الله سيذيقهم من عاجل الخزي في الدنيا ، وقد صنع مثل صنيعهم قوم علم الله انهم يدخلون في الاسلام فلم يأت من عند الله فيهم ما أتى في اولئك .

فمن ذلك ما نزل في أبي جهل : « فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله يتمطى . أولى لك فأولى » (١) . فقال أبو جهل : لم يهدني رب محمد وأنا أعز اهل البطحاء وأكرمهم ؟ فأُنزل الله في استهزائه بالزقوم وقوله : انه التمر بالزبد فقال : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كاللؤلؤ يغلي في البطون كغلي الحمى . خذوه فاعتلوه الى سواء

(١) القيامة ٣١ وما بعدها

الحمى ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحمى . ذق انك انت العزيز الكريم ، (١) أي بزعمك .

نزل هذا كله فيه وهو يومئذ حيّ سليم ، فأذاقه الله حرّ الحديد ببدر ، ومات على الكفر كما قال وكما أخبر .

ونزل في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة من قريش : « ويل لكل همزة لمزة » (٢) . الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخذه . كلا لينبذن في الحطمة » فمات على كفره .

ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار ، وكان شديد الرد على الله وعلى رسوله ، شديد العداوة والإرصاد . وقد كان رحل في عداوة رسول الله ﷺ الى فارس ، وطلب ما يكيد به الاسلام والمسلمين ، فوجد احاديث رستم وأسفنديار والفرس (٣) ، فاشتراها وقدم بها مكة فجعل يتحدث بها . وكان رسول الله ﷺ اذا قام من مقعده خلفه فيه النضر / وحدثهم بتلك الأحاديث وقال : حديث محمد عن عاد وثمود والأمم من هذا ، بل هذا احسن . فأُنزل الله فيه : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

(١) المدخان ٤٣ وما بعدها

(٢) ذكر الطبري في تفسير سورة « ويل لكل همزة » ان بعض المفسرين قالوا : عني بالآية رجلا من اهل الشرك بعينه ، فقال بعضهم هو جميل بن عامر الجمعي وقال آخرون هو الأخنس ابن شريق . الطبري ٣٠ : ١٦٢ .

(٣) ذكر ابن التميمي كتاب رستم واسفنديار بين اسماء الكتب التي ألفها الفرس . القهرست لابن التميمي ٤٢٤ .

هزواً وأولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً
 كأن لم يسمها كان في أذنيه وقرأ فبشره بعذاب أليم^(١) ، ونزل فيه
 غيرها أيضاً . وقيل : يوم بدر أصابته جراحة ذهب بقحف رأسه ،
 وحصل مع المسلمين في جملة المأسورين وقال : لا أذوق لهم طعاماً ولا
 شرباً ما دمت في أيديهم ، فمات من الضربة وصار إلى النار بعد أن
 أذاقه الله العذاب المهيّن في الدنيا كما قال وكما أخبر .

ومنها الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان من الأشداء على المسلمين ،
 فقال لقريش حين حضر الموسم : ان الناس قادمون عليكم وسائلوكم عن
 صاحبكم ، يعني رسول الله ﷺ ، فماذا تقولون ؟ قالوا : نقول مجنون ، قال :
 يكلمونه فلا يجيدونه مجنوناً ، قالوا : نقول شاعر ، قال : فهم اصحاب الشعر
 يقولونه ويروون بسيطه وهزجه فلا يجيدونه شاعراً . قالوا : فنقول كاهن ،
 قال : فقد رأوا الكهنة وتكلمهم وكنهم . قالوا : فما نقول يا ابا عبد
 شمس ؟ ففكر وقدّر ونظر وعبس وبسر^(٢) . كما وصفه الله تعالى في سورة
 المدثر ، ثم قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر » . وكان له عدة بنين ، وكان
 ذا مال واسع ، فكان بنوه يحضرون ويشهدون عقلاء ، فأنزل الله فيه :
 « ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهوداً .
 ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد » . كلا انه كان لآياتنا عنيداً .
 إلى قوله : « سأصليه سقر »^(٣) فلم يزد الله مالاً ولا ولداً بعد هذا كما
 أخبر ، ثم مات كافراً كما قال الله . وقد كان عند نزول ذلك حياً سليماً .

٢٥/ب

فانظر كم في ذلك من الآيات من الإخبار بالغيوب ، ومن عجزهم عن القرآن
 ان يأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة والجزالة ، فلم يتأت لهم ذلك مع
 حاجتهم اليه واجتهادهم فيه . وفصاحة القرآن وجزالته وبلاغته دلالة
 أخرى غير دلالة الإخبار بالغيوب .

بَاب آخِر

وهو ما كان بمكة من انشقاق القمر ؛ فان رسول الله ﷺ مر بمكة
 في ليلة قراء ومعه نفر من اصحابه ، فاجتاز بنفر من المشركين ، فقالوا
 له : يا محمد ، إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربك ان يشق القمر ،
 القمر ، فسأل الله ذلك فشقه ، فقال المشركون : ساحروا بصاحبكم من
 شتم فقد سرى سحره من الارض إلى السماء . فنزلت القصة في ذلك^(١) .
 وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدقه ونبوته ﷺ .

فإن قيل : ومن أين لكم ان القمر قد انشق له كما ادعيتم ؟ أتعلمون
 ذلك ضرورة ام بدلالة ؟ أوليس النظام^(٢) قد شك في هذا وقال : لو
 كان قد انشق لعلم بذلك اهل الغرب والشرق لمشاهدتهم له ؟ وهذا شيء
 سيكون عند قيام الساعة ومن أشراف القيامة ، فبأي شيء تردون

(١) أنزل الله في انشقاق القمر سورة القمر وأولها : اقتربت الساعة وانشق القمر . وانبروا
 آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر .
 (٢) هو ابراهيم بن سيار أبو اسحق النظام ، أحد أئمة المعتزلة المشهورين ، انفرد بأراء خاصة
 لا يبع فيها فرقة من المعتزلة سميت النظامية . توفي سنة ٢٣٢ هـ . الاعلام ١ : ٣٦ .

(١) لقمان ٦
 (٢) قد تشبه الكلمة في الاصل بـ : وبصر ، والصحيح ما اثبتناه
 (٣) الآيات من سورة المدثر ، وأكثرها حول الوليد بن المغيرة

قوله وتبينون غلطه إن كان قد غلط ؟ قيل له : ما نعلم ذلك ضرورة ولكن نعلمه بدلالة ، فمن استدلّ عرف ، ومن لم يستدلّ لم يعرف ، ومن قصر عن الاستدلال والنظر غلط كما غلط ابراهيم النظام .

فوجه الدلالة على ذلك أن رسول الله ﷺ قد احتج بذلك على المسلمين والمشركين وقتلا هذا القول عليهم من سورة القمر : « اقتربت الساعة » . ولم يكن ليقدّم ويحتج على العدو والوليّ بما لا حاجة فيه ، ويشير الى أمر ظاهر يُشار اليه ويشاهده الناس ، فلو أراد أن يكذب ويردّ قوله ما زاد على هذا ؛ هذا لا يقع من عاقل ولا يختاره محصل كائنات من كان ، فكيف يقع ممن يدّعي النبوة والصدق وهو أشدّ حرصاً بالناس كلهم على تصديقه واتباعه ؟ فلو أراد أن يكذّبه ويردوا قوله ما زاد على هذا ، وهذا لا يذهب على متأمل .

فإن قيل : فما تتكروّن على من قال انه صلى الله عليه وسلم ، ما احتج بهذا على نبوته ؟ قيل له : لا فرق [بين] ^(١) من ادّعى ذلك او ادّعى في جميع ما أتى به من القرآن وغيره انه ما احتج بشيء من ذلك على صدقه ونبوته .

ومما يزيدك علماً بذلك ويبين لك غلط النظام وجهل كل من ذبّ عن ذلك قوله تبارك وتعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فانظر كيف قال : اقتربت الساعة ، وأخبر عن امر قد كان ومضى ، ثم قال على نسق الكلام :

(١) ما بين القوسين اضافة من عندي ليتصل الكلام .

« وانشق القمر » ، فجاء بأمر قد كان وانقضى ومضى فنسق على الماضي بالماضي ، ولو كان على ما ظنّ النظام لقال : اقتربت الساعة وانشق القمر ، او كان / يقول وينشق القمر ، فلما لم يقل ذلك وقال : وانشق القمر ، علمت انه اخبر عن شيئين واقعين قد وقعا وكانا وحصلا . ثم قال على نسق الكلام : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فأخبر انها آية مرئية وحجة ثابتة . ثم قال على نسق الكلام : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذُر » ، وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن . فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم انه امر قد كان ، ولا يسوغ أن يقال في امر لم يكن ، ولم يقع هذا القول .

وأيضاً فإن ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجة على المكلفين ، ولا يعتقون في ترك النظر والتأمل له ، فإن التكليف حينئذ زائل مرتفع .

فأما قول النظام : فلم لا يشاهد هذه الآية كل الناس ، فليس هذا بلزماً ، لأن الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد وإنما هو شيء حدث ليلاً وما كان عندهم خبر بأنه سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه ، وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنه . يزيدك بياناً أن القمر قد ينكسف كله فلا يرى ذلك من الناس إلا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لنومهم ^(١) ، فكيف بانشقاق القمر الذي انشق ثم التأم من ساعته بعد أن رآه أولئك القوم الذين طلبوه .

(١) وقد تقرأ : لنوم .

وأيضاً فقد يجوز ان يحجبه الله عز وجل لمصالح العباد إلا عن أولئك القوم ، لأنه قد يجوز ان يكون في بعض البلاد من المكذبين والمحتالين في تلك الساعة من لو رأى ذلك لقال : انما انشق شهادة لي على صديقي ، ولا يكون ما ذكره النظام قد جاء في ذلك من هذا الوجه ايضاً ، وبطل ما توهمه .

ومدار / الأمر ان يكون هذا أمراً قد كان ، وقد ذكرنا الدلالة على كونه فلا عذر لمن شك فيه .

ومن الدلالة ايضاً ان ذلك قد كان ، ان الصحابة بعد رسول الله ﷺ قد تذكروه فما فيهم من شك ولا ارتاب ولا توقف ، بل وقع إجماع منهم على كونه ووقوعه ، فلا معتبر بمن جاء بعدهم ممن خالفهم .

وقد ذكر انشقاق القمر علي بن ابي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وجبير بن مطعم ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وخطب الناس 'مدينة بن مالك بالمداين وذكر فيه انشقاق القمر . وكانوا يقولون : خمس' قد مضين : الروم والقمر والدخان والبطشة والالزام (١) ، يتذكرون هذا بينهم رحمة الله عليهم . وقد ذكرنا ما في العقل من الحجة في ذلك ، وهي تلزم كل عاقل بلغته الدعوة ، سواء كان من المسلمين او من غيرهم ،

(١) يقصد بالروم غلبة الفرس على الروم وما تنبأ به القرآن من غلبة الروم بعد ذلك في سورة الروم ، والقمر حادثة انشقاق القمر الذي ورد في القرآن في سورة القمر ، اما الدخان فما ورد حوله في سورة الدخان ، وأما البطشة فيقصد بها وقعة بدر لقوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى » ، وأما الالزام فقد قيل ان المقصود بها بدر ايضاً ، وقد ذكر ذلك ابن الاثير في النهاية ٤ : ٥٦ .

وفي ذلك أتم كفاية . ثم ذكرنا تذاكر الصحابة بذلك وهي دلالة اخرى ، إذ لا يجوز ان يقول عاقل بحضرة جماعة ، وقد أقبل على من يحدثه : قد كنا في وقت كذا حتى حدث كذا وكذا - وهو يستشهد بالذي حدث بحضرتهم ويدعى عليهم وما عندهم علم - فيمسون عن تكذيبه والرد عليه . ثم ذكرنا الاجماع السابق من الصحابة ليتأكد ذلك على كل من كان من اهل الصلاة .

بَاب آخِر

بما كان بمكة . وهو ان الفرس غلبت الروم على أرض الجزيرة وهي أدنى ارض الروم وممالكها من سلطان فارس ، فسر ذلك مشركي قريش لشدة فارس على الاسلام والمسلمين ، وكانت الروم ألين كتفاً على المسلمين لأنهم اهل كتاب ، وكانوا يصغون / الى ما يرد عليهم من أخبار رسول الله ﷺ وما يدعو اليه وما يأمر به وما ينهى عنه وكيف سيرته ، ويتعجبون من ذلك ويستحسنونه ، ويكون من مملكتهم ما لعله يرد عليك . وساء المسلمين ظهور فارس عليهم ، فأخبر الله نبيه ﷺ ان الروم ستظهر على فارس بعد سبع سنين ، وان غم المسلمين سيعود فرحاً ، وأنزل بذلك قرآناً يتلى ، فقال عز وجل : « ألم . غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبتهم سيفليون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر (١) من يشاء وهو

(١) في الاصل : ينصر الله ، وهو خطأ

العزیز الرحیم . وعدَّ الله لا یُخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا یعلمون . یعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

فلما نزلت هذه الآية تلاها رسول الله ﷺ على أبي بكر الصديق ، وبشره وبشر المسلمين ؛ فأخرج أبو بكر إلى المشركين وأخبرهم بذلك وتوعدهم وجادلهم وأغضبهم وأغاظهم . فقال أُبَيّ بن خلف : والله لا تغلب الروم أهل فارس ولا تخرجنهم من أرضهم . فقال أبو بكر : بل تغلبهم وتخرجهم ، فإن شئت بإيعتك ، فبايعه على تسع من الإبل إلى ثلاث سنين . ثم دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ : إنها سبع سنين فزده في الخطر (١) ومدة في الأجل . فرجع أبو بكر إلى أُبَيّ بن خلف فاستقاله فأقاله ، وقال : ان الذي يحمي به صاحبك باطل . فعاوده أبو بكر المبايعه وزاد في الأجل أربع سنين ، وزاد في الخطر / ثلاثاً من الإبل ، وأخذ أُبَيّ أبا بكر بكفيل ، لأن أبا بكر على الهجرة مع رسول الله ﷺ ، وقد كان يذكر هذا وقد بدأ في فرار المسلمين بأديانهم ، فأقام له أبو بكر عبد الله ابنه كفيلاً ، وأخذ أبو بكر أُبَيّ بن خلف بذلك فأقام له ابناً كفيلاً ، فأخرجت الروم فارس من أرضها يوم الحديبية ، فأخذ عبد الله بن أبي بكر من أُبَيّ بن خلف وكان الخطر إذ ذاك مباحاً طلقاً .

فانظر كم في هذا من دلالة وآية بيّنة ، وأنه اخبر ان الروم ستغلب فارس ، وأن ذلك سيكون بعد سبع سنين ، فكان كما اخبر وعلى ما فصل

(١) تخاطر : تراهن ، والخطر : السبق يتراهن عليه .

وبيّن ، والبضع فوق الثلاث ودون العشر ، وانظر الى هذا الإقدام وهذه الثقة من رسول الله ، وانظر الى قوله : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » ، يريد بهذا النصر ظهور حجة رسول الله ﷺ وما أقدم عليه أبو بكر وجاهد المشركين وبايع ، فهذا المراد بالنصر لا بظهور الروم على فارس لأن ذلك معصية ، وفارس والروم كفار والله لا ينصر الكفار بعضهم على بعض . وانظر الى هذا التقرّيع والتوبيخ وتأكيده الوعد بقوله : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وانظر كيف يستخف بهم ويستجلبهم وهم يسمعون وهو معهم وفي قبضتهم وفي أيديهم والغلبة لهم ، وانظر كيف يقول له في آخر السورة : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » ، فتأمل هذا البيان / وهذا الإفصاح وهذه المكاشفة والاستظهار والعلو والاستطالة بالحجة والعلم بهذا ، وأنه قد كان على ما ذكرنا وبيّنا يجري مجرى العلم بقصة المهاجرين إلى أرض الحبشة ونظائرها مما قدمنا في قصة الأسراء وغيرها ، فاحفظه وارجع إليه .

وتأمل حال أبي بكر الصديق في الاسلام وإسلامه في اول الاسلام وفي حال ضعفه وقلة اهله وغلبة الشرك والمشركين عليهم ، وفي الحال التي قد كان المستبصر فيها لا يظهر دينه ويخفي ما في نفسه ، وانظر الى بصيرة هذا الرجل ومكاشفته واستبداله بالمسالمة عداوة وبالراحة شقوة وبالغنى فقراً وبالكرامة هواناً ، كل ذلك للإسلام . ثم كان لسان المسلمين وأكبر داعية للرسول وأجلّ أعضاده وأنبه أعوانه ، لم يقم مقامه احد من المسلمين ولا سدّ مسدّه ولا حلّ من رسول الله ﷺ محله . وانظر

الى مقامه في شأن الاسراء ، وفي شأن الروم ، وفي غير ذلك مما يطول شرحه . وانما احتجنا الى ذكر هذا والتنبيه عليه لأننا في زمان يقول الكثير من اهله انه ما أسلم قطّ وما زال عدواً لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، وأن عداوته كانت أشد وأضر من عداوة ابي جهل وعقبة ابن ابي معيط وأمثالهم ، وأن القرآن كان ينزل على رسول الله ﷺ بإكفار أبي بكر وعمر وعثمان وسعد وسعيد وأبي عبيدة وعبد الرحمن^(١) والجماعة من المهاجرين والأنصار ، وكان رسول الله ﷺ يتلوّه في المحاريب ويسمعه الناس / كلهم ويحفظهم إياه ، وأنه مكث نيافاً وعشرين سنة يفعل ذلك . وعند العلماء والفقهاء وأهل التحصيل والإنصاف ، انه كان يتقدم المسلمين في الاسلام ، وأنه كان أشدهم غنى ، وأن امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه كان يقدمه ويقدم عمر على نفسه ويفضلها على منابرهما من الأموات ، حتى يقول ابو القاسم البلخي^(٢) : ومن يفضل أمير المؤمنين لا يمكننا ان ندفع قوله ، ألا ان خير هذه الأمة بعد نبيها ابو بكر وعمر ، ولا يدفع هذا من له بالعلم بصيرة أوله فيه نصيب ولكنه عندنا ما أراد نفسه ، وقد كانت الشيعة الاولى تفضل

(١) سعد بن ابي وقاص الصحابي الجليل المتوفى سنة ٥٥ هـ . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، احد العشرة المبشرين بالجنة توفي بعد الحسين من الهجرة ، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح ، احد المبشرين بالجنة وفاتح الشام وامين توفي سنة ١٨ هـ . وعبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري احد العشرة المبشرين بالجنة ، لعب دوراً كبيراً مع رجال الشورى بعد وفاة عمر حتى بايع لعثمان رضي الله عنه بالخلافة توفي سنة ٣٢ هـ .
(٢) هو عبد الله بن احمد بن محمود ، ابو القاسم البلخي او الكمي ، احد أئمة المعتزلة ، له فرقة تنسب اليه ، وكان يفضل علياً رضي الله عنه . انظر تاريخ بغداد ٩ : ٣٨٤ ، ووفيات الاعيان ١ : ٢٥٢ ، والاعلام ٤ : ١٨٩ .

أبا بكر وعمر عليه . قال : وقال قائل لشريك بن عبد الله^(١) : أيها أفضل ؟ ابو بكر أم علي ؟ فقال : ابو بكر ، فقال له السائل : أقول هذا وانت من الشيعة ؟ فقال : نعم ، إنما الشاعي من قال مثل هذا ، والله لقد رقى امير المؤمنين هذه الأعواد فقال : ألا ان خير هذه الأمة بعد نبيها ابو بكر وعمر ، أفكنا نردّ قوله ؟ أفكنا نكذبه ؟ والله ما كان كذاباً .

ذكر هذا ابو القاسم البلخي في النقض على ابن الراوندي لإغراضه على ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، في كتابه « في نظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان » . وينبغي ان تعلم ان الذين وضعوا هذا انما قصدوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته لشدة عداوتهم له وتستروا بالتشيع ، وكان غيظهم على ابي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة لأنهم هم الذين اشتعلوا على رسول الله ﷺ في حياته ونصروه ، ثم كانوا بعد وفاته أشد نصرة في دينه منهم في حياته ، وأحدقوا بأبي بكر / فغزاهم ، وقتل مسيلة ، وأسر طليحة ، ورد الردة ، وغزا فارس والروم ، وأذل أعداء رسول الله ﷺ بكل مكان . واستخلف عمر ، فأزال ملك فارس وهو أشد الملوك وأدخل ملكه في الاسلام ، وألحق ملوك الروم بجبال الروم وخلصانها وأخرجهم من الشام ومصر ومن الجزيرة وأدخل هذه الممالك في الاسلام ، وقتل الشرك وأماته وأحيا الاسلام وبثته ونشره وبسطه وبناءه وشيده وجعله عالياً على الأديان كلها وظاهراً على أمم الشرك جميعها . ففاظطهم ذلك أشد الغيظ ، ولم يمكنهم المكاشفة بشتم رسول الله ﷺ ، فاشتفوا

(١) شريك بن عبد الله : هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي ، عالم بالحديث وفقية ولي القضاء للنصور العباسي في الكوفة سنة ١٥٣ توفي سنة ١٧٧ هـ . تذكرة الحفاظ ١ : ٢١٤ ، وفيات الاعيان ١ : ٢٢٥ .

منه بستم هؤلاء وغرّوا من لا يعرفهم وقالوا لهم : ما هذا القرآن بشيء ، وهو مغير لا تقوم به حجة ، والاسلام مبدل ، والفقهاء جهال كفار ، الى غير ذلك مما هذا سبيله وشرحه يطول ، فاغترّوا بهم وقبلوا منهم وصدّوهم عن الاسلام فأوردوهم ما أصدرّوهم . وانت تجد كثيراً من ذلك في التفسير لأبي علي^(١) ، وفي نقضه الإمامة على ابن الراوندي ، وفي غيرها من كتبه ، وفي كتب غيره من المعتزلة والله أعلم .

بَاب آخِر

فمن أعلامه التي حدثت وهو صلى الله عليه وسلم بمكة ، انقضاء الكواكب وامتلاء السماء بها من كل جانب على وجه انتقضت به العادة وخرج عن المعتاد . وهذه آية عظيمة ، وبيّنة جليّة ، وواضحة جسيمة . وقد نطق القرآن بها فقال حاكياً عن الجن : « وأنا لمسنا السماء / فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »^(٢) .

فان قيل ومن أين لكم هذا وقد سبقكم زمانه ونحن لا نؤمن بكتابكم ولا نقرّ بنبيكم ؟ وخبرونا عن طريق معرفتكم بذلك هل هو ضرورة

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ) شيخ المعتزلة في عصره وإليه تنسب الجبائية . نسبته الى جبي من قرى البصرة ، وتفسيره المذكور من أهم مؤلفاته ، استفاد منه من بعده القاضي عبد الجبار والحاكم ابوالسعد والزنجشري . وفيات الاعيان ١ : ٤٨٠ . دائرة المعارف الاسلامية ٦ : ٢٧٠ .

(٢) الجن ٨ وما بعدها .

أم اكتساب ؟ قيل له : العلم بذلك طريقه الاستدلال والاكتساب ، ويتمها لكل عاقل من كافر ومؤمن ان يعرف ذلك ويجب عليه ان يعرف ، وسبيله سهلة قريبة ، فمن نظر واستدل عرف ، ومن لم يستدل لم يعرف .

والدليل على ان ذلك قد كان ، ان رسول الله ﷺ قد تلا هذه السورة واحتج بذلك على العدو والولي ، فعلما انه أمر قد كان ووقع ، فإن الحجة به قد قامت وظهرت وقهرت ، لأنه لا يجوز ان يقصد عاقل الى قوم يدعونه الى صدقه ونبوته ويحرص في أجابته الى طاعته والانقياد له ويريد منهم ذلك ثم يقول : من علامة نبوتي ودلائل رسالتي ان النجوم لم تكن تنقض وانها الآن قد انتقضت ، وهو يعلم انهم يعلمون ان هذا امر لا اصل له وأنه قد كذب فيما ادعى . هذا لا يقع من عاقل كائن من كان ، فكيف بمن يدعي النبوة ، وعقله العقل المعروف الراجح الموصوف ، ثم يقصد الى امر ظاهر مكشوف في السماء البارزة للخلق أجمعين المشاهدة للأولين والآخرين ، سيما والعرب أعلم الناس بالكواكب والأنواء ومطالعها وسيرها ، والثابت الراسد الذي لا يغيب منها . وقد كتب الناس عنهم علمهم بذلك ، ودونوا منه شيئاً كثيراً ، وأكثرهم مأواه تحت السماء ، هي تسقفهم ، ورؤيتهم لها ولكواكبها امر دائم متصل لا يفتر ، وقد سبقوا رسول الله ﷺ في السن والزمان والعلم بالكواكب ، فكيف يقدم على قوم هذه سبيلهم فيدعي هذه الدعوى وهم من العداوة له والطلب لعثراته وزلاته ، ولأمر ينفرون به اصحابه عنه على حال لا مزيد عليها ؟ فأين كانوا عن هذا الكذب الظاهر الذي لا ينفع معه صدق يقدمه ولا صدق يكون بعده ؟ ومن هذه سبيله لا يكون لها رئاسة ، ولا يتبعه احد ، ولا يكون له قدر . وقد يتبعه قوم عقلاء ألباء^(١) فضلاء لأنه

(١) ألباء : جمع لبيب . انظر القاموس المحيط

نبي ولأنه صادق ، وطاعة لله وتقرباً الى الله ، واستبدلوا بإتباعه بالعز ذلاً وبالراحة كدأً ابتغاء مرضات الله ، وتكلفوا في اجابته بتلك الشدائد التي قد قدمنا شرحها ، فكيف اقاموا عليه وهو يكذب هذا الكذب الظاهر .

وهناك من اعدائه قريش والعرب واليهود والنصارى وكيدهم عظيم ، كيف لم يوافقوا على هذا ويجمعوا الناس عليه؟ وكيف لم يقولوا لأصحابه وهم إخوانهم واولادهم ومنهم : يا هؤلاء ، فارقتم أديانكم ، وجهلتم اسلافكم ، واكفرتم آباءكم وشهدتم عليهم بالفضيحة ، طاعة لرجل فرض عليكم مجاهدة الأمم ، وبذل دمائكم واموالكم في ذلك ، وألزمكم التكاليف الشديدة من شريعته ، وهو يكذب هذا الكذب الظاهر البارز للعقول / والأبصار؟ وفي تركهم لذلك دليل على صحة هذه المعجزة .

٣١ / أ

وأعجب الامور انه يتلو عليهم قول الله جل وعز : « فإني لا يكذبونك » ولكن الظالمين بآيات الله يحدون ^(١) اي لا يحدوا بك كذاباً ، ولا يحدون في قولك كذباً وإن حرصوا على ذلك واستفرغوا وسعهم ، ولو قدروا ان يحدوا له عثرة او ذلة او ادنى شبهة لما واثبه قبل الناس كلهم إلا اصحابه ، ولا قبله إلا خاصته وثقاته وبطانته .

فإن قيل : فلمعلم لم يفعلوا هذا به وإن وقفوا على كذبه لئلا يفضحوا أنفسهم ويشمتوا عدوهم ، ولئلا يقول الناس لهم 'خدعتم فامسكوا لهذا .

قيل له : هذا لا يسأل عنه ميمز ، لأنه إن كان قد كذب فأقاموا عليه . وقد عرفوا كذبه ، فقد تعجلوا الفضيحة بإقامتهم عليه وأشمتوا بنفوسهم .

(١) الانعام ٣٣

الاعداء ، [وخسروا الدنيا والآخرة ^(١)] .

وجواب آخر :

وهو ان هؤلاء الذين اتبعوا الاعلام التي كانت معه من القرآن وغيره وقد شهدوا على انفسهم وآبائهم بأنهم كانوا في ضلال وباطل وفضائح وما استنكفوا من الرجوع عن ذلك ، فلو حسوا ^(٢) بأدنى شبهة فضلاً عن كذب لبادروا ورجعوا وكان ذلك اروح لهم ، وأخف عليهم ، وأبين في عذرهم وقيام حاجتهم ، فان مراجعة الحق اولى من التماسي في الباطل .

وجواب آخر :

وهو انهم لو وقفوا على امر يرتاب به لسألوه عنه ، وعنف بعضهم بعضاً في الإقامة عليه وفي ترك قتله والبراءة منه ، / ولأذاعوه وأظهروه وإن ضرهم وغهم وساءمهم ، فان الجماعة الكبيرة لا يجوز ان تكتم ما قد عرفت وإن ساءمهم وإن ضرهم وإن ذهب برئاستهم وحط من اقدارهم . فأعرف هذا فانه اصل كبير . هذا فيما يقفون عليه خاصة ، فكيف بأمر الشبه وهو شيء يعرفه الناس عامة من ولي وعدو ، فتعلم انها آية عظيمة وحجة ظاهرة .

وانظر كيف اوردها وأدل على العدو والولي واستطال بها فقال : « قل أوحى اليّ انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً ، يهدي الى الرشد فأمنّا به ولن نشرك بربنا احداً . وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا ان لن

(١) ما بين القوسين كتب قريباً من حاشية الورقة ، فيحتمل ان تكون من الاصل او ان تكون من المعلق على الكتاب .

(٢) حسبت الشيء : احسسته ، وحسنت به ايقتت به . انظر القاموس المحيط .

تقول الانس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجالاً من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندري اشره اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشداً . فانظر كيف ذكر هولها وعظمتها وارتياع الجن والانس لحدوثها ، وانهم لا يدرون لأي شيء حدثت وهل حدوث ذلك لعذاب اهل الارض بذنوبهم ، ام لموعظتهم وإرشادهم .

وقد جاء مع هذا ايضاً ان ^(١) الكواكب لما انتقضت اخذ الناس في الخروج من / اموالهم ، وقالوا : ما حدث هذا إلا لفناء الدنيا وانقضاء مدتها ، فقال عبد نائلة بن عمر والثقيفي ^(٢) لأهل ثقيف : أمهلوا فإن افادة المال بعد اتلافه تشق وتصعب ، فانظروا الى الكوكب المنقضة ، فإن كانت من الكواكب المعروفة المتقدمة فهو لفناء الدنيا ، وإن كانت كواكب الآن حدثت والآن خلقت فهو لأمر . فحدثت إحدى الليالي ، فنظروا فإذا هي كواكب الآن حدثت ، فأمسكوا عن اموالهم وترقبوا ما يأتيهم من الاخبار ، فاذا قد اتاهم ان رجلاً من قريش بمكة قد زعم ان الله ارسله الى خلقه لينذرهم ، فقالوا : لعل هذا الانقضاء شاهد لهذا المنذر ، وقبركوا برأي هذا الرجل المشير وصار مفخراً له ولولده من بعده ، حتى يقولوا لثقيف ابونا الذي حبس عليكم اموالكم .

(١) في الاصل : من ، ولعل الصحيح ما ائتمناه .

(٢) انظر ما اورده ابن كثير في تفسير سورة الجن عن هذه الحادثة .

فإن قيل : اوليس قد ذكر ان في شعر الشعراء الأولين ذكراً لانقضاء الكواكب ، وفي كتب المعجم ذكر لذلك .

قيل له : إن ابا علي وابنه ابا هاشم ^(١) واصحابها قالوا : ما ننكر ان يكون قد كان قبل مبعث النبي شيء من انقضاء الكواكب ، ولكننا قد علمنا بالدليل الذي قدمنا انه قد حدث عند مبعث النبي شيء انتقضت به العادة ، وامتألت السماء به ، فتلك الزيادة على الامر المعتاد هي الحجة ؛ فصار ذلك بمنزلة الطوفان ، فإن الماء قد كان قبل نوح عليه السلام يزيد زيادات كثيرة معروفة معتادة ، فلما جاء نوح صلى الله عليه زاد / الماء زيادة انتقضت به العادة وخرج عن الامر المعتاد ، فكانت تلك الزيادة هي الآية وهي الحجة . فليس في شعر الشعراء ولا فيما وجد في كتب القدماء مطعن في هذه الدلالة ، ولا تكذيب لهذا الخبر ، وهذا جواب سديد شاف كاف ، لأن النبي ﷺ انما احتج بامتلاء السماء بالشهب لا بالامر المعتاد ، هذا لا يفعله عاقل ولا يقع منه كائناً من كان ، فكيف بمن يدعى الصدق والنبوة ويريد من الناس كلهم تصديقه واتباعه ، فلا يجوز ان يحتج عليهم بأمر قد عرفوه قبل ان يخلق ويخلق آباؤه فيقول : هذا من آياتي ومن اجلي حدث وبسبب تصديقي خلق ، فيكون بمنزلة من قال : من الدلالة على نبوتي ان الشمس ما كانت تطلع عليكم وانها الآن قد صارت تطلع .

فأما ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، فانه يذكر في كتاب « الحيوان » انقضاء الكواكب ، وذكر ما فيه من الآية والحجة في النبوة ،

(١) ابو هاشم الجبائي هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي « ٢٤٧ - ٢٨٣ » من كبار رجال المعتزلة له طائفة تنسب اليه تسمى بالهشمية ، ويعتبر القاضي عبد الجبار من تلاميذه ورجال مدرسته . وفيات الاعيان ١ : ٢٩٢ وتاريخ بغداد ١١ : ٥٥ .

وذكر الشعر الذي ذكر في هذا المعنى لهؤلاء الشعراء ، فقال هو و ابراهيم النظام وغيرهما : إنه ليس في هذا الشعر امر بيتن قد اراد به صاحبه انقضاء الكواكب ولكنه امر محتمل . وذكروا في بعض هذا الشعر أنه مولد وقد قيل في الاسلام ، قاله بعض الزنادقة ونسبه الى الأوائل ، وذكروا في بعضه ان قائله وأن كان كافراً جاهلياً فقد ادرك المبعث وأوائل المبعث ؛ فأبطلوا ان يكون في هذا متعلق / او يحتاج فيه الى جواب .

٣٣ / ١

واستبعد ابو عثمان ان يكون هذا امر قد كان ظاهراً قبل الاسلام . قال : وإلا فأين كان القدماء من الشعراء ، كأمريء القيس ومن تقدمه ، وكنانة وزهير^(١) وشعراء القبائل القديمة ، كيف لم يذكروا هذا في اشعارهم وهو أمر بارز لأبصارهم ؟ وهم قد شبهوا بالحيات والعقارب والجعلان والخنافس والبراغيث وبالقمل وبكل شخص وبكل ما دب ودرج ؟ وليس ببعيد ما قاله . فأما جواب أبي علي واصحابه : فما نبأني ولو كان الشعر ملء الدنيا للأوائل ، فما له في هذا تأثير .

قال ابو عثمان : وأما ما يُدعى من ذكر الشهب في كتب العجم الأوائل فهو امر لا سبيل الى العلم به لأنها منقولة في الاسلام ، وانما نقلها الواحد بعد الواحد من أعداء الاسلام ، ومن هو اشد الناس حرصاً على تكذيب النبي ﷺ وتشكيك المسلمين ، فهو لو كان عدلاً مسلماً ما علم ذلك بخبره ، فكيف وحاله ما وصفنا ؟ .

ويعد فمن ابن لنا انه علم باللغتين ويقصد واضعي الكتب حتى يوثق بنقله وبأخباره ؟ وهو كما قال ابو عثمان ، فإن هذه الكتب التي وضعت في الاسلام ،

(١) يقصد زهير بن ابي سلمى .

ونسب بعضها الى الهند ، وبعضها الى الروم ، وبعضها الى اليونانية ، وبعضها الى القبط ، وبعضها الى النبط ، وبعضها الى الفرس ، فانما وضعها الواحد بعد الواحد ، وزعم انه وجده لأهل تلك اللغة ، وزعم انه عالم بتلك اللغة فنقله ، فهو امر لا يقع به علم وليس معنا اكثر من دعوى هذا الواضع ، فبمقدار ما يكتبه ويترجمه ويلقيه الى الوراقين فيدور / في ايدي الناس فيقول من لا علم له ولا عادة له بمجالة المعتزلة ومن اخذ عنهم ومن لا سبيل له الى طرق اهل العلم : هذا من كتب الأوائل ؛ فاعرف هذا ، فانه باب كبير وكل احد أمس الحاجة اليه فان الجهل وترك التأمل غالب على الناس ، وأعداء الاسلام كثير ، وهم بينهم ، يكيّدونهم بأنواع الكيد من حيث لا يشعرون .

فمن ذلك خطب ورسائل ووصايا وحكم وضعت في أيام بني العباس ونسبت الى أمم العجم ، لا سبيل الى العلم بما ادعوا واضعوها من أنهم وجدوها للأوائل ، وانما كان غرضه شغل الناس عن القرآن وعن عهد رسول الله ﷺ ووصايا السلف بعده ، ولعله انما اخذ ذلك وحصل معانيه من القرآن ومن حديث رسول الله ﷺ ، وغيّر اللفظ ونسبه الى أمم العجم والعلماء . وأهل التحصيل يهتمون عبد الله بن المقفع فيما وضعه من « كلیلة ودمنة » وكتاب « اليتيمة » ، وما زعم انه وجده للفرس ، فقالوا : ما معنا في هذا اكثر من الدعوى ، وهو رجل بليغ اللسان بليغ العلم ، فارسي الأصل ، قد جرى من المجوسية على عرق ، فقد كان فيها طويلاً ، وهو كثير الرواية لآداب العرب وعلومها ، متعصب لقومه ، قد أسلم بعد الكبر ، وكان متهماً في دينه .

وهكذا قالوا في أبان بن عبد الحميد اللاهقي^(١) . وقد وضع سهل بن هارون بن رهبونة^(٢) الكاتب الفارسي صاحب المأمون، كتاب «ثغرة وثعلة»، يعارضه به كتاب «كلىة ودمنة» ، وجعله على ألسن الطير والبهائم، وذكر فيه حكم العرب كما صنع ابن المقفع^(٣) في كلىة ودمنة عن هذا / الذي سماه برزوي الطيب ، فقدمه في صدر الكتاب كأنه ما أراد إلا تشكيك أهل الديانات وأتباع الأنبياء صلى الله عليهم في أديانهم . وقد دار في أيدي قوم من المنجمين كتاب زعموا أنهم وجدوه لجابان منجم كسرى ملك فارس ، وقد أخبر فيه بزعمهم أن نبوة تحدث في العرب يكون مدة صاحبها كذا وكذا سنة . فذكر أيام رسول الله ﷺ ، ثم أيام أبي بكر الصديق ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم ، ولم يذكر اسماءهم ، وفصل من أحوالهم وسيرهم وأعمالهم شيئاً كثيراً . فافتتن به المنجمون حتى ظنوا ان^(٤) صنعتهم حق ، وأنها تؤدي الى علم ، وفتنوا بذلك خلقاً كثيراً مما لا يدري من الامراء والوزراء وطبقات الكتاب ، وجعلوا ذلك شاهداً لصناعة النجوم ونفقوها ، فجرى ذلك بحضرة رجل من علماء المعتزلة فقال للنجم الذي احتج بذلك في صحة صناعة النجوم وهو إسحق بن فليت اليهودي احد

(١) هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق ، شاعر مكة ، اتصل بالبرامكة ومدحهم ونظم لهم كلمة ودمنة شعراً وكتباً أخرى فارسية ، توفي سنة ٢٠٠ هـ . دائرة المعارف الاسلامية ١٦: ١ والاعلام ١ : ٢٠ .

(٢) كاتب بليغ فارسي الاصل ، ومن واضعي القصص ، ولاء المأمون رئاسة خزائن الحكمة ، وكان شعوبياً يتعصب للعرب على العجم . معجم الأدباء ٤ : ٢٥٨ ، فوات الوفيات ١ : ١٨١ .

(٣) كتب المعلق في حاشية الكتاب العبارة التالية : « في نسبة ذلك الى المفيد وقد قال الناس ان الذي حكاه عن هذا الرجل الذي سماه » .

(٤) في الاصل : انهم ، ولعل الصواب ما اثبتناه .

رؤساء المنجمين في زمانه ببغداد ، وكان يتقدم عند كثير منهم على رؤساء منجمي زمانه ومن كان في عصره كابن زكريا^(١) النوبختي ، وكابن فرخان شاه النصراني^(٢) وغلان زحل^(٣) : من اين لك يا أبا الطيب ان هذا الكتاب وضعه جابان لكسرى ؟ فقال هذا مشهور دائر بين المنجمين لا يشكون فيه ، فقال له : عن هذا وصحته سألتك ، هل هو اكثر من انك وجدت كتاباً مكتوباً منسوباً الى جابان منجم كسرى ؟ من اين ان هذا كما كتبه هذا الكاتب وأخبر به هذا الخبر وما معنا وما معكم اكثر من الدعوى ؟ وانما هذا رجل وجد كتابه في الاسلام / وفي أيام بني العباس وفي زمان الديلم منها ، وادعى فيه انه قديم وجده فارسياً فنقله ، وانما وضعه بعد ان مضت أيام رسول الله ﷺ وأيام خلفائه وأيام بني امية والصدر الكبير من بني العباس وعرف ذلك وتيقنته ، فوضع الكتاب بعد ذلك ، وحذف اسماء القوم ليظن انه قد وضعه قبل ان يخلقهم الله ، فيدعي من يقرأ كتابه من لا علم له له الصدق والصدق ، ولصناعة النجوم الصحة . وإلا فأرنا إن كان قد أخبر فيه عمن يأتي من الخلفاء او غيرهم ، او ذكر أيامهم واعمارهم على التحقيق كما ذكرها عن تقدم ، حتى يكون لك في ذلك شبهة ، فتنحير ابن فليت من هذا بعد الخطاب الطويل ، ولان بعد شدته ، وسكن بعد نزوته ، وقال : لعل الأمر ان يكون كما قلت ، فقال له المعتزلي : ما اسرع ما رجعت عن تلك الدعوى ، فقال : انا اخبرك ، قد قرأت اربع نسخ من

(١) في الاصل ابن كريا ، ولعله ابن زكريا النوبختي .

(٢) ابن فرخان شاه النصراني : هو ابن نصير بن فرخان شاه المنجم الاعجمي المتوفي سنة

٣٦٧ . الفقهني ٣٥٦ .

(٣) هو عبيد الله بن الحسين ابو القاسم المعروف بغلام زحل ، قال الفقهني من افاضل الحساب

والمنجمين ، توفي سنة ٣٧٦ . تاريخ الحكماء ٢٢٥ ، الفهرست ٣٩٥ .

هذا الكتاب المنسوب الى هذا الرجل ، وكلها مختلفة ، وقد ذكر فيها ان البيت يسقط حجة وتعظيمه ، وانما اتوقع كل سنة واسأل عن الحاج فاذا هو لا ينقطع حجة . ولم يكن بنا قول ابن فليت ولا استدلاله فانه ليس بشيء قوي ، ويمكن الخصم ان يدعي ان ذا سيكون ، او يشغب بغير هذا ، ولكن الذي ذكره واضع الكتاب ليس في صنعة النجوم شيء منه ومن الاصابة على طريق التفصيل ، وانما تتفق لهم الإصابات عن غير علم كما تتفق للعباب الخاتم والزوج والفرد ، وللفنائيلين / برؤية الثعلب ، وللمتطيرين بالفراب والبوم ، وما يتفق لهؤلاء من الاصابة اكثر واحسن واسرع لحذاق منجمي الملوك ، وهذا يكفيك في بطلان صنعة النجوم ، ولم تكن في الرد عليهم ، ولكن عرض هذا فذكرناه ، وستجد في الرد عليهم اكثر من هذا .

ولكن ذكر الكتاب المنسوب الى جانان وامثاله ، يضعه أعداء الأنبياء ليشكوا في اخبارهم ، وليجعلوا صوابهم جارياً مجرى إصابة المنجمين ، ولينفقوا صنعة النجوم ، وليرغبوا الناس في الغزع اليهم وفي التعويل عليهم ويستأكلوهم ، ولتم حيلتهم عليهم وهذا الجنس يسميه المنجمون الهاذور ، وانت تجد هذا كثيراً ، فيقولون : قال ما شاء الله ابن أبري اليهودي (١) في القرائات كذا وكذا وقد صح ، وقال الحسن بن سهل والفضل المأمون (٢) : كذا وكذا قبل

(١) واسمه ميشابن أبري المنجم اليهودي المشهور ، عاش زمن المتصور وبقي حتى أيام المأمون . قال الففطي : وكان فاضلاً اوحده زمانه في الاخبار بأمور الحدائق وكان له خطر قوي في سهم الغيب ومن مؤلفاته كتاب القرائات . تاريخ الحكماء للقفطي ٣٢٧

(٢) هما اخوان من اصل مجوسي ، اسما واشتهرا بالذكاء والادب والفصاحة ، ووزرا للخليفة المأمون العباسي ، وكان الفضل يلقب بذي الرياستين .

أن يكون فكان كذلك .

وربما وقع لبعض المؤرخين والاخباريين ممن لا علم له بصناعة الكلام مثل هذه الكتب والاخبار فيذكرها ويضمنها كتبهم ، فيقرؤها من لا علم له ولا سأل العلماء عنها فيتحير ويضل . وقد صنع الناس في الاسلام مثل هذا ، فقصدوا الى امور قد كانت ووقعت فعملوا فيها اشعاراً ونسبوا الى قوم قد تقدموا وادعوا انهم قد عرفوها قبل ان تكون ، كما صنعوا في قصيدة نسبوا الى رجل يقال له ابن ابي العقب ذكر فيها دولة بني العباس وكيف ابتدأوها ، وذكر جماعة من خلفائهم وابن ماثوا وابن قبورهم ، وادعوا انه اخذ هذا عن

الأئمة وعن الاوصياء ، وهو امر لا اصل له وكذب لا يشك / فيه ، وانما سبيله ما ذكرنا ، فاعرف ذلك فانه باب كبير ، والمخرق به والمشاكل به كثير ، وللجهل به ضلت طوائف من هذه الأمة ممن خالف المعتزلة من طوائف الشيع وغيرهم .

وهذه سبيل الكتب المنسوبة الى اليونانية كأفلاطون وأرسطاطالس وغيرهم ، فانها نقلت في الاسلام ، وناقلوها ومدرسوها انما هم الواحد بعد الواحد الذين لا يعلم بأخبار جماعتهم شيء ، وهم مع هذا أعداء رسول الله ﷺ وأشد الناس حرصاً على التشكيك في الاسلام وصداة اهلل عنه ، وهم يقتسرون بالنصرانية والنصارى لا يرضونهم ، ويشهدون عليهم بالاحاد وتعطيل الشرائع والطعن في الربوبية وفي جميع النبوات ، وقد حرموهم ونهوا عنهم ، كقسا

ابن لوقا^(١) ، وحنين بن اسحق وابنه اسحق^(٢) ، وقويري^(٣) ، ومقي بن يونس^(٤) ، ويحيى بن عدي^(٥) ، وهؤلاء مع قتلهم ما جمعهم زمان واحد . وكان يوحنا القس^(٦) مدرس أفليدس والمجسطي وغيره يقول : قد حذف الذين نقلوا كتب هؤلاء كثيراً من ضلالهم وفاحش غلطهم عصبية لهم وابقاء عليهم ، واعاروهم واعطوهم ما ليس لهم من معاني الاسلاميين وبيانهم ، والعدو اذا كان متديناً لم يؤمن حنقه ، فكيف بمن لا يعتقد مهاداً ، ولا يرجو حساباً ، ولا يخاف عقاباً .

ثم عدت الى ما كتب عليه من ذكر الشهب .

وقد تصفح العلماء الكتاب المعروف بالعلوي^(٧) المنسوب الى ارسطالس

(١) هو فيلسوف شامي نصراني ، اشتهر بالترجمة من اليونانية الى العربية ، وبرع في علوم كثيرة . عاصر يعقوب بن اسحق الكندي . انظر تفصيل كتبه في الفهرست ٤١١ ، والقفطي ٢٦٢ .

(٢) انظر ترجمة حنين بن اسحق وابن اسحق في هامش ص ٥٣ .

(٣) واسمه ابراهيم قويري ويكنى ابا اسحق ، من اخذ عنه علم المنطق ، وعليه قرأ ابو بشر مقي بن يونس . الفهرست ٣٦٧ ، وطبقات الأطباء ٧٧ .

(٤) ابو بشر مقي بن يونس النصراني المنطقي . قال القفطي : وكان ببغداد في خلافة الرازي بعد سنة عشرين وثلاثمائة وقبل سنة ثلاثين وله مناظرة جرت بينه وبين ابن سعيد السيرافي النحوي . القفطي ٣٢٣ .

(٥) هو ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي ، قال ابن النديم : واليه انتهت رئاسة اصحابه في زماننا . قرأ على ابي بشر مقي وعلى ابي نصر الفارابي وعلى جماعة مذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية . الفهرست ٣٦٩ .

(٦) يقصد يوحنا بن ماسويه ، كان نصرانياً شامياً مريانياً في أيام الخليفة هرون الرشيد ، وقد ولاء ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وله في تاريخ الحكماء للقفطي ترجمة طويلة . انظر القفطي ٣٨٠ .

(٧) يقصد كتاب الآثار العلوية لأرسطو ، نقله الى العربية ابو بشر مقي . الفهرست لابن النديم ٣٥١ .

فإنه نقله بعض هؤلاء لبعض الخلفاء من بني العباس ليتحفه به ، فما وجدوا فيه ذكراً مصرحاً لانقضاء الكواكب ، وإنما هو قول محتمل يتأوله بعضهم ويدعى انه أراد به ذلك ، وهو بأنه شيء ينشور من الارض ويرقى الى الجو / أشبه .

وقد كان هرون الرشيد ضغط الروم وحاصرهم في بلادهم واذلهم الى ان اجابوا الى اداء الجزية واتقوه بها فأخذها منهم ، وكتب اليهم كتاباً يبين لهم توحيد الله وانقراضه بالقدم وصدق نبيه ﷺ ، وذكر فيه قطعة كافية حسنة من اعلام النبوة وأنفذه الى ملك الروم مع رجل من المعتزلة إما معمر او غيره ، والكتاب إنشاء ابي الربيع محمد بن الليث الكاتب القرشي^(١) ، وهو موجود في رسائل تاج الاصفهاني^(٢) لا اشك ، وقد حدثني بعض اهل العلم انه مذكور في « المنثور والمنظوم » لابن ابي طاهر^(٣) . وقد ذكر في هذا الكتاب آية الشهب وانقضاء الكواكب واستوفى الحجة فيها ، ولم ينفذ هذا الكتاب الى ملك الروم إلا بعد تصفح كتب الاعاجم واستقصاء كل ما يمكن

(١) هذا ابو الربيع محمد بن الليث الخطيب ، كتب ليحيى بن خالد ، وله ولاء ببني امية ، وكان بليغاً مترسلاً كاتباً فقيهاً متكلماً ، ذكر له صاحب الفهرست كتاب « جواب قسطنطين عن الرشيد » ولعله هو المقصود هنا . إلا ان صاحب الفهرست يضيف رواية تشير الى ان نسبه يتصل بداراء احد ملوك الفرس ، بعد ان ذكر انه كان شديد الميل على العجم وأن البرامكة كانوا يكرهونه لذلك . ابن النديم ١٧٥ .

(٢) هو محمد بن بحر ابو مسلم الاصفهاني ، معتزلي ومن كتاب الكتاب . كان عالماً بالتفسير وغيره من صفوف العلم توفي سنة ٣٢٢ . ذكر له ياقوت في معجم الادباء كتاباً باسم « مجموعة الرسائل » لعله هو المقصود هنا . « ٢٨٠ هـ » معجم الادباء ٦ : ٤٢٠ .

(٣) هو احمد بن طيفور الخراساني مؤرخ وأديب ، له كتاب تاريخ بغداد ، وأما كتاب المنثور والمنظوم فيقع في اربعة عشر جزءاً . ياقوت ١ : ١٥٦ .

ان يقال ، لتعلم صحة هذه الآية وخوض العلماء فيها قديماً .

وقد قال ابو علي رحمه الله واصحابه كما قد ذكرنا عنهم ما لا يضرنا ولو ذكر الاوائل كلهم الحجة في الزيادة الناقضة للعادة وامثلاً السهام به عند مبعثه . وقد جاء في الاثر ان كوكباً انقض فقال النبي ﷺ : ما كنتم تقولون في هذا في الجاهلية ^(١) ؟ فقال اصحاب ابي علي لاصحاب ابي عثمان ^(٢) : هذا يدل على انه قد كان لانقضاء الكواكب اثر ثم زاد في المبعث زيادة انتقضت العادة به ، فقال اصحاب ابي عثمان : إنما اراد النبي ﷺ بقوله لهم : ما كنتم تقولون في ذلك في الجاهلية ، يريد قبل اسلامهم وقبل تصديقهم له . وعلى كلا القولين فالآية ثابتة والحجة قائمة ، وليس / في هذا خلاف في كونها ووقوعها .

وأما ارسطالس هذا فلا معول على ما يقوله ، وإن كان اصحابه قد صدقوا عليه فهو غير كامل العقل ، لأنهم حكوا عنه ان هذه الاجسام العلوية من الشمس والقمر والكواكب لا يجوز ان تنقسم ولا تتجزأ ولا تلتبعض ، وان الشمس ليست حارة ومحال ان تكون حارة ، وان هذه الاجسام محال ان تكون حارة او باردة ، او رطبة او يابسة ، او ثقيلة او خفيفة ، او ليننة او خشنة ، ومحال ان تكون هذه الكواكب اكثر مما هي بكوكب واحد ، او ينقص منها كوكب واحد ، ومحال ان تكون الشمس اكثر مما هي او اقل ، ومحال ان يكون لها لون او ريح او طعم .

(١) انظر لما ورد في انتقاض الكواكب من آثار تفسير ابن كثير ٤ : ١٩٢ و ٤٢٩ .

(٢) يقصد اصحاب ابي علي الجبائي وأبي عثمان الجاحظ .

وهذا الذي احاله هذا الرجل جوازه قائم في العقل ، يعلمه كل عاقل من عالم وجاهل ، ونظار وغير نظار ، فإن كان عاقلاً وبلغ به المحل واللجاج الى أن ركب هذه المجاهدة والمكابرة فيما هو في فطر العقول كلها وفي اوائلها ، فمن يعده او يعتد بقوله او يذكره فيمن يرد عليه ويتتبع عوراته وهو عورة كله من اوله الى آخره ؟ ولو لم يكن له من الجهل والخروج من العقل إلا هذا لكفاه وأغناه ، بل لو قسمت هذه الجهالة على جميع اهل الارض ، من اولهم الى آخرهم لحطت منازلهم ، واسقطت اقدارهم ، حتى لا يعدوا فيمن ينقض عليه ويرد قوله . كيف ، وله من الجهالات المستخفة المسقطة غير هذا بما إن طلبته وجدته ووقفت عليه .

ومن جهله انه اعتقد ان السماء والشمس والقمر والكواكب ، عاقله بميزة سمعية بصيرة ضارة نافعة تحيي وتميت / ، وان كل حادثة في هذا العالم من فعلها وتأثيرها . والعلم بأن السماء والشمس والقمر والنجوم جمادات وموات كالعلم بأن شعاع الشمس وشعاع القمر وضوء الكواكب والبرق والغيم والرياح والمطر والبحر والماء والهواء والارض والنار جماد موات ، ولا فرق بين من ادعى في الارض والنار والماء والهواء والنبات ذلك او ادعاه في الكواكب ، بل كانت دعواه في الطعام والشراب والهواء واشباه ذلك انها حية قادرة نافعة ضارة تحيي وتميت اجدر وأدخل في الشغب ممن ادعى ذلك في الشمس والقمر والسماء والكواكب ، فيقول : وجدت الهواء حيث كان جاز ان يكون معه الحيوان ، وحيث لا يكون لا يكاد يوجد حيوان ، وإذا ركد مرض الأصحاء ونهك المرضى وتعفن عنده الثمار والطعام والنبات ، فعلت انه حي مسميع بصير قادر يحيي ويميت .

ثم يصير الى الماء فيقول : عند وجوده يوجد الحيوان والنبات وعند عدمه

يتلف الحيوان والنبات ، فعلمت انه حي ناطق سميع بصير نافع حصار .

ثم يصير الى الارض ومرافقها فيذكر منها مثل ذلك ، لما فيها من النبات والمعادن .

وكذلك في النار قال : ألا ترى انها تعقد شيئاً كالبيض وما أشبهه ، وتحل شيئاً كالنحاس والرصاص والذهب والفضة وما أشبه ذلك ، وتبيض شيئاً وتسود شيئاً ، فعلمت ان هذه الأشياء كلها حية ناطقة سمعية بصيرة فعالة .

وهذا قول ماني ، حتى قال في اجسام العالم كلها وفي كل جزء منها ، حتى قال ذلك في الحديد والحجارة والخطب . والمنانية تقول في الاصوات التي تسمع عند قلي السمسم والبادنجان واصوات / غليان القدور واصوات الخطب عند التشقيق ، هذا كله صراخ وضجيج منها ، لما تجره من الآلام .

والمنانية تزعم ان الفلاسفة عنها اخذت هذه المذاهب ، وانما ذكرت لك بهذا المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة ، ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتّاب والوزراء بهم لما ذكرناهم ، ولكن هؤلاء لغفلتهم وسوء تمييزهم قد اغتروا بهم لما ذكرناهم . وصارت هذه الباطنية تدعو اليهم ، وتضع الروايات الكاذبة عن اهل البيت فهم ، فوجب ان نذكرهم بما فيهم ويصدق عليهم ، ليعرفهم الناس .

وَبَابُ آخَرٍ

ومن آياته ﷺ ، انهم لما كذبوه وآذوه في نفسه واصحابه دعا عليهم فقال : اللهم اشدّد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنيّ كسنيّ يوسف ﷺ ،

فأمسك عنهم القطر حتى جفّت النبات والشجر وماتت الماشية ، وحتى اشتوا القد (١) وأكلوا العنكب (٢) ، وتفرقوا في البلاد لشدة الحال . فوفد حاجب ابن زرارة الى كسرى فشكا اليه ما نالهم ، وسأله ان يأذن له في الرعي بالسواد ورهنه قوسه ، وهي قصة معروفة نزل بها القرآن وجرى فيها الخوض ، وهو قوله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم (٣) » . والدخان الجذب (٤) ، ثم سمي دخاناً لأن الغبار يرتفع في عام الجدي فيكون كأنه دخان ، ولذلك سميت سنة الجذب غبراء لارتفاع الغبار فيها ، وهذا شيء قد كان ومضى ، ولا يجوز ان يكون هذا بما لم يأت ، لأنه عز وجل يقول : « يغشى الناس هذا عذاب أليم (٥) » . ثم ورد على نسق / « إننا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إننا منتقمون » يعني يوم بدر ، وهذا كله يدل على ان الدخان قد انقضى ومضى ، وانه بدعائه ، لأن العذاب في الآخرة لا يجوز ان ينكشف ولا يخف . وقد قال في هذا : « إننا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » والعود الى المعاصي في الآخرة لا يقع ايضاً . وكان انكشاف العذاب عنهم بدعائه ايضاً ، فأناهم الغيث وكثر ، ثم عادوا الى طغيانهم .

(١) القد في الاصل هو القطع المستأصل او المستطيل او الشق طولاً ، ويطلق على جلد النحلة . انظر القاموس المحيط .

(٢) في حاشية الكتاب ان العنكب هو الدم يخلط بالوبر .

(٣) الدخان ١٥ وما بعدها

(٤) في الحاشية : الدخان ، الجذب

(٥) الدخان ١٥ وما بعدها

فقال اصحاب عبد الله بن مسعود (١) : كنا عند عبد الله جلوساً وهو مضطجع بيننا ، فأتى رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصداً عند ابواب كندة - يعني الكوفة - يقص ، يزعم ان آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهينة الزكام . فقال عبد الله : - وجلس وهو غضبان - ايها الناس اتقوا الله ، ومن علم شيئاً فليقل بما يعلم ، ومن لا يعلم فليقل الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه ﷺ : (قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين) (٢) . إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدماراً قال : اللهم سبعاً كسني يوسف صلى الله عليه ، فأخذتهم سنة حصدت كل شيء حتى اكلوا الجلود المنتنة والجيف ، وينظر احدهم الى السماء فيرى دخاناً من الجوع ؛ فأتاه ابو سفيان بن حرب ، فقال : يا محمد إنك حيث تأمر بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم . قال ابن مسعود : فكانت الدخان سنين كسني يوسف عليه السلام فكشف عنهم ، اما ترونه قال : (إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون) بعد ان قال له : فارتقب فارتقب ﷺ ووقع ، ثم دعا فكشف . والبطشة / الكبرى يوم بدر . وقد مضت آية الروم وآية الدخان والبطشة والزام .

ب / ٣٨

بَاب

ومن آياته بمكة ، أنه ﷺ لما جمعهم ووعظهم ودعاهم الى اتباعه ومفارقة ما هم عليه من ديانات آباؤهم ردوا قوله ، ومشى بعضهم الى بعض وقالوا :

(١) اسلم بن مسعود قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدرأ والمشاهد كلها ، ولازم النبي صلى الله عليه وسلم . وحدث عنه الكثير ، ثم شهد فتوح الشام ، عينه عثارت على الكوفة ثم عزله ، توفي سنة ٣٢ هـ . الاصابة ٢ : ٣٦٠

(٢) سورة ص ٨٦

(امشوا واصبروا على آلهتكم ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟) (١) وتوعده بكثرتهم وعزهم وأموالهم ، ووثقوا بذلك ، وغرهم ما رأوا من ضعف رسول الله ﷺ ووحدة وتوعدهم رسول الله وهو في تلك الحال ، فأنزل الله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) فكان كما أخبر وكانت العقبي له .

فتأمل الامر في ذلك تجده عظيماً لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب وقبل الجماعة وفي حال الضعف ، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم ، فبعثهم على قتله واستنصاه ، وهيجهم على بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه ، وهذا لا يقع من عاقل إلا ان يكون واثقاً بالله ، ساكناً الى تنزيله ووحيه . واذا وفيت النظر حقه لم تجد لرسول الله ﷺ في اخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين نظيراً في الضعف والوحدة ، ومن خالف قومه تلك المخالفة وهاجمهم وأسخطهم ذلك الاسخاط ، واخبرهم بما سيكون من قوته وغلبة الجبابة من الأمم قبل ان يكون ذلك او يكون له امارة تقتضى فصارت الامور في القوة والظهور الى ما قال ، فابتدأ ابتداء الشمس وامتد امتداد النهار .

بَاب

بما كان بمكة ، حين تلا عليهم سورة « افترت الساعة » وقص عليهم أمة من الأمم من الذين كذبوا الرسل ، وما نزل بهم من النكال والبيوار ، الى ان انتهى الى قوله : (أكتفركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن

(١) سورة ص ٦

جميع منتصر. سيُهزم الجمع ويولون الدُّبُر (١) فكان إدلالهم بكثرتهم وكثرة من يساعدهم على عداوته ومحاربتة ، وإنه ان صارت له جماعة فجموعهم أكثر ، والأموال والسلاح والكرام والعدة معهم لا معه ، فكان ظاهر الرأي ومقتضى الحزم ان يكون لهم لا له ، إلا ان يكون من الله عز وجل مالك القلوب وناقض العادات لأنبيائه ، فكان كما قال ، وكانت العقبي له .

بَاب آخِر

مما نزل بمكة قوله : « فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » ، وإنه لذكر لك ولقومك (٢) أي شرف ونبل وجلالة ، فهو عز ومعجز . ثم قال : « وسوف تسألون » أي عن شكر هذه النعمة ، فكان كما أخبر وكما فسر فان القرآن بآياته ، وظهرت بيناته ، وقامت حجته ، وكملت النعمة على رسول الله ﷺ وعلى صحابته به ، فشرفوا وعزوا بمكانه ، وذلك من الأمور البينة الواضحة ؛ فانك تجد الفقهاء والعلماء قد أجلتوا القرآن ومن قرأ القرآن ومن عرف علوم القرآن ، ولهذا قال عز وجل لقريش في ابتداء المبعث : « قل هو نبي عظيم أنتم عنه معرضون » (٣) يريد القرآن ، وإنه عز ونبل وشرف ، وستشرف به امم من / تمسك به ودعا اليه ، وقد فاتكم ذلك لإعراضكم ، فكان ذلك كما أخبر .

٣٩ / ب

(١) سورة ص ١١

(٢) الزخرف ٤٣

(٣) القمر ٤٣

وفي هذا المعنى قوله عز وجل : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » (١) فتأمل ما في هذا ، فإنه ﷺ ما عرّف العز بالأبوين كما يعرف من ربه أبواه ؛ فان أباه مات وهو حنل ، وماتت أمه وهو رضيع ، فآواه الله اكرم أبواه ، فلما كمل ، آتاه النبوة وعصمه وصانه ، وأخبره ان الآخرة خير له من الأولى ، فإن آخر أمره في عاجل الدنيا في النصرة والعز ، وثواب الآخرة خير من الأولى ؛ « ووجدك ضالًّا فهدى » ، أي ذاهبًا عن النبوة لا تدري ما هي ولا تعرف القرآن .

وفي مثل هذا المعنى قوله عز وجل : (أَلَمْ تُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) فإن ذكره ارتفع بالصدق والوفاء وقيام الحجة ، فما وجد له اعداؤه كذبة ولا ذلة ولا هفوة مع حرصهم على ذلك ، وما بارت له حجة ، ولا زلت له قدم ، ولا أسكنه خصم ، مع كثرة الخصوم له ، وطلب العلل وطول المجادلة .

بَاب آخِر

من أعلامه ، وهو قوله عز وجل : « قل : كَلِّينِ اجتمعن الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢) وفي هذا إخبار عن غيوب كثيرة ، لأنه قال لكل واحد من الإنس والجن : إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن ولا أحد يأتي بمثله في كل حال منفردين ولا مجتمعين ، فما أتوا به مع حاجتهم الى ذلك وشدة حرصهم عليه ، أفمن هذا تعجب ؟ أم من إقدامه على الإخبار بذلك وهو لا يعرف العرب كلها ولا

(١) الضحى ٦

(٢) الاسراء ٨٨

يحصى قبائلها / ورجالها ونساءها ، والفصاحة والبلاغة مثبتة في رجالها ونسائها وعبيدها وإمائها وعقلائها ومجانينها ، وقد علم ﷺ أنهم في اللغة والبلاغة قبله ، وهو منهم تعلم ، وهو عاقل ، فلو لا أنه قد تيقن أنهم لا يأتون بذلك لما أقدم على الإخبار بذلك ، سيما والذي ادّعاه امر عظيم وخطب جسيم ، وهو النبوة والصدق والعصمة ونفاذ امره في النفوس والأموال ووجوب طاعته على كل أحد إلى ان تقوم الساعة ، وحجته في ذلك كله هذا القرآن ؛ وهذه من الآيات التي نزلت بمكة ، ولو نزلت بالمدينة أو أين نزلت لكانت الحجة بذلك قائمة لا تأثير للأماكن في ذلك ولا للأزمنة ، وإنما نذكر الأماكن لأن الأعداء لما أفلسوا واقتضحوا ، أخذوا في تشكيك الملوك والمترفين ومن يحب الرخص ومن لم ينظر ويتأمل ويسمع من العلماء ، أن هذا القول إنما قاله في آخر امره وفي آخر عمره .

واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه : فكل سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة ، وهو حجة لما فيه من الاخبار بالغيوب ، وهو حجة لما فيه من التفتية على دلائل العقول ، فإن ذلك جاء على طريقة انتقضت به العادة ، وقد مرّ بك طرف منه في المصباح (١) ، ولعل أكثر منه ان يرد عليك ، فانما انت في ذكر الاخبار بالغيوب وما يجري مجراها ، ثم نصير الى البابين الآخرين وإلى مسائل الخصوم في ذلك والأجوبة عنه إن شاء الله .

من دلائله وإعلامه ﷺ ، وهو إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من / خلق آدم صلى الله عليه ، وما كان له مع الملائكة صلوات الله عليهم ،

(١) لعل القاضي يقصد بالمصباح اسم كتاب له ، الا اننا لم نعر لهذا الكتاب على اثر في كتب القاضي التي اطلعنا عليها ولا في الكتب التي نقلت عن القاضي او ذكرته .

ومع ولده ، ومع ابليس ، وما كان لنوح مع قومه ، ثم ابراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وأيوب ، وموسى ، وهرون ، وغيرهم من النبيين صلوات الله عليهم اجمعين ، وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف الى اهلها ولا اختلفوا اليه ، فتعلم انه ما علم ذلك إلا بوحي الله اليه واطلاعه عليه ، وهي اخبار كثيرة لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله عز وجل .

فإن قيل : أين لكم انه ما قرأ الكتب ، ولا كان يختلف الى اهلها ولا اختلفوا اليه وأنتم ما أدركتم زمانه ، وقد قال له عدوه : « انها اساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (١) » وقالوا : « ان هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون (٢) » ؟

قلنا : ما ادّعينا ان خصومه ما ادّعوا ذلك عليه ، وليس دعواهم حجة عليه ، بل لما انقطعوا وقامت حجته ادّعوا هذا عليه ، ونحن وإن لم نكن في زمانه ﷺ ، فقد علمنا انه ما قرأ هذه الكتب ولا اكتبها ولا اختلف الى اهلها ، ولا اختلفوا اليه ، ولا تلقى ذلك عن أحد من الناس ، لأنه ما من أحد يطلب فناً من الفنون إلا وله في ذلك ثارات وطبقات ؛ فأول ذلك ان يكون طالباً وسائلاً عن عنده هذا الادب وهذا الفن من العلم والادب ، ثم يختلف الى اهله ويصحبهم ، فيكون ثارة مبتدئاً ، ثم متوسطاً ثم ماهراً متقدماً . وكل هذه الاحوال معروفة معلومة لأهل زمانه ، لا يجوز ان يذهب عليهم ، ولا يجوز ان يخفى ولا يكتم عن أحد كائناً من كان . فلو كان قد

(١) الفرقان ٥

(٢) الفرقان ٤

تعاطاه ﷺ / ثم اكنتم عليه ، لكان ذلك من اكبر آياته وأعظم معجزاته ،
 فاذا العادة قد انتقضت به ، فقد اعطاه الخصم اكثر مما ادعى ، ولو جاز ان
 يخفى ذلك ويستر على احد من الناس ، لما استتر ذلك على محمد ﷺ لأن
 عدوه وطالبه والمتبصير لأمره والمفتش عن احواله من قريش والأقربين من أهله
 ومن دهاء اليهود والنصارى وغيرهم كثير ، والطلب منهم شديد ودعواه
 النفسية عظيمة ، وقد ادعى عليهم الفرية والكذب ولنفسه الصدق ، وحجته
 عليهم ألا يكذب في شيء ولا يناقض ، ثم إن الذين اتبعوه لأنه نبي وصادق .
 وقد عرف عدوه ووليّه منشاؤه ومتقلبه ومثواه ، ومعهم سافر ، وبينهم تربي
 ونشأ ، وأزواجه إنما بنات اعدائه وأوليائه الذين اعتقدوا صدق نبوته ،
 وهن ممن يعتقد صدقه ونبوته ، فمن هذه سبيله ، يتعلم الكتابة بالقلم الواحد
 او بالأقلام المختلفة ، ويكتب ويقرأ ، ويختلف الى اهل هذه اللغات ويصحبهم
 ويأخذ عنهم ، ويستر ذلك على اهل ونسائه وعدوه ووليّه ؟ هذا لا يعتقده
 من تأمل الامور وتديرها . بل لو كان ذلك له ﷺ يوماً واحداً او ساعة
 واحدة ، لعلم به الأولون والآخرون للاحوال التي اختص بها مما قدمنا
 ذكره . ولا فرق بين من ادعى هذا عليه ، او ادعى انه قد كان مرة تهود
 وأظهر اليهودية ، وخرج فأقام مرة ببابل ، ومرة بببيت المقدس ، وأنه
 كان مرة تنصر ولبس المسوح وأقام في البيع ، وخرج مرة وأقام ببلاد
 الروم وصام صوم النصارى وأقام أعيادهم وكان يخلق وسط رأسه كصنع
 الرهبان ، وأن ذلك / كله تم له وخفي على اهل ونسائه وعدوه ووليّه .
 فتأمل رحمك الله هذه الآية فإنها عظيمة جليلة ، ولو لم يكن له الا هي لكفت
 وأغنت . وانظر كيف يقول ، قد اقتص قصة نوح عليه السلام ثم قال في
 آخرها : (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك . ما كنت تعلمها انت ولا

قومك من قبل هذا . فاصبر إن العاقبة للمتقين^(١)) وانظر كيف يقول له :
 إن هذا ليس من علمك ولا من علم قومك ، والعدو والولي يسمع ذلك .

وتأمل قوله عز وجل في قصة يوسف عليه السلام (ذلك من انباء الغيب
 نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا امرهم وهم يكبرون)^(٢) ثم عزاه
 وقال له : آيتك بيّنة وحجتك قانئة وإن عصوك ، فما هنا شبهة في
 مخالفتك ، ولا أمر يصدّ عن اقباعك ، ولست اول من قامت حجته فلم
 يتبع ، فقال له : وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه
 من اجر إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأين من آية في السماوات والأرض يبرون
 عليها وهم عنها معرضون »^(٣) .

وانظر كيف يدل ويستطيل ويصول على العدو والولي بأن هذا إنما ناله
 بالوحي ، وأنه ما قرأ كتاباً ولا خط ، وأنه قد كان في غفلة من هذا فقال :
 « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك . وما كنت
 تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون »^(٤) .

وقال له في أول سورة يوسف : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما
 اوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »^(٥) . ثم يقول في
 آخر السورة : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى
 ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء / وهدى ورحمة لقوم

(١) هود ٤٩ وما بعدها

(٢) يوسف ١٠٢

(٣) يوسف ١٠٤ وما بعدها

(٤) العنكبوت ٤٨

(٥) يوسف ٣

يؤمنون (١) .

وتأمل قوله عز وجل في سورة القصص : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين (٢) » إلى قوله : « وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك » وانظر إلى هذا الاحتجاج بأنه ما نال هذا ولا عرفه إلا بوحي من الله .

وانظر إلى قوله في سورة طه : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربك » ولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (٣) . فتأمل هذا الاستعلاء على العدو والولي بأن من آياته وعلاماته ما في الصحف الأولى .

وكان مما طعن به ابن الراوندي في هذه الآية أن قال : إن كان معرفته بهذا دلالة على نبوته فمعرفة اليهود بذلك دلالة على نبوتهم ، وهذا جهل من هذا الأحق ، لأن اليهود قد قرؤوا ذلك وكتبوه واخذوه عن آبائهم وشاهدوه فلا يكون حجة لهم ، وهذا ما قرأه ولا كتبه ولا اخذه عنهم ولا عن أحد من الناس كما دلت عليه العقول ، فهو حجة عليهم وعلى غيرهم ، ولو أن إنساناً ادعى النبوة ، وجعل دلالته بأن اخبرك عن كتاب معك ما قرأه ولا وقف عليه وإنما وقفت أنت عليه فيما لا يقع بالاتفاق ولا بالحدس ، لكان ذلك دلالة في نبوته ولم يكن دلالة لك ، وكذلك إذا اخبرك عما اكلت وشربت وادخرت ، ولكن اشبه على هذا الملحد لفرط جهله وبعده من التحصيل ، ولولا أن الاشعرية والرافضة والنصارى والزنادقة يرون هذا الرجل بعين المحصلين لما ذكرنا اسئلته لراكبتها ، ولكنه صنف شيئاً للمشبهة ،

(١) يوسف ١١١

(٢) القصص ، الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦

(٣) طه ١٣٣

وشيناً / للمجبرة ، وشيناً للرافضة ، فسروا به لنقصهم ، وشهدوا له بالحق لفرط غباوتهم وانهم لا يعرفون الاسلام وأهله ، فمن اظهر لهم التصويب قبلوه لضعفهم وسوء احوالهم ، وقبله اليهود والنصارى وحذقوه ، لأنه شتم محمداً رسول الله وأظهر تكذيبه ، وهو فقد شتم ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى وهارون ويحيى وعيسى وجميع النبيين صلوات الله عليهم اجمعين وكذبهم ، ولكن اليهود والنصارى بلا حجة ولا بصيرة في مخالفتهم المسلمين ، فمن عادى محمداً ﷺ قوله وإن كان عدواً لأنبيائهم ، كما لا بصيرة لأهل بدع الاسلام من المشبهة والمجبرة والرافضة . وهذه السور مثل القصص وهود ويوسف من المكيات فاعلم ذلك .

بَاب آخِر

من آياته وأعلامه ، وهو إخباره عن النصرانية ومذاهب النصارى من هذه الطوائف الثلاث منهم ، وهي الباقية القائمة الراهنة في قولهم أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله ، وأن الله ثالث ثلاثة ؛ فإن هذه الطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والفسطورية (١) ، لا يختلفون في أن المسيح عيسى بن مريم ليس بعبد صالح ولا بنبي ولا برسول ، وأنه إله في الحقيقة ، والله في الحقيقة ، وأنه هو خلق السموات والارض والملائكة والنبیین ، وأنه هو الذي أرسل الرسل وأظهر على أيديهم المعجزات ، وأن للعالم إلهاً هو آب والد لم يزل ، غير مولود ، وأنه قديم خالق رازق ، وإله هو ابن مولود ، وأنه ليس بآب ولا والد ، وأنه قديم حي خالق رازق ، وإله هو روح قدس ليس بآب والد

(١) سيأتي تفصيل هذه الطوائف فيما بعد .

ولا ابن مولود / وانه قديم حي خالق رازق ، وان الذي هو ابن نزل من السماء ، وتجسم من روح القدس ومن مريم البتول ، وصار هو ابنها إلهاً واحداً ومسمى واحداً وخالقاً واحداً ورازقاً واحداً ، وحبلت به مريم وولده ، وأخذ وصلب وألم^(١) ، ومات ودفن ، وقام بعد ثلاثة أيام وصعد الى السماء وجلس عن يمين ابيه . فحكى قولهم في ان المسيح هو الله وان الله ثالث ثلاثة .

وهكذا مذهبهم في الحقيقة ولا يكادون يفصحون به ، بل يدافعون عن حقيقته ما امكنهم ، حتى ان ارباب المقالات واهل العناية به من المصنفين لا يكادون يحصلون مذهبهم ، وإنك لتجد النظائر من منهم والمجادلين عنهم اذا سألتهم عن قولهم في المسيح ، قالوا : قولنا فيه انه روح الله وكلمته مثل قول المسلمين سواء ، او يقول : إن الله واحد . وتحمده ﷺ وقد حكى حقيقة مذهبهم ، ولم يكن من المجادلين ولا من المتنبيين ، ولا ممن يقرأ الكتب ويلقى اهلها ، ولا من المتكلفين ، ولا كانت مكة والحجاز اذ ذاك بلاد فيها شيء من هذا ، فانتشر هذا عنه ﷺ ، وفتش الناس عنه بعد ذلك فوجدوا الأمر كما قال وكما فصل ، بعد الجهد وطول الاستقصاء في الطلب والتفتيش . وما اكثر ما تلقى منهم فيقول : ما قلنا في المسيح انه الله ، ولا قلنا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن حكى هذا عنا فقد أخطأ وكذب ، ليعلم ان وقوف محمد ﷺ هذا انما هو من قبل الله عز وجل ، وان ذلك من آياته .

فإن قيل : فلن قولهم في هذا وأن الله ثلاثة أقانيم جوهر واحد ، كقول المسلمين بسم الله الرحمن الرحيم ، وكقولهم في الله أنه حي قادر عالم .

قيل له : هذا غلط على النصارى ، وليس قولهم في التوحيد من قول

(١) ألم الرجل بألم ألام ، فهو ألم . اللسان ١٤ : ٢٨٧

المسلمين بسبيل ، وإنما يقول هذا من يروم المغالطة والفرار من فحص المقالة ، / لأن الله عند المسلمين هو الرحمن وهو الرحيم وهكذا العالم القادر ، وهي ذات واحدة لها صفات كثيرة ، وأسماء كثيرة . وعند النصارى ، أن الله الوالد ليس هو الابن المولود ، ولا يجوز ان يكون الأب الوالد ابناً مولوداً ، ولا الابن المولود أباً والداً ، وكذا روح القدس ، ومن قال غير هذا فليس من النصارى ؛ فان بليت منهم بمن هذه سبيله أعني الجحود لهذه المقالة الفاحشة فقل : إن كنت تريد أن هذا قولك وكذا تختار فما يدفعك عن هذا ؟ فأما ان يكون هذا قولاً للنصارى فهذا كذب وبهت ، ولو أسلم نصارى عصرنا كلهم لما خرج هذا من ان يكون قولاً لمن سبق وتقدم من هذه الطوائف الثلاث ، فاعلم ان هذا هو مذهبهم في التثليث ، قد حصل العلم به ولهم فيه ضرب أمثال ، وذلك في تسابيحهم وأقاويلهم في عباداتهم ، ألا ترى انهم يقولون في تسبيحة القربان في الساعة التي يكونون فيها خاضعين يتوقعون بزعمهم نزول روح القدس لقبول فاتور القربان : ليتم علينا وعليكم نعمة الرب يسوع المسيح بن مريم ومحبة الله الأب ومشاركة روح القدس أبداً الى دهر الداهرين .

ويقولون في تسبيحتهم التي يسمونها تسبيحة الإيمان التي وضعت بنيقية^(١) من بلاد الروم ، وهذا كان بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، حين جمعهم قسطنطينوس ابن فيلاطس^(٢) ملك الروم ، الذي امه هيلانة الحرانية

(١) عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م بدعوة من الامبراطور قسطنطين ، وكان يضم ٣١٨ اسقفاً ، ابرز اعضاءه آريوس الكاهن الاسكندري الذي تبني رفض تساوي عناصر الثلاث النصراني . وقال بأن جوهر الابن غير مساو لجوهر الأب وانه مخلوق .

(٢) هو قسطنطين الكبير ، ابن قسطنطين خاور ، ووالده هيلانة وكنا ميالين للمسيحية . بقي وثلياً حتى سنة ٣٠٨ ثم بدأ يفكر في جعل المسيحية ديناً للدولة وخاصة بعد رؤيا الصليب =

الفندقية ، جمعهم ليعملوا تقريراً في إيمانهم يحملون الناس عليه ويأخذونهم به
فن أبى قتلوه ، واجتمع عنده نحو ألفي رجل ، فقرروا تقريراً ثم رفضوه ،
ثم اجتمع ثلثائة رجل وثمانية عشر رجلاً وهم يسمونهم الآباء ، فقرروا هذا
التقرير ، وهم يسمونه سنهودس / ، فكان تقريرهم لهذه التسمية وهي أصل
الأصول عند جميع هذه الطوائف لا يتم لأحد منهم إيمان إلا بها وهي :
« نؤمن بالله الأب الواحد ، خالق ماسا يرى وما لا يرى ، وبالرب الواحد
يسوع المسيح بن الله بكر أبيه وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من
جوهر أبيه الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شيء ، الذي من أجلنا معشر
الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ومن مريم
البتول ، وصار انساناً ، وحبلت به مريم البتول وولدت ، وأخذ وصلب
وقتل امام فيلاطس الرومي ، ومات ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو
مكتوب ، وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة
أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء .

ونؤمن بالرب الواحد روح القدس ، روح الحق الذي يخرج من أبيه ،
روح محييه ، وبعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية
سليحية^(١) جاثليقية ، وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة الى أبد الأبدين .
فتأمل هذا الشرح وهذا التفصيل والكشف في التثليث والتشبيه ، وكيف

= المعجيب - في زعمه - سنة ٣١٢ قبل المعركة مع مكسنتي . وقد اصدر منشوراً بحرية التحول
للديانة المسيحية سنة ٣١٣ م . انظر تاريخ الكنيسة المسيحية ، الكسندروس مطران حص
ص ٢٢٠ وما بعدها . ولقب هيلانة بالفندقية لأنها كانت تعمل في فندق بجران .

(١) سليحية : نسبة لكتاب السليح لبولص ، وهو يتألف من ٢٤ رسالة . انظر الفهرست لابن
النديم ٤١ . وقد ورد في الكتاب احياناً باسم السليح واحياناً باسم السليحين .

يعتقدون في الله حقيقة المديرين المصنوعين من النزول والصعود والولادة
وغير ذلك .

فان قالوا : فانا لا نقول انها ثلاثة آله ، فكيف يحكون عنا التثليث؟
قلنا لهم : انكم قد أعطيتونا معنى التثليث وأشعتموه واستوفيتم حقائقه ،
ومنعمت / بعض العبارة عنه ، ألا ترون انكم تقولون إله هو أب والد حي
قادر قديم عالم خالق رازق ، وإله هو ابن مولود كلمة حي قديم خالق رازق
ليس بآب ولا والد ولا يجوز ان يكون والداً ولا أباً ، وإله روح قدس حي
عالم قديم خالق رازق . ثم قلتم هي ثلاثة أقانيم ، فقلتم في كل واحد منها انه
إله ورب وقديم ، وامتنعتم من الاقرار بالجملة وقد أعطيتم التفصيل ، وما
مثال ذلك إلا كمن قال : عبد الله العربي^(١) رجل وانسان وجسم وشخص ، وما
وخالد الفارسي^(٢) رجل وانسان وجسم وشخص ، وزيد الرومي رجل
وانسان وجسم وشخص ، قلنا : فهؤلاء ثلاثة رجال ، وثلاثة أناس ، وثلاثة
اشخاص ، وثلاثة اجسام . فقلتم : لا ، بل هم رجل واحد . قلنا : لا يؤثر
امتناعكم من اطلاق هذه العبارة في شيء قد أشيعت حقيقته . وفيهم من
يتنعم من ان يقول في كل واحد من هذه الثلاثة انه غير صاحبه ، ثم يقولون :
ما شبننا ولا مثلنا ، فكانوا كالمشبهة الذين يقولون : إله يصعد وينزل ويقعد
على العرش ، ثم يقولون : ليس كمثل شيء .

والذي يمنع النصارى من اطلاق القول بأنها ثلاثة آله متغايرة مختلفة وان
كانوا قد اعطوا معنى ذلك ، إلا لأنهم صدقوا بكتاب الله عز وجل التي صدق

بها المسيح عليه السلام ، وهي مملوءة بتوحيد الله وتفردة بالقدم ، وانه لا يشبه الأشياء ، وانما هذه البدع ابتدعوها بعد المسيح ، فأرادوا حمل بدعتهم في الشرك على ما في كتب الله فلم يتم ذلك وحصلوا على محض الشرك والتشبيه / .

فإن قيل : قد لعمرى صدقتم فيما حكيتم من التثليث ، فإن الملكية تقول فيه : إنه إله حق من إله حق من جوهر ابيه ، وان القتل والصلب والولادة وقعت عليه بكماله ؛ واليعقوبية تقول : حبلت مريم بالإله ، وولدت الإله ، وقتل الإله ، ومات الإله ، فما عندكم في النسطورية ؟ فإنهم قد قالوا في المسيح انه مركب من نوعين وأقنومين ^(١) وطبعين ، من إله ومن انسان ، وان الولادة والقتل إنما وقعتا بالانسان وهو الذي يسمونه الناسوت .

قيل له : لو كانت النسطورية تقول في المسيح كما يقول المسلمون لما قدح ذلك في الخبر ولا اثر في العلم لأن التثليث قد وقع ، كيف والنسطورية ترجع الى القول في المسيح الى قول اخوانهم من الملكية واليعقوبية ، فيقال للنسطورية قد قلتم إنه إله حق من إله حق من جوهر ابيه ، وقلتم إنه إله تام من إله تام ، ثم قلتم إن لاهوته مولود من قبل الأب وناسوته مولود من قبل الأم ، والولادة قد احاطت به من كل وجه ومن كل جهة ؛ وايضاً فإنكم تمدحون الإله بالولادة كما يمدحونه المسلمون بتنزيهه عن الولادة ، وتقولون لو لم يكن والداً لكان عقيماً ، وكل حى لا يكون والداً فإنما ذاك لنقص وآفة وعامة . فلا ينبغي ان تغالطوا عن حقيقة قولكم .

ثم يقال لهم : اخبرونا عن مريم هل حبلت بالمسيح في الحقيقة ، وولدت

(١) في الاصل : أثنين

٤٥ / ب المسيح في الحقيقة ، وربت المسيح واطعمت المسيح في الحقيقة ، وهي / أم المسيح في الحقيقة ؟ فإن قالوا : ولدت ناسوت المسيح او حبلت ناسوت المسيح قلنا : لم نسألكم عن هذا ، فإن ناسوت المسيح عندكم ليس هو المسيح وإنما المسيح هو اللاهوت ، ولاهوت المسيح عندكم ليس هو المسيح إنما هو مجموعها المسيح ، اجيبونا ، فان كانت مريم قد ولدت المسيح في الحقيقة وحبلت بالمسيح في الحقيقة ، فقد حبلت بالإله والانسان وولدت الإله والانسان ، وهي أم الإله والانسان ، وقد قتل الإله والانسان ، وألم الإله والانسان ، ومات الإله والانسان ؛ فقد تبين ان قولكم وقول الملكية واليعقوبية في ذلك سواء . وإن قالوا ما ولدت المسيح في الحقيقة ، ولا هي أم المسيح في الحقيقة قلنا لهم : فليس هذا قول احد من النصارى ولا قول المسلمين ايضاً بل هو قول اليهود ، فانهم قالوا : إن مريم ما حبلت به .

وإن قالوا : نقول هي أم المسيح على المجاز ، ومات المسيح في المجاز ، قلنا لهم : لم نسألكم عن المجاز ، إنما سألنا عن الحقيقة ، فانه على هذا التقدير ربما ايضاً يكون حمل مريم من غير ذكر مجاز ، وإحياءه الموتى مجاز ، وجميع ما يدعونه له مجاز ، وهذا لا سبيل اليه ، لأنهم إن قسموا أفعاله من من لاهوته وناسوته وجب ذلك كله ، لأنه اذا احيا الموتى وأظهر الآيات فإنما ذلك فعل اللاهوت واللاهوت وحده ليس بمسيح ، واللاهوت ما رآه الناس فلا يجوز ان يقال رأى المسيح ، وإذا أكل وشرب وتام واستيقظ فذلك فعل الناسوت والناسوت وحده ليس بالمسيح ، فقد وجب / جميع ما قدمناه

وهم لا يصيرون اليه ولا يلتزمونونه ، ومن صار اليه خرج عن النصرانية وعن جميع اقوال المثلثة . وقد علمت ان حقيقة قولهم ما في تبسيعة إيمانهم وهي اصل الاصول ، وليس لأحد من طوائفهم عنها ولا عن شيء منها

معدل ، وإنما وضعت حين صار الملك الى هذا القول ، وحين خالفهم آريوس^(١) الافصاح بالمذهب ولرفع التأويل والأوهام في المقالة .

وعند هذه الطوائف الثلاثة ، ان المسيح صار مسيحياً وإلهاً خالقاً رازقاً معبوداً حين بشر الملك امه وساعة الحمل به ، فاتحد به الإله فصار جميعاً منذ ذلك مسيحاً واحداً وإلهاً واحداً ، وأن الاتحاد ما انتفض عندهم ولا بطل ، ولا خرج عن المسيحية والإلهية لا في حال الحمل ولا في حال الولادة ولا في حال النوم ولا في حال الأكل ولا في حال البول والتغوط ولا في حال المرض ولا في حال القتل ولا في حال الموت ، وأنه في جميع هذه الأحوال مسيح وإله ورب معبود وخالق ورازق ومدبر .

ويقولون : هو احياً نفسه بعد الموت لأنه محال عندهم ان يحيي الموتى غير المسيح ، وقد علمت تسبيحة الايمان وتفصيلها فارجع اليه ، ففيه أتم كفاية لتعلم مغالطة الذسطورية وجميع من يحادل عن النصرانية . وقد قال فولوس^(٢) - وهم عندهم فوق الانبياء وقد ذكر صنيع اليهود بالمسيح - :

(١) في الاصل اريوس ، وهو آريوس الكاهن الاسكندري ، وقد كان احد الذين وجدوا ان في القول بأن أقانيم الثالوث المقدس لها جوهر إلهي واحد مساو اي : ثلاثة آلهة إله واحد ، فيه تناقض كبير . فتأدى بأن الله الآب وحده هو الإله الحقيقي بالمعنى الخاص الصارم ، وابن الله - يزعم النصارى - والروح القدس كائنات إلهية بالدرجة الثانية . لها طبيعة تختلف عن طبيعة الآب ومخلوقة . وقد عقدت عدة مجامع كنسية فازت في بعضها آراء آريوس وخذلت في بعضها الآخر . المرجع السابق ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) يقصد بولس الذي يلعبه النصارى بالرسول ، فقد كان من عادة العرب ان يقلبوا الباء فاء حين الترجمة عن اللغة اليونانية ، فقالوا : افلاطون وفيلاطس . ولبولس مجموعة من الرسائل ملحقة بالعهد الجديد تحت اسم اعمال الرسل .

لو علموا لما صلبوا رب المجد الذي له الحمد والبركات ابد الدهر . وقال / ايضاً : الذي ليس بمعين 'عوين' ، والذي ليس بمحسوس 'محس' ، والعالي على الزمان أبندىء ، وابن الله صار ابن الانسان ، وألم الذي لم يكن يألم ووالده الله ، فتأمل ما في هذا فانه يفصح بأن الله لم يكن يعاين فصار يعاين ، ولم يكن 'محس' فصار 'محس' ويدرك ، وأنه كان قبل الزمان فابتدىء وصار في الزمان ، وألم الذي لم يكن يألم ، وابن الله صار ابن الانسان ، وصار ابن الانسان ابن الله ووالده الله ، وهذه صفات المسيح الذي هو عندهم الله وابن الله . قالوا : وقد قال الآباء - وقد ذكروا ما صنع فيلاطس الرومي واليهود - : انهم لما صلبوا رب المجد عرفوه .

قالت النصارى هذه كلها اقاويلنا وفيها حقيقة مذهبننا .

قالوا وقد قال الفاضل ياوانس : المساوى للآب جاء الى العالم في الرحم البتول ، وكان قبل ان يكون آباؤه ابراهيم وإسرائيل وداود ، وهو ابن الله قبل ان يدعى ابن ابراهيم وداود . وقالوا : فهذه حقيقة ديننا ، فان جاء فيه ان الله انسان او من جنس الناس ، او أنه يتقلب في الصور والهياكل وينتقل ويتشكل لم ننفر من ذلك ، ولم ندع ما اسسه الآباء والقذوة لما يوجب الجدل ويلزم في النظر . فتأمل هذا ، وقولهم : المساوي للآب جاء الى العالم في الرحم البتول وكان قبل ان يكون آباؤه ابراهيم وإسرائيل وداود وهو ابن الله قبل ان يدعى ابن ابراهيم وداود ، لتعلم ان اعتقادهم وقولهم ان هذا الذي ولدته مريم هو ابن الله وهو الله ، وأنه مثل الآب الذي في السماء

على العرش عندهم ، وأن هذا هو الذي لم يزل ، وأن الذي حدث وتجدد ولادة مريم له ، وأن ابراهيم وإسرائيل وداود انما صاروا آباءه من قبل امه لأنها

من بني اسرائيل ، وأنه كان ابن الله قبل ان يكون ابن ابراهيم واسرائيل وداود .

قالوا : وقد قال علماءنا ومن هو القدرة عند جميع طوائفنا : يسوع في البدء لم يزل كلمة ، والكلمة لم تول لدى الله ، والله هو الكلمة ، ويسوع هو عيسى بالسريانية ^(١) . قالوا : فذاك الذي ولدته مريم وهابنه الناس وكانت بينهم هو الله وابن الله وهو كلمة الله .

قالوا : وقد قال يوحنا السليح ^(٢) : إنا نبشركم بالذي لم يزل من قبل ، وأنا رأيناه بأعيننا ، وحسنناه بأيدينا . قالوا : فما فيمن هو الحجة لجماعتنا الا من يكشف الامر كشفا لا يتعرض لتأويله الا من يكابر عقله .

فعندهم ان القديم الأزلي خالق السماوات والأرض هو الذي عابنه الناس بأبصارهم ، ولسوه بأيديهم . قالوا وقد قال أرميا النبي وقد ذكر المسيح والبشارة به : هذا الهنا ولا نعوذ معه غيره ، وانه في آخر الزمان تراه على الأرض وتردد مع الناس ، فتأمل هذا الكشف .

قالوا : وقد قال بطرس ^(٣) وهو بكر إيماننا واصل بيعتنا لما سئل عن ابن الله لا عن ابن الناس ، وعن كلمة الله لا عن كلمة الناس فقال : هو الذي كان بين الناس وتردد معهم ، وأبرأ الذين نكأهم الشرير .

قالوا : وقد خاطب الناس / من بطن أمه مريم ، فقال للأعمى : أنت

٤٧ / ب

مؤمن بابن الله ، قال الأعمى : ومن هو حق أو من به ؟ قال : قد رأيته وهو المخاطب لك ، قال : آمنت يا سيدي ، وخر ساجداً . قالوا : فما الذي بقي من الإفصاح بأن الذي حبلت به مريم وكان في بطنها هو الله وابن الله وكلمة الله .

قالوا : وقد قالت ام يحيى بن زكريا - وقد دخلت على مريم وهي حبل بالمسيح ، وام يحيى حبل به - ان هذا الذي في بطني قد سجد للذي في بطنك . قالوا : فما الذي يبقى في البيان في ان الإله المعبود الذي هو الله وابن الله وكلمة الله هو الذي حبلت به مريم وولده .

قالوا : ولما عمده يوحنا في الأردن تفتحت ابواب السماء ونادى الأب : هذا ابني وحبيبي الذي سررت به نفسي . ونزل روح القدس في صورة حمامة ورفرفت على رأس المسيح ، قالوا : فالتمتع هو الله الابن ، والمنادي هو الأب ، والنازل هو روح القدس ، وانظر كيف يفرعون كل واحد منهم بصنع غير صنع صاحبه .

قالوا : وفي البشارة به حين قال جبريل لمريم : ها انت تحبلين وتلدن ، قالت له : كيف يكون هذا وما مسني رجل ؟ فقال لها : ربنا معك ، والهنا معك ، وأيدي العلي تحل عليك ، وروح القدس تأتيك ، والذي يولد منك قدوس وابن الله يُدعى ، قالوا : فقد خبرها بأنها تحبل بابن الله لا بابن الناس ، وانها تلد ابن الله لا ابن الناس ، وان الله معها . قالوا ولا تريد بقولنا معها ومع ابنها بمعنى التأييد والنصر والمعونه كما يكون الله / مع الأنبياء والصالحين والمؤمنين ، لأن المسيح عند طوائفنا الثلاث ليس بني ولا بعبد صالح ، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم

(١) ثبت القاضي كلمة يسوع بالالف قبلها واحياناً دونها . وقد اثبتناها بحذف الالف .
(٢) احد الذين يطلق عليهم النصارى اسم الرسل . وله مجموعة من الرسائل ملحقة بالعهد الجديد ، مات سنة ٤٤ م . تاريخ الكنيسة ٣٤ .
(٣) احد الذين يطلق عليهم النصارى اسم الرسل . وله مجموعة من الرسائل ملحقة بالعهد الجديد ، مات سنة ٦٦ او ٦٧ . تاريخ الكنيسة ٣٣ .

ورب الملائكة؛ ولا هو معها ومع ابنها بمعنى الخلق والتدبير والتقدير كما يكون مع سائر إناث الحيوان من الناس والكلاب والحمير والخنازير بالخلق والصنع والتقدير ، ولكنه معها لحبلها به ولاحتواء بطنها عليه ، فلهذا فارقت جميع اناث الحيوان ، وفارق ابنها جميع النبيين ، فصار الله وابن الله الذي نزل من السماء وحبلت به مريم وولدت المولود منها الها واحداً ومسيحاً واحداً ورباً واحداً وخالقاً واحداً منذ وقت بشارة جبريل عليه السلام لها ، لا يقع بينها فرق ، ولا يبطل الاتحاد بينها بوجه من الوجوه ، ولا في الحبل ، ولا في الولادة ، ولا في حال نوم ، ولا مرض ، ولا صلب ، ولا موت ، ولا دفن ، بل هو متحد به في حال الحبل ، فهو على تلك^(١) الحال : مسيح واحد ، وخالق واحد واله واحد ، وفي حال الولادة كذلك ، وفي حال الموت والصلب كذلك .

قالوا : فتما من يطلق في لفظه وعبارته حقيقة هذا المعنى ، فيقول : مريم حبلت بالإله ، وولدت الإله ، ومات الإله ؛ ومنما من ينسج هذه العبارة ويعطي معناها وحقيقتها ، فيقول : مريم حبلت بالمسيح في الحقيقة ، وولدت المسيح في الحقيقة ، وهي أم المسيح في الحقيقة ، والمسيح إله في الحقيقة ، ورب في الحقيقة ، وابن الله في الحقيقة ، وكلمة الله في الحقيقة ، لا ابن الله في الحقيقة إلا هو ، ولا أب للمسيح في الحقيقة إلا هو ، ولا أم للمسيح إلا مريم . قالوا : فؤلاء يوافقون في المعنى قول من قال / فيها : إنها حبلت بالإله ، وولدت الإله ، وقتل الإله وألم الإله ، ومات الإله ، وانما يمنعون اللفظ والعبارة فقط .

(١) في الاصل: فهو تلك

قالوا : وانما منعنا هذه العبارة التي أطلقها إخواننا لثلاث يتوهم علينا إذا قلنا : حبلت بالإله ، وولدت الإله ، ومات الإله ، وألم الإله ، إن هذا كله حلّ ونزل بالإله الذي هو أب ، ولكننا نقول : حلّ هذا كله ونزل هذا كله بالمسيح ، والمسيح عندنا وعند طوائفنا إله تام ، وإله حق من إله حق ، من جوهر أبيه .

قالوا : لا نريد بأنه معنا على معنى النصر والتأييد ولا معنى الخلق والتدبير ، لأنه مع جميع الانبياء والصالحين كذلك ، ومع جميع المخلوقات بالخلق والتدبير ، وكأن يكون قولنا وقول المسلمين واليهود واحداً في التوحيد .

قالوا : والآباء والقدوة منا يقولون : ابن الله يدعى ابن الانسان ، وابن الانسان يدعى ابن الله ، وآدم الجديد هو الإله الأليم الذي قتل ومات .

قالوا : وعندنا ان المسيح قال : ابن البشر هو رب السبت^(١) . وقال ايضاً : أنا أبني وأبي بي ، ولا يعرف احد الات إلا الابن ، والابن لا يعرفه إلا الاب ، وانك إله بي وأنا بك^(٢) . وقال : انا في ابي ، وابي في . وقال : انا قبل ابراهيم ، وقد رأيت ابراهيم وما رأي ، فقال له اليهود : كذبت ، كيف تكون قبل ابراهيم وأنت من ابناء ثلاثين سنة ، فقال : انا عجنت طينة آدم ومحضرتي خلق ، وانا اجيء واذهب واذهب واجيء^(٣) . قالوا : وهذا القول عندنا للمسيح في الحقيقة ، ولو كان قولاً للإله الذي ليس هو المسيح

(١) « ابن الانسان هو رب السبت » . انظر انجيل لوقا الاصحاح السادس .

(٢) الاصحاح العاشر من انجيل لوقا

(٣) انجيل يوحنا الاصحاح ٨

لما كان له معنى . وعندنا ان المسيح بن آدم وربّه وخالقه ورازقه وابن ابراهيم وربّه وخالقه ورازقه ، وابن اسرائيل وربّه وخالقه ورازقه ، وابن مريم وربّها وخالقتها ورازقها .

قالوا : وقد اعتل لنا من يناظر عنا بأن الله والد في الحقيقة وان تولد ابنه منه كتولد ضياء الشمس من الشمس وكتولد الكلمة من العقل ، ونحن فما قلنا : إنه والد له ولد في الحقيقة بهذا الاعتلال ، بل لما قدمنا من قول الآباء والقُدوة . وعلى ان هؤلاء قروا بهذا القول من التشبيه لله بالمتناسلين المتناكحين من المخلوقين ، فشبهوه بالموت والجناد ، فوقعوا في شر ما هربوا منه ودفعوا الضرورة ، لأن مريم قد ولدت المسيح إله الكل ولادة صحيحة في الحقيقة معقولة ، ولادة الاحياء الناطقين بغير تناكح ولا تناسل ، ومن قال إن مريم ما حبلت بالمسيح في الحقيقة ، ولا ولدت المسيح في الحقيقة ، ولا هي ام المسيح في الحقيقة ، فليس من طوائف النصارى . وكذا من قال ليس المسيح إلهاً في الحقيقة ، ولا رباً للخلائق في الحقيقة ، فليس من الملكية ولا من اليعقوبية ولا من الفسطورية .

قالوا : وقد قال القُدوة عندنا : إن اليد التي سمّرها اليهود في الخشب هي اليد التي عجنّت طين آدم وخلقته ، وهي اليد التي شبرت السماء ، وهي اليد التي كتبت التوراة لموسى .

وقالوا : وقد وصفوا صنيع اليهود بالمسيح : إنهم لطموا الإله وضربوه على رأسه ، وعجب لإله يضرب على رأسه . وتعالوا فانظروا الى الإله يلطم ويضرب على رأسه .

قالوا : وفي بشارة الأنبياء ، ان الاله يحيى ، وتحبل / به امرأة عذراء وتلد ، ويؤخذ ويصلب ويقتل .

قالوا ولنا سنهودس قد اجتمع عليه نحو سبعمائة من الآباء والقُدوة ، فيه ان مريم حبلت بالاله وولدت وارضعته وسقته واطعمته ، وهذا دون ما في تسبيحة الايمان من الولادة والقتل والألم والصلب والموت والدفن .

قالوا : وأقاولنا كلها من اولها الى آخرها التي ذكرناها لكم من اصل ديننا وحقيقة مفصحة بذلك ، فهذه حقيقة ديننا وايماننا ولنا من هذا المعنى من السرياني والعربي اكثر مما ذكرناه .

فهذا يرحمك الله كما ترى وتسمع ، فلولوا ان رأينا قوماً عقلاء يقولون هذا ، وسمعناه منهم حين فلقنا عما قاله الله وحكاه عنهم فنطقوا به بعد الجهد واخرجوه من غوامض امراهم ، لما صدق الناس ان في الدنيا من قال هذا او نطق به .

وإذا تأمل العاقل الأمور وفكش وطال بحثه وجهد ، رأى الجهل في الأمم والاقاويل المشتبهة على الحق كانت في الامم قبل الاسلام .

فالفلاسفة تدعى في هذه الاجسام الجناد والموات من الشمس والقمر والكواكب والسماء أنها حية عاقلة مميزة تخلق وترزق وكانوا لها عابدين ، والنصارى كما قد علمت ، والمجوس^(١) عندها ان الاله غالبه الشيطان ونزل الى الارض^(٢) ، وكانت الحرب بينها ألف سنة ، وان الشيطان غلبه وحاصره

(١) المجوس احدى فرق الثنوية الفارسية وهي : المانوية والمزدكية والمركيونية والماهانية والمجوس والفلاصية . وهي تتفق في امور وتختلف في امور ، واهم ما تتفق فيه القول بأصلين للوجود هما : الخير والشر او النور والظلمة .
(٢) كتب في الحاشية : في اعتقاد المجوس .

في جنته مع ملائكته وان الملائكة عند ذلك سعوا بينها في الصلح ووقعت
المهادنة بينها / على شرائط معروفة مذكورة عند من حكى المقالات ،
وشرحها بطول ^(١) ، ثم رجع عندهم بملائكته الى سمائه غير انهم ما قالوا
قتل كما قالت النصارى ، ولا بلغوا الى هذا وان كانوا قد فحشوا في القول .
وقد كانت القبط تقول بإلهية فرعون صاحب مصر ، والمنانية من
الزنادقة فقولها في نحو من قول الجوس ، وأقاريل الهند في البدع معروفة .

فلما جاء الاسلام بتلك الانوار ، وبأن من كان جسماً ومحتاجاً لا يكون
إلهاً ولا يفعل جسماً كما قدمت لك في « المصباح » ، وهو ايضاً مذكور في
غيره . وكان من رحمه الله بخلقه ان سلطان الاسلام ظهر على الاديان كلها ،
وكان حملة السلاح هم الأتقياء والأولياء العلماء الفقهاء ، فاستحيا اهل البدع
منهم فانبعضوا وكانت لهم هيبة التقوى . فمات اولئك رضي الله عنهم وطال
العهد ، وصار بعدهم ملوك جبابرة غير انهم كانوا حملة الاسلام .

ثم لم يزل الأمر يتناقص ، فصارت السيوف كلها على الاسلام ، ومات أهله ،
وصار في الزندقة والإلحاد السيف والملك فعادوا الى ما كانوا عليه من الجاهلية .
ألا ترى ان من بالإحساء من القرامطة والباطنية ^(٢) لما غلبوا شتموا الانبياء ،
وعطلوا الشرائع ، وقتلوا الحجاج والمسلمين حتى أفنواهم ، واستنجوا بالمصاحف

(١) كتب في الحاشية : في اعتقاد القبط .

(٢) كان ابتداء ظهور القرامطة في الربع الرابع من القرن الثالث الهجري ، وكانت دعوة
سرية تسرت بستر التشيع ونكب العالم الاسلامي ببلائها مدة طويلة ، وكان من ام زعمائها
زكية الاصفهاني او زكرويه بن مهرويه الذي قتل سنة ٢٩٤ . انظر تاريخ الطبري .

والتوراة والإنجيل ، وجاؤوا بزيكيرة الاصفهاني الجوسي ^(١) وقالوا هذا هو
الإله في الحقيقة وعبدوه ، وكان لهم معه ما هو مذكور معروف .
ومثل هذا / صنع ابو القاسم الحسن بن حوشب بن زاذان الكوفي النجار ^(٢)
حين ظهر يجبال لاعة من ارض اليمن ، وكذا صنع من كان منهم بالجنند ^(٣)
وعدن من ارض اليمن ، وسبوا العلويات ، وكل هؤلاء كانوا في اول امرهم
يخدعون الناس بأنهم شيعة ، وأن المهدي ارسلهم .

وكذا صنع من كان منهم برقاده والقيروان من ارض المغرب ، الى ان
قام ابو يزيد مخلد بن كدآد ^(٤) بمن معه وحاربه خمس سنين وضيق عليهم
كما صنع الأصفر بأهل الإحساء ^(٥) ، فلما انكشف أمر أبي يزيد عن المغرب
كفوا عن المكاشفة للعامة بشتم الانبياء وتعطيل الشرائع ، وصاروا يخدعون
الناس سرّاً وينقلونهم عن الاسلام بالحيل والأيمان من حيث لا يشعرون شيئاً
شيئاً ، وانبثوا وانبسطوا ، وبثوا ذلك في ممالكهم ، ويقصدون بدعوتهم
الديلم والأعراب وكل من يقل بحجته ونظره وله رغبة في الدنيا وشغل بها .

(١) كتب في الحاشية : « جاء القرامطة بزيكيرة الاصفهاني الجوسي وقالوا : هذا هو الإله » .
(٢) الحسن بن زاذان المتوفي سنة ٥٣٠ هـ من اتباع ميمون القداح ارسله الى اليمن فخرج فيها
واستولى على قسم كبير منها .

(٣) موضع في اليمن ، ورسمها في الاصل : الجبد .
(٤) ورد هذا الاسم في تاريخ ابن خلدون غير مرة « كراد » ، وفي عقد الجمان « كندار »
وفي العبر للذهبي « كنداد » ، ولعل الأصح ما اثبتناه هنا « كدآد » . وهو من الحوارج الصفورية .
انظر ابن خلدون ٤ : ١٤٠ ، وعقد الجمان حوادث سنة ٣٣٤ ، والعبر للذهبي ٢ : ٢٤٠ ،
٢٤٢ ، ٢٥٧ .

(٥) يقصد ابا الفضل بن زكريا الجوسي الاصبهاني ، كان قدم من اصبهان ومعه على القرامطة
ابي سعيد الجنابي واخيه ابي طاهر واصحابها فاتخذوه كاله . وسبب تلقيبه بذلك انه كان يلبس
عمامة صفراء وثوباً اصفر ، قتله القرامطة بعد ذلك في أوائل الربع الثاني من القرن الرابع
الهجري . انظر تجارب الأمم لسكويه ٥٢ - ٥٥ وما بعدها .

ثم يقطعونهم عن البحث والنظر باليهود والايان المغلظة ، ومن دخل بلدانهم وشاهد عساكرهم وتأمل سيرتهم يعرف ذلك من قصدهم ، بل من سأل واستبحث يعلم ذلك وإن لم يصر اليهم . وقد صاروا حرماً للخلعة والزنادقة والفلاسفة والذهرية وجميع اعداء الاسلام ، فمن هاجر اليهم أمن في إحصاءه وقال ما شاء كيف شاء ، فبها مصيبة بذهاب الاسلام وموت اهله وقلة العارفين به وبحقوقه ، فان من بقي ممن يظن انه من اهله فممنهم من يشبه الله بخلقه ، ومنهم / من يحوره في حكمه وإلى غير ذلك .

٥١ / أ

وَبَابٌ آخِرٌ

وهو ان هذه الطوائف الثلاث من النصارى أشد عالم الله تعظيماً للمسيح وتحققاً به وحباً له ، يدعون انهم شيعته واتباعه ، وانهم اطوع الناس له ، وأن ما هم عليه عنه اخذوه ، وبه اقتدوا فيه ، وعلى وصاياه عملوا . وقال عليه السلام : ان المسيح عبد الله ورسوله أتى الناس بما جاءهم الانبياء قبله ، من آدم ونوح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وموسى وهرون وغيرهم من الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين ، من الدعاء الى عبادة الله وتوحيده وحده ، والاخلاص له وحده بالعبادة والقدم والربوبية ؛ وان النصارى قد كذبوا عليه ، وبدلوا دينه ، وعطلوا وصاياه ، وانهم ضاهوا بقولهم قول الذين كفروا من قبل ، الذين اتخذوا المخلوقات آلهة وأرباباً ودعوا وتضرعوا لها ، كالفلاسفة والصابئين من اهل حران^(١) ، فانهم

(١) سمي صابئة حران بذلك لأنهم كانوا يسكنون مدينة حران من ارض الجزيرة ، وقد عرفوا بعبادة الاجرام السماوية السبعة ، وهذه العبادة بقية من الديانة الاشورية والبابلية .

اعتقدوا في الشمس والقمر والكواكب والسماء ما قدمنا ذكره ، كالقبط الذين قالوا في فرعون ما ذكرنا ، وكغيرهم ؛ فقد قال ربوبية المخلوقات والمخلوقين خلق كثير ، وشرح احوالهم يطول ؛ وان المسيح عليه السلام عدو هؤلاء النصارى ويرى منهم فوجد الناس الأمر كما قال ، وعلى ما شرح وفصل ، أفكم في هذا من عجب ، انه رجل عربي أمي يخبر عن رجل قد سبقه بنحو ألف سنة ، ولسانه غير لسانه ، / وبلده غير بلده ، وقومه غير قومه ، يخبر عنه بأمور كان عليها .

وقد وجد عليه السلام أمماً ممن كانوا قبله يدعون التحقيق بهذا الرجل وهم على منهاجه وطرائقه ، فلو كان منقولاً لتهيب الاقدام على ذلك ، وكان لا يأمن ان يكون القوم الذين سبقوه في الزمان وتحققوا بهذا الرجل قد صدقوا عليه ، وانهم أتباعه كما ادعوا فلا يأمن ان يظهر كذبه ، سيما وقد ادعى الصدق والنبوة والرسالة على اهل الارض كلهم وعقله الذي لا يدفع . فانظر كيف يتعرض لعظيمات الأمور ، وجسيات الخطوب .

وحكى عن ربه عز وجل ان النصارى ليسوا على شيء مما^(١) جاء به احد من الانبياء ، فقال : « واسأل من ارسلنا من قبلك من رُسُلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون »^(٢) فأقدم على أشياء قد تدبر بها العقلاء وجبايرة الملوك قبله وفيه فضائحهم وهتكهم ، فيؤخذ الأمر كما قال ، فلو لم يكن إلا هذا من أعلامه لكفى وشفى وأغنى .

(١) في الاصل : ما

(٢) الزخرف ٤٥

فإن قيل لكم ومن اعطاكم ان دين المسيح خلاف دين النصارى ، وأنهم قد خالفوه ؟

قلنا : من تأمل الامر وجدهم اشد الناس خلافاً عليه واطراحاً لوصاياه في الاصول والفروع جميعاً . فأما في الاصول فقد آمنوا وعبدوا ثلاثة آلهة وثلاثة أرباب كما قدمنا وتبيننا ، ولا يختلفون في ان المسيح عيسى بن مريم ليس نبياً ولا عبد صالح ، وأنه إله حق من اله حق من جوهر ابيه ، وأنه اله تام من اله تام ، وأنه خالق السماوات والارض والاولين والآخرين ورازقهم ومحييهم ومميتهم وباعثهم وحاشرهم ومحاسبهم ومثيبهم ومعاقبهم . وقد ذكرنا ما يقوله النسطورية من انه إله مركب من نوعين / وطبيعتين ، وبيننا ما يرومونه من المغالطة . فإن قالوا : فلماذا لا نفرّد واحداً^(١) من هذه الآلهة بالعبادة بل نعبدّها كلها بعبادة واحدة ، قيل له : ان هذا لا يخرجكم من ان تكونوا قد اشركتكم في القدم واشركتم في العبادة ، ولا يقدر فيا حكيمناه عنكم ، لأنه يصح ان نعبد مائة الف معبود بعبادة واحدة . وعلى انا نجدهم تفردونها وكل واحد منها بالانعام والايمان كما هو مذكور في تسبيحة الايمان وتسبيحة القربان ، وتفردونها ايضاً بالصنع والأفعال والخلق والتدبير ، كما قلتم فيما كان منها من الافعال حين عمدته يحيى بما تقدم ذكره ، وتقولون ان النازل من السماء حتى صار في بطن المرأة وصار هو وابنها بالاتحاد الذي فعله إلهاً واحداً ومسيحاً واحداً ، وأنه هو الذي اظهر الآيات في الارض ، وهو المقتول المصلوب ، وهو الذي احيا نفسه بعد الموت ، وصعد الى السماء ، وجلس عن يمين ابيه . فهذه الافعال كلها الابن فعلها لا الأب .

(١) في الاصل : واحد

فإن قالوا : كل فعل من هذه الافعال قد فعله الآلهة الثلاثة .

قيل لهم : هذا خلاف النصرانية وهو بيتن^١ فيما قدمنا وذكرنا عنهم ؛ وايضاً فان فعلاً واحداً لا يصح ان يفعله اكثر من حي واحد ، ومقدوراً واحداً لا يصح ان يقدر عليه اكثر من قادر واحد ، وهو مبين في كتب العلماء ، والنصارى لا تفهم ذلك ولا تحوجك إليه .

واعلم ان النصارى تعتقد ان الأب قد اختلع من ملكه كله وجعله لابنه ، فهو يخلق ويرزق ويحيي ويميت ، وقد سمعنا هذا من يحتج لهم ويخبر عنهم ، وهو ايضاً بين في تسبيحة / ايمانهم . ألا تسمعهم يقولون : ونؤمن بالرب الواحد يسوع المسيح ، ابن الله بكر ابيه ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق من جوهر ابيه ، الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شيء ، الى قولهم : وهو مستعد للمجيء تارة اخرى للقضاء بين الاموات والاحياء . ويقولون في عباداتهم وصلواتهم ومناجاتهم : انت ايها المسيح يسوع تحيينا ، وترزقنا ، وتخلق اولادنا ، وتقيم اجسادنا ، الى غير ذلك مما هذا سبيله ويطول ذكره ، فبيناهم يفردون كل واحد منها بفعل ، وبيناهم يقولون : ان الامر كله قد رجع الى الابن وكله شرك .

فان قيل : فما الذي عندكم عن المسيح مما يخالف هذا وما حكيتموه عن النصارى ؟

قلنا : أما في الاصول فانه قال لهم : الله ربي وربكم ، وإلهي وإلهكم ، فيشهد على نفسه انه عبد الله مريبوب مدبر مصنوع ، كما شهد عليهم انهم كذلك ، وأنه مثلهم في العبودية والضعف والحاجة ، وذكر انه رسول الله الى خلقه ، وان الله ارسله كما ارسل الانبياء قبله .

فذكر يوحنا في انجيله ان يسوع المسيح قال في دعائه : ان الحياة الدائمة انما تجب للناس بان يشهدوا انك انت الله الواحد الحق ، وانك ارسلت يسوع المسيح ^(١) ، فانظر كيف يخلص التوحيد ويدعى النبوة . وذكر يوحنا انه قال لبني اسرائيل : تريدون قتلي وانا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقول ^(٢) . وذكر ايضا انه قال : اني لم اجيء لأعمل بمشيئة نفسي ولكن بمشيئة من ارسلني ^(٣) .

وقال عليه السلام : إن الكلام الذي تسمعون مني ليس هو لي ولكن من الذي ارسلني والويل لي إن قلت شيئاً من تلقاء نفسي ^(٤) . وكان عليه السلام يواصل العبادة في الصلاة والصوم ويلتفل ويقول : ما جئت / لأخدم وإنما جئت لأخدم ، وقال : إني انا لست ادين العباد ولا احاسبهم بأعمالهم ولكن الذي ارسلني هو الذي يلي ذلك منهم ^(٥) . هذا في انجيل يوحنا .

وفيه ايضا ان المسيح قال : انهم يا رب قد علموا انك ارسلتني وقد ذكرت لهم اسمك ^(٦) ، وقال المسيح : ان الله الواحد رب كل شيء ارسل ابن

البشر الى جميع العالم لينقلوا الى الحق ^(١) . وقال ايضا : ان الاعمال التي عملتم من الشهادات لي بأن الله ارسلني الى هذا العالم . وقال ايضا : ما أبعدني ان احدثت شيئاً من قبل نفسي ، ولكنني اتكلم واجيب بما علمني ربي . وقال ايضا : ان الله مسحني وارسلني وانما اعبد الله الواحد ليوم الخلاص . وسألوه عن الساعة متى هي فقال أنا لا اعلم متى ذلك ولا احد من البشر ، ولا يعلم ذلك إلا الله وحده . وقال : ان الله عز وجل ما أكل ولا يأكل ، وما شرب ولا يشرب ، ولم يمت ولا ينام ، وما ولد ولا يلد ولا يولد ، ولا رآه احد ، ولا يراه احد الا مات . وقال له رجل : يا ايها الخير علمني ، فقال له المسيح : لا تقل لي هذا ، فانه لا خير الا الله . وقال له رجل : مر أخي يقاسمني تركة ابي ، فقال : ومن جعلني عليكم قاسماً . وقال في دعائه لما سأل ربه ان يحبي الرجل الميت الذي يقال له إيلازر ، يا إيل ^(٢) : انا اشكرك واحمدك ، انك تجيب دعائي في هذا الوقت وفي كل وقت ، فأسألك ان تحبي هذا الميت ليعلم بنو اسرائيل انك ارسلتني وانك تجيب دعائي ^(٣) . وقال في دعائه وقد خاف الموت ولم يزل / يواصل الصلاة والتضرع والدعاء والبكاء ، يا إيل : ان كان من مسرتك ان تصرف هذه الكأس المرأة عن احد فاصرفها

- (١) ورد حول هذا المعنى في انجيل يوحنا عدد من العبارات منها : « انا لا اقدر ان افعل من نفسي شيئاً ، كما اسمع أومن ، ودينوتي عادلة لأنني لا اطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي ارسلني » . يوحنا ، الاصحاح ٥ / ٣٠ . ومنها : « لأن الاعمال التي اعطاني الآب لأأكملها ، هذه الاعمال بعينها التي اعلمها هي تشهد لي ان الآب قد ارسلني ، والآب نفسه الذي ارسلني يشهد لي » . يوحنا ٥ / ٣٦ و ٣٧ .
- (٢) إيل لفظة آرامية تعني البطل ، ثم اصبح يعنى بها بطل الابطال ، ثم اصبحت تطلق بمعنى الله .
- (٣) انظر تفصيل ذلك في انجيل متى ، الاصحاح ٨ ، وانجيل يوحنا ، الاصحاح ٤

- (١) انظر انجيل يوحنا الاصحاح ١٢ فقرة ٤٤ وما بعدها ، والاصحاح ١٧ فقرة ٢ : « وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته » . وفي الاصحاح ٣ ، ٣٦ : « الذي يؤمن بالابن له حياة ابدية » .

(٢) انجيل يوحنا الاصحاح ١٨ فقرة ٣٧

(٣) المرجع السابق .

(٤) انجيل يوحنا الاصحاح ١٤ فقرة ٢٤

(٥) انجيل يوحنا الاصحاح ١٣ فقرة ٤٧ و ٤٨

(٦) انجيل يوحنا الاصحاح ١٧ فقرة ٢٥ وما بعدها

عني ، وليس كما أريد انا بل كما تريد انت . وكان يرمي من فمه كعلق الدم جزءاً من الموت ، ويعرق ويقلق ^(١) . وكان اذا ذكر البعث والقيامة والحساب يكون منه البكاء والقلق والجزع ما لا يكون من احد ، ويكون من صلاته وصيامه وعبادته وخشوعه ما لا يكون من احد من زمانه . ومثل هذا من أقواله وافعاله اكثر من ان يحصى ، وهو معهم وفي أناجيلهم ، حتى لقد احصى اهل المعرفة والعلم ، فوجدوا المسيح عليه السلام له من الاقرار على نفسه بالعبودية والضعف والحاجة والفقر والفاقة ، والله عز وجل بالغنى والربوبية ، ما لم يكادوا يجدونه لأحد من الانبياء والصالحين ، ثم تقول فيه النصارى ما قد سمعت .

فلما قالوا : فقد حكى متى عنه في انجيله انه قال لتلاميذه : سيروا في الارض وعمدوا العباد باسم الآب والابن [و] ^(٢) روح القدس . وحكوا عنه انه قال : انا كنت قبل ابراهيم ، وما شبه ذلك .

قيل له : ليس المسيح اول من كذب عليه وانتم تعلمون ان مانيّ القس يدعي التحقيق بالمسيح ، وانه من اتباعه ، وانه ليس احداً على شريعته ووصاياه الا هو واتباعه ، وان الانجيل الذي معه هو انجيله . وهو يذكر عنه انه كان يحرم على الناس كلهم وعلى نفسه النساء وذبائح الحيوان واحصل اللحمان ، وان هذا ما حلّ قط ولا يحل ، ويلعن كل من احلّه . وانه كان تبرا / من ابراهيم وموسى وهرون ويوشع وداود ، ومن كان يرى ذبح الحيوان وأذيته واكل اللحمان وغير ذلك . ويستشهد على ذلك بمواضع من الاناجيل

(١) انظر تفصيل ذلك في انجيل متى ، الاصحاح ٢٧ ، وانجيل لوقا ، الاصحاح ٢٣ ، وانجيل يوحنا ، الاصحاح ١٩ ، وانجيل مرقس ، الاصحاح ١٥ .

(٢) الوار لإضافة على الاصل يقتضيها السياق .

التي معكم ، وعندكم انه قد كذب على المسيح وافترى واخطأ فيما تأول ، وان تزكية المسيح لهؤلاء الانبياء امر ظاهر لا ينصرف عنه التأويل .

قلنا : فهذه سبيلكم في دعاويكم على المسيح وانتم في هذا اشد فضيحة من المنانية ، لأن تصديق المسيح للانبياء وشهادته بما شهدوا به من توحيد الله وإفراده بالقدم والربوبية والحكمة أبين من كل بين وأوضح من كل واضح . والعقلاء يردّون المجهول بالمعلوم ، وما التبس بما اتضح ، وما يحتمل بما لا يحتمل . وقد بلغ الجهل بالنصارى في بدعهم هذه أنهم يقصدون الى ألفاظ في التوراة وفي كتب الانبياء متحملة ، يحملونها على ظنونهم السيئة وبدعهم هذه الفاحشة ، فيقولون : انما اراد ابراهيم وموسى وهارون وسائر الانبياء وهو ما أردناه من ان الله ثالث ثلاثة ، وأن الأرباب جماعة ، وأن الله يصعد وينزل ويولد ويقتل . فيقصّدون الى ما في التوراة من أن الله قال نريد ان نخلق بشراً على صورتنا ومثلنا ^(١) . فيقولون : هذا خطاب من جماعة ، أما تسمعونه يقول : نريد ، ولم يقل : أريد ان أخلق بشراً مثلي ، لتعلموا أن الآلهة جماعة ، وأنهم على صور وهيئات كهيئات الناس ، وما أشبه هذا من الألفاظ المحتملة .

حتى تعدّوا الى القرآن فقالوا : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » ، قالوا : فهذا خطاب من جماعة لا من واحد . وقالوا في قوله عز وجل « فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ » ^(٢) قالوا فهذا أحد الآلهة والأرباب يقسم بالأرباب .

(١) جاء في التوراة في سفر التكوين ، الاصحاح الاول : « وقال الله لنعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » .

(٢) المعارج ٤٠

وقالوا في قوله عز وجل : « ووالد وما ولد » (١) قالوا : فإنما الإله يقسم بنفسه وولده . فيقولون : محمد قد جاء بالنصرانية وبمذهبنا ، ولكن اصحابه لم يفهموا عنه . ويقولون في قوله عز وجل : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » (٢) .

قالوا فهذا الذي نقوله نحن : أنه من جوهر أبيه ، ولا نريد بقولنا منه أنه بعضه ولكنه من جنسه ومثله . فيقصرون الى أقوام كإبراهيم والأنبياء صلوات الله عليهم وأمثالهم قد عرفت مذاهبهم ومقاصدهم فينصرفون عنها بالتأويلات ومحتمل الألفاظ . ومذاهبهم قد تحصلت حصلا لا يحتمل التأويل ، لأن العلم بأن المسيح كان في توحيده على منهج إبراهيم وموسى وهارون وداود ومحمد صلى الله عليهم لا يرتاب به من عرف أخبارهم وسيرهم ودعوتهم قبل العلم بنبوتهم . فاعرف هذا فإنه اصل كبير يعرفه من تأمل وأراد التبيين وقد اعتقل في مثله خلق كثير من العقلاء .

ثم هناك من الكذب على الانبياء فضلا من التأويل لما في كتبهم ، كقولهم ان الانبياء قالوا قبل مجيء المسيح : ان الله سيجيء وتحبل به امرأة عذراء ، ويؤخذ ويصلب ويقتل ويموت ويدفن . هذا مما هو اكثر من ان يحصى .

ويقال للنصارى لا فرق بين من ادعى على المسيح انه ادعى الربوبية وأن الله ولده وأنه ابنه على ما تعتقدون وتدعون ، وبين من ادعى انه هو وضع تسبيحة الايمان وتسبيحة القربان ، وأنه اتخذ البيعة ، وجعل عيده يوم الاحد ، وأخذ الناس في زمانه بأن يقولوا : يسوع المسيح إله حق من إله حق من جوهر ابيه ، وأنه كان يأخذهم بأن يقسموا بعباد يسوع وعباد المسيح ، وأنه

(١) البلد ٣

(٢) النساء ١٧١

أحل الخنزير وأكله ، وصلى الى المشرق ، وعطل الختان / والوضوء والطهارة وغسل الجنابة ، وأخذ اصحابه بصيام الحسين ، وشرع ذلك ودعا اليه ، ومن بلغ هذا فقد تناسى في المكابرة والمجاهدة ، اللهم إلا ان لا يكون يعرف اخبار المسيح والنصارى في زمانه ، والنصارى بعد موته ومضيه ، ولا عني بذلك . فسبيل من ادعى عليه ما يدعي عليه هذه النصارى وما تحكيه عنه وتتأوله عليه ، كسبيل من ادعى عليه الامور التي قدمنا ذكرها .

وفي النصارى قوم استبصروا وأسلموا وتبعوا الموضع والألفاظ التي تدعيها النصارى على المسيح ، وقالوا لهم : ما نعلم المسيح قال ذلك ، ولو قاله لما ضاق مجازه وتأويله ، كقولهم انه قال : ابن البشر رب السبت ، وأني قبل إبراهيم وأنتى بأبي وأبى بي ، وما اشبه ذلك . فقالوا لهم : في التوراة ان موسى إله فرعون وإله هرون ، وأن هرون رسول موسى الى فرعون ، وأن يوسف قال للمصريين : ان العزيز ربهم . وذكروا لهم عن إبراهيم ولوط وداود وسليمان وعن غيرهم من الانبياء شيئا كثيرا ، ولا حاجة بك الى ذكره ومعرفته ، ولو عرفته لم يكن به بأس ، ولكن ارجع ابدأ الى اصل الدعوة والنحلة ، والمعروف من قول النبي ، ورد الجهول بالمعلوم ، وقد استغنيت عن التأويل كما تقدم لك .

ومثل هذا ما يدعيه المنجمون على رسول الله ﷺ انه كان يذهب الى ما يذهبون ، لأنه قال في كتابه : « فنظر نظرة في النجوم فقال : اني سقيم » (١) وأنه قال : « في يوم نحس مستمر » (٢) و « في ايام نحسات » (٣) ،

(١) الصفات ٨٨

(٢) القمر ١٩

(٣) فصلت ١٦

وغير ذلك . فقال لهم اهل العلم : قبل كل شيء قد عرفنا من / دعوة هذا الرجل وقصده قبل المعرفة بنبوته أن ما يكون في غد لا يعلمه ملك معرب ولا نبي مرسل ، ولا يعلمه إلا الواحد المنفرد بالقدم ، فلا وجه للتعليق عليه بظواهر الألفاظ والتأويل ، هذا لا يفعله عاقل ولا يذهب الغلط فيه على محصل ، وإنما يخادع بهذا اهل الغفلة .

وكذا قالوا الباطنية ومن سلك سبيلهم : في ان باطن الصلوات أشخاص وكذا العبادات ، وأن لكل ظاهر باطناً ، غير ما عليه الفقهاء والعامة . فقالوا لهم : ادعيت أنكم من المسلمين وقد علمنا من دعوة هذا النبي ﷺ قبل العلم بنبوته ان ما حرّمه من الزنى والتواط والربا والخمر والخنزير والامهات والبنات والأخوات وغير ذلك محرم على كل عاقل بلغته دعوته كائنًا من كان ، وأنه على ما عليه الفقهاء والعامة ، وأنه لا تأويل لذلك ولا باطن ، وأن جميع ما اوجبه من الطهارات والصلوات والصيام والعبادات لا تسقط عن عاقل كائنًا من كان على ما عليه الفقهاء والعامة لا تأويل لذلك ولا باطن ، وإن من قال : لهذه الأشياء باطن أو تأويل ، فقد كفر وأشرك وخرج من الاسلام خروجاً ظاهراً .

ولا حاجة بنا الى ان نبين لكم تأويل الآيات التي سألتكم عنها ، فقد علمنا من قصده ﷺ ان مراده في ذلك غير مرادكم ، وقصده غير قصدكم . مثل هذا قالوا لمن قال من هشام بن الحكم ^(١) واتباعه حين قالوا : إن الله لا يعلم ما يكون قبل ان يكون ، لأنه قال : « ولنبأونكم حق نعم المجاهدين منكم

(١) هشام بن الحكم (١٩٠ هـ) كان شيخ الامامية في عصره ، ولد بالكوفة وسكن بغداد وانقطع الى يحيى بن خالد البرمكي . له مؤلفات كثيرة . انظر : منهج المقال ٣٥٩ . لسان الميزان ٦ : ١٩٤ .

والصابرين ^(٢) » وأنه / يفعل الجور والظلم . ولمن قالوا : يأمر بالفسق لقوله : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ^(٣) » فاعرف هذا فانه اصل كبير . ثم رجعنا الى قولنا في النصارى .

فان قيل : كل هذا [الذي] ^(٤) حكيتموه عن المسيح موجود في الكتب التي مع النصارى ، فكيف جعلتم ما حكاه نبيكم عن المسيح وعنهم من معجزاته وآياته ؟ قلنا : قد فرغنا من هذا غير مرة وبيننا ان هذا النبي ﷺ ما قرأ الكتب ولا قرئت عليه ، ولا اختلف الى اهلها ولا اختلفوا اليه ، ولا عرف ذلك إلا بوحي ، وان كان موجود في كتبهم . كما انه لم يعرف قصة نوح وابراهيم ويوسف وموسى وهرون إلا بالوحي ، وأن كانت مذكورة في كتبهم .

فإن قيل : لعمري إن من عرف دعوة المسيح يعلم ان دعوته الى توحيد الله كدعوة موسى وهرون وعحمد وأمثالهم من الأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين ، وأنه بريء من دعوة هذه الطوائف من النصارى كبرائته من دعوة المنانية ، وكبرامة محمد وموسى وهرون من ذلك اجمع . ولكن قد جاء عنه انه كان يقول في الله [أنه] ^(٥) ابوه ، فيقول : ارسلني ابي ، وقال لي ابي ، ومثل هذا كثير ، فما عندكم فيه ؟

قيل له : إن كان قد قال هذا فلا حجة للنصارى فيه ، لأنهم قد قالوا إنه قال لنا : أنا أذهب الى ابي وأبيكم ، وربي وربكم فلم يجعل لنفسه مزية عليهم ، فإن وجب ان يكون هذا القول إلهاً ورباً ومعبوداً ، وجب ان

(١) محمد ٣١

(٢) الاسراء ١٦

(٣ و ٤) إضافة على الاصل يقتضيها السياق .

يكونوا هم كذلك ، وقد قال بعض الناس : إن / الابن في اللغة العبرانية التي هي لغة المسيح تقع على العبد الصالح المطيع الولي المخلص ، وإن الأب قد تقع على السيد المالك المدبر ؟ قالوا : وقد قال في التوراة : إن اسرائيل ابني وبكري وأولاده ابنائي ؛ وعلى دعوى النصارى تجب لهم الإلهية وقد قال ايشعيا النبي عليه السلام في كتابه : إن الله ابو جميع العالم ، وانتم معشر النصارى تذكرون ان متى حكى في انجيله عن المسيح انه قال : طوبى لكم معشر المصلحين بين الناس فإنكم تسمون أبناء الله . وقال متى في انجيله : ان المسيح قال للناس : ان اباكم السماوي واحد فرد . وقالوا : ان المسيح كان يقول في صلاته التي كان يصليها ويعلمها الناس : قولوا يا ابانا الذي في السماء انت قدوس اسمك ، عزيز سلطانك ، نافذ امرك في السماوات والأرض ، لا يعجزك ما طلبت ، ولا يمتنع منك ما أردت ، فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا ولا تعذبنا بالنار ^(١) . فينبغي على قول النصارى ان تكون هؤلاء كلها آلهة وأرباباً ، لتعلم ان اسم الأب يقع في تلك اللغة على السيد والمالك .

وقال المسيح لبني اسرائيل : لو كنتم أبناء ابراهيم لأجبتوني فاني ابن ابراهيم . وقد علمنا ان بني اسرائيل كلهم اولاد ابراهيم ، وإنما اراد انكم لو كنتم اولياء ابراهيم .

وايضاً فان النصارى تذكر عن بولص انه ذكر في الرسالة فقال بأن الروح نفسها تشهد لأرواحنا انا أبناء الله . وهم يقولون في الاصرار : انهم / أبناء الشياطين ومثل هذا كثير في لغتهم ، واستعمالهم في الابن بمعنى الولي المخلص ، وفي الأب بمعنى السيد المالك الرفيع ، ولهذا تقول النصارى في الجاثليق ابونا ،

(١) انظر نص الصلاة في انجيل متى ، الاصحاح ٦ ، الفقرات من ٩ - ١٤ .

فهذا كله في استعمالهم . ولكنهم لما اعتقدوا في الله عز وجل انه رجل وانسان وشخص وما هذه سبيله لم يرضوا ^(١) ان يجعلوا له أبناء إلا بالحقيقة من طريق الولادة ^(٢) والتناسل كما تقدم بيان ذلك لك . وهم يقولون : ان الله الأب قال لابنه يسوع المسيح اني ولدتك قبل ان اخلق كوكب الصبح . وليس في هذه الطوائف الثلاث من النصارى من يقول : إن المسيح ابن الله على طريق التشريف والمجاز ، بل هو إله تام من إله بام ، واله حق من الاله حق ، من جوهر ابيه . فاعرف هذا .

بَاب آخِر

من هذا الجنس ، وهو ان هذه النصارى واليهود جميعاً يدعون فيلاطس الرومي ملك الروم اخذ المسيح يتظلم اليهود منه وسلمه اليهم ، فحملوه على حمار وجعلوا وجهه الى عجز الحمار وجعلوا على رأسه اكليل شوك ، وطوفوا به تنكيلاً . وانهم كانوا يفقدونه ^(٣) من ورائه ويأتونه من تلقاء وجهه فيقولون له : يا ملك بني اسرائيل من صنع هذا بك ؟ سخريه منه ^(٤) . وانه لما ناله من الكد والشقاء عطش واستجدي وقال لهم : اسقوني ماء ، فأخذوا الشجر المر واعتصروه وجعلوا الخل في ذلك العصير وأعطوه ، فأخذه / وهو

(١) عبارة لم يرضوا مكررة في الاصل .

(٢) في الاصل : الولاد .

(٣) فقد : صفعه على قفاه بباطن كفه . انظر القاموس المحيط .

(٤) جاء في انجيل متى ، الاصحاح ٢٧ : «فأخذ عسكر الرائي يسوع الى دار الولاية وجعلوا عليه كل الكتيبة وفروه وألبسوه رداء قرمزياً وصنعوا اكليلاً من شوك ووضعه على رأسه وقصبته في يمينه وكانوا يحشون قدميه ويستبزون به قائلين : السلام يا ملك اليهود وبصقوا عليه وأخذوا القصبه وضربوه على رأسه » . وانظر ما يماثل هذا الصدد في انجيل مرقس الاصحاح ١٥ وانجيل يوحنا الاصحاح ١٩ .

يظنه ماء فغلب فيه فلما وجد مرارته بجه فسمطوه به وعذبوه يومه وليلته^(١). فلما كان من الغد وهو يوم الجمعة الذي يسمونه جمعة جشا سألوا فيلاطس ضربه بالسوط فضربه ، ثم اخذوه وصلبوه وطعنوه بالرماح وما زال يصيح وهو مصلوب على خشبة يا إلهي لم خذلتني يا إلهي لم تركتني ، الى ان مات ونزلوا به ودفنوه^(٢). وادعى اليهود والنصارى العلم بذلك والمعينة والمساعدة ، وانهم قد تلقوا ذلك الجمهور^(٣) عن الجمهور ، والامم عن الامم ، وصار النصارى خاصة يسخرون من المسلمين اذا قالوا ما كان هذا من شيء ، ويقولون : أي فائدة لصاحبكم في مكابرة الأمم المجمعمة على ذلك ، وقد سبقوه وكانوا قبله ، وهم اهل هذا الرجل واصحابه ، وبينهم ولد ، ومعهم نشأ ، وقد أجمع على ذلك عدوه من اليهود ووليه من النصارى ، فأنكر نبيكم . وهل هذا إلا كما قيل : رضي الخصمان وأبى القاضي . فنظر اهل العلم في قوله ﷺ ، فاذا هو قد اخبر انهم قد قالوا ذلك وهم لا يعلمونه ، وما معهم علم به ولكنه ظن يظنونهم ، فاذا الامر كما قال وكما اخبر ، والعلم بأن الاعتقاد هو علم او جهل او ظن لا يعلمه إلا من قد صحب المتكلمين والنظارين وانقطع الى صنعة الكلام ومهر فيها وكده ، وهذا رجل متكلف ، فيعلم انه ما علم هذا إلا بالوحي من قبل الله وهذا من آياته العجيبة .

(١) جاء في انجيل يوحنا الاصحاح ١٩ : « فليكن يتم الكتاب قال : انا عطشان ، وكان انا مملوءاً خلا فجاءوا بسفينة من الخل ووضعوها على زوقا وقدموها الى فمه » .

(٢) جاء في انجيل متى ، الاصحاح ٢٧ : « نحو التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : ايلي ايلي لما شبعتي ، اي إلهي إلهي لماذا تركتني » . وفي انجيل مرقس الاصحاح ١٥ : « صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : الوي الوي لما شبعتي ، الذي تفسره إلهي إلهي لماذا تركتني » .

(٣) في الاصل : عن الجمهور

وتأمل الى إقدامه / على أمتين عظيمتين من اهل التحصيل والعقل ، قد أجمعوا على امر وسبقوه في الزمان ، وهو اشد الناس حرصاً على نالهم وإجابتهم واستألتهم ، فأكذبهم وردهم ، ولو كان متقولاً لتهيب ولم يقدم على ذلك خوفاً من ان يكون الامر كما قالوا وكما ادعوا فيبين كذبه ويرجم عنه من قد تبعه ، لأن الانبياء يجوز ان يقتلوا ويصلبوا ، بل قد قتل قوم منهم . وأيضاً ، فليس في قتل المسيح طعن عليه ولا قدح في امره ، وما به حاجة الى مخالفتهم في ذلك ، بل قد كان ينبغي ان يكون الى تصديقهم في ذلك أحوج ، ليكون تشنيعه على النصارى اقوى ، لأنهم قد اعتقدوا فيه انه إله ورب وقد رأوه أسيراً مقهوراً في يد عدوه ومصلوباً ومقتولاً ، ويزيد شناعته على اليهود لأنهم قد قتلوا نبياً آخر مضافاً الى غيره من الانبياء الذين قد قتلوهم قبل المسيح . فتجنب ﷺ هذا كله مع الحاجة اليه ، وقال : قد ادعوا أنهم قد علموا ذلك وليسوا به عالمين ولا متفقيين ، وما معهم فيه الا الظن فقال : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه له . وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه » ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقيناً ،^(١) أي ليس ثم يقين ولا سكون نفس ، تقول العرب في الخبر المتيقن قتلته علماً وقتلته يقيناً . ثم قال : « بل رفعه الله إليه » أي صانه وعظمه ان تناله يد عدوه بالقتل والصلب ، لأن الظن قد يصدق ثارة ، وقد تجتمع الجماعة الكبيرة فتصدق الخبر الواحد من طريق حسن الظن بخبره ، ويكون قد صدق فيما أخبر ، فيكونوا صادقين وإن لم يعلموا صدقه ، وان ظنوا ان اعتقادهم لذلك علم . فانظر الى ذلك كيف بيته من كل وجه .

(١) النساء ١٥٧

فإن قيل : ومن ابن لكم ان الجماعات من اسلافهم ما شاهدوا ذلك ولا عاينوه كما ادّعوا ؟ قيل له : من تأمل علم بعقله ان الامر كما قال ﷺ لا كما قالوا ، لأن تلك الجماعات لو قد كانت شاهدت ذلك وعلمته لكان من لقيهم وسمع منهم في مثل حالهم في العلم بذلك ، فكان يكون كل من لقي النصارى واليهود وسمع ذلك منهم عالماً بذلك ، فكنا نكون في مثل حالهم في العلم بذلك . ألا ترى أنا لما اخبرناهم بقتل حزة وجعفر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم شاركونا في العلم بذلك وصارت حالهم في ذلك مثل حالنا ، فلما رجعنا الى انفسنا فلم نجدنا عالمين مع مخالطتنا لهم وكثرة سماعنا منهم ، علمنا انهم ليسوا بذلك عالمين ، وأن اعتقادهم لذلك ليس بعلم . فهذا الدليل علمنا صحة دعواه ﷺ وكذب دعواهم في انهم بذلك عالمين .

وهذا الاعتبار تعلم رحمة الله بطلان دعوى من ادّعى من اليهود ان موسى صلى الله عليه شافه اسلافه الذين كانوا معه وهم ستائة ألف رجل شاب سوى / المشيخة والنساء بأن شريعته مؤيدة الى أن تقوم الساعة ، وأنه لا يحل تغير شيء منها البتة وأن من ادّعى خلاف ذلك فقد كذب وكفر . وادعت اليهود انهم بذلك عالمون ، فقلنا : لو كنتم بذلك عالمين ، وكان اعتقادكم لذلك علماً ، وقد حججكم من لقيتم من اسلافكم لكنتم حجة على اهل زمانكم ، وكان يعلم ذلك بقولكم واخباركم كل من شرح ذلك منكم ، فلما كنا بذلك غير عالمين فإن اعتقادكم لذلك ليس بعلم . ألا ترى أننا وكل من يسمع منكم يعلم ان موسى عليه السلام كان يدّعي انه رسول الله ، وأن الله اصطفاه وأرسله ، وأنه صلى الله عليه كان يحرم الأمهات والبنات والأخوات والميتة والخنزير وذبائح الوثنيين ، الى غير ذلك مما حرمه ، وأنه كان يقيم السبت . فلو كان ما ادّعيتم من تأييد شريعته لكان علمنا به كعلمنا بما قدمنا ، بل

كان يكون اقوى من العلم بذلك ، فلما لم يكن كذلك علمنا وتيقنا ان موسى عليه السلام ما قال ذلك ولا دعا اليه ولا فرضه وأن الامر لم يجر المجرى الذي ادّعيتموه .

يزيدك وضوحاً لذلك ان رسول الله ﷺ لما عهد ان شريعته مزيدة علم ذلك كل من سمع الاخبار بمن صدقه او كذبه ، فلو كان الامر كما ادّعوا لعلمنا ذلك بأخبارهم كما علموا ذلك من شأن نبينا بإخبارنا اياهم وبسماعهم ذلك منا .

وهذا اصل كبير سبيلك ان تعنى به وتكبر مراعاتك له ، فبه تعلم / ايضاً بطلان دعاوى النصارى في ادّعائهم قيام المسيح من قبره ، وأنه عليه السلام أقام معهم بعد قيامه من قبره اربعين يوماً ثم صعد الى السماء وهم يرونه . وهم يؤكدون هذا الكذب بأن يجعلوا له عيداً في يوم بعينه .

وبمثل ذلك تعلم بطلان دعواهم ان الحشبة التي صلب عليها المسيح وضعت على ميت فاذا هو حي يسعى ، وأن هذا كان بيت المقدس جهاراً في يوم شهدته النصارى واليهود والروم وأمم لم يحصها إلا الله لكثرتها . ولهذا نظائر من دعواهم .

وبه تعرف بطلان دعاوى المجوس لزرادشت المعجزات .

وبمثل هذا تعلم بطلان دعاوى الرافضة ان النبي ﷺ استخلف امير المؤمنين علياً على امته ، وفرض طاعته عليهم أجمعين من الأحرار والعبيد والرجال والنساء وجعله حجة عليهم . وادّعوا انهم قد علموا ذلك بإخبار جماعات اخبروهم بذلك ، وأن اعتقادهم بذلك علم . فقلنا : لو كنتم بذلك عالمين وكان اعتقادكم لذلك علماً ، لساويناكم في العلم بذلك لكثرة سماعنا

منكم والخوض معكم فيه ، فلما لم يكن كذلك ، علمنا وتيقنا ان ذلك امر لا أصل له .

والعلم ببطلان دعاوى الرافضة في ذلك أقوى واظهر والادلة عليه أكثر ، لقرب عهده وكثرة الخوض فيه ، ولأن الذي ادعى ذلك لم يكن يدعيه ولا يذهب اليه ، ولأمور كثيرة . والادلة على ذلك أكثر من الأدلة على / غيره .

والرافضة تسأل في ذلك عما تسأل عنه اليهود والنصارى والمجوس في الطعن على رسول الله ﷺ وفي نبوته . فيقولون لما اعتقدتم صدق محمد ونبوته فقال لكم : ان المسيح لم يصلب وان موسى لم يقل ان شريعته مؤبدة وصار إقراركم بذلك ناقضاً لقولكم ومفسداً لدينكم ، ومبطلاً لأصولكم [ذهبتم عنه^(١)] ولم تعترفوا به .

قيل لهم : قد عرفناكم انا انما عرفنا بطلان هذه الدعاوى بذلك الاستدلال والاعتبار الذي قدمنا وشرحنا قبل العلم بنبوته ﷺ وقبل المصير الى قوله وقول اصحابه ، حتى لو استدلت الملهدة كما استدلتنا لعلمت من ذلك ما علمنا ، وحتى لو لم يبعثه الله تبارك وتعالى حتى يعتبر معتبر ويستدل مستدل لعلم بطلان هذه الدعاوى كلها لأننا وجدنا أمماً امثالنا وفي زماننا يدعون اموراً وعموداً قد كانت في العصور الخالية التي قد سبقتنا ادعوا العلم بها ، فرجعنا الى عقولنا واختبرنا فدلّت العقول على ان اعتقادهم لذلك ليس بعلم ، وان خبرهم بذلك ليس بصدق ، وانه لم يكن هناك شيء مما ادعوه ينقل اليهم ، وانما هم قوم شبه لهم فاعتقدوا اموراً تموهت عليهم فسموا اعتقادهم علماً وخبرهم نقلاً .

(١) الكفتان مكررتان في الاصل

وايضاً ، فلو كنا انما نعرف بذلك خوف الفضيحة في بطلان ديننا ففقد كان يلزم ان نكون بذلك عالمين وان لم نعرف ، كما يعلم اللص انه سرق وان لم يعترف خوف الفضيحة / .

وايضاً فان كان الناس قد علموا أننا قد علمنا فوجدنا وكابرنا فقد تعجلنا اللطيفة وعلم الناس جميعاً ببهتنا ومكابرتنا فما سلمنا من الفضيحة المعجلة ، وهذا لا يذهب فساداً على عاقل نظر وتدبر .

فان قالوا : فأنتم بذلك عالمون وان لم تعترفوا ، قيل لهم : إنا إذا رجعنا الى انفسنا علمنا كذبكم على ضمائرنا ، وكفى بذلك علماً لنا بكذبكم علينا وبهشكم لنا ، فانا لا نعلم ذلك بل لا نعتقد ، فضلاً ان نعلمه . بل نعتقد ونعلم ببطلان ذلك ، كما نعلم ان للعالم صناعاً وانه واحد وان محمداً ﷺ رسوله الى خلقه .

وايضاً ، فان الجماعات الكبيرة لا تجوز ان تكتم ما قد رآته وسمعته وان ضررها ذلك وان ساءها ، كما لم تجوز ان تقتل ما لم يكن فتقوله : قد كان ورأيها وسمعنا وان كان ما رأت ولا سمعت وان سرها ذلك ونفعها ، وهذا في الكتان أقوى واظهر واين ، لأن الكتان اثقل ، والصبر عليه اشد ، والحفظ له اصعب ، والناس الى القول اسرع ، وهم عليه اخف ، ولهم فيه ارج واسترواح ، وعلتهم في الكتان كالكرب والألم ، فيستريحون باذاعته ينهلجون بالقلات ، حتى انهم ليتحدثون بما فيه زوال نعمهم وسفك دماهم ، حتى لقد ادعينا^(١) ان ينكتم ما بين السلطان ووزيره وامثال ذلك ممن يجوز عليهم الكتان ، فان الكتان قد يجوز على الواحد والاثنين والنفر

(١) كلمة مطبوعة بالمداد ، والقراءة اجتهادية

اليسير. وكذا الافتعال وان كان الافتعال امكن من الكتان. ولهذا/ يتواصى العقلاء بالصمت والكتان ما لا يتواصون بالقول، ويحذرون منه ما لا يحذرون من القول، حتى ان الصمت والكتان لا يجوز إلا في عقلاء الرجال وفي افراد الناس، وهو فيهم أقل من القليل.

فاعرف هذا فان هؤلاء الملحدة كأبي عيسى الوراق، والحداد، وابن الراوندي، لما لم يحذوا في رسوله الله مطعنا ادعوا انه قد كانت له فضائح واكاذيب وحيل وقف عليها اصحابه واهله وكنتموا ذلك لحبهم له ولثلاثا يفتضحوا باتباع كذاب. وانما يجوز ان ينكمم ما يكون بين اثنين من النفر اليسير مدة ما ثم يظهر، فأما ما يكون بين الجماعة فانه لا ينكمم، ولا يطمع العاقل في كتانه ولا يحدث نفسه به وان ضره وان ساءه. ألا ترى ان النبي ﷺ، جاء باكفار اليهود والنصارى والمجوس، وبالبراءة منهم، وسفك دماهم، وسي ذريتهم، واستباحة اموالهم، وبأخذ الجزية من اهل عهدهم، الى غير ذلك مما شرعه من مكارهمهم، وكل ذلك قد ضرهم وساءهم وذهب برئاستهم واسقط من اقدارهم، وقد ودوا أن ذلك لم يكن قط، وان الله قد رفعه من قلوبهم ومن قلوب الخلق اجمعين، وهذا علموه حين نطق به النبي ﷺ وقاله وشرعه وهو وحيد ضعيف فقير، وهم قد نقلوا ذلك وأذاعوه ونشروه وتحذثوا به مع ما عليهم فيه، والدولة والعز والغلبة إذ ذاك لهم لا له.

وهذا حال امير المؤمنين مع معاوية وبني امية فإنهم قد كرهوا عقد أهل

المدينة له بعد عثمان، وكرهوا ما دعا إليه من تضليلهم، وما / فرضه من مجاهدتهم وقتالهم وما بيته من نقضهم وتسفيهم، وودوا ان ذلك لم يكن، وما طمعوا في كتان شيء من ذلك ولا فيما كان له من الفضائل، وانه صلى الله عليه من البدرين والسابقين، ومن الفقهاء والزهاد والاولياء، ومن المشرة ومن اهل الشجرة ومن اهل الشورى، وقد ساءهم كل هذا فما أمكنهم مع الملك والدولة ان يدفعوه عن شيء منه مع محبتهم لدفعه عنهم ومع كراحتهم لكونه، ولا ان يدخلوا معاوية وهو سيدهم ورئيسهم في المهاجرين ولا في الانصار، وقد ودوا ان ذلك قد كان، ولا أمكنهم ان يخرجوه من ان يكون من الطلقاء وأبناء الطلقاء.

وانظر الى الشعراء الذين هجوا رسول الله ﷺ من قريش ومن غيرهم، ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة، كالحداد، وأبي عيسى الوراق، وابن الراوندي، والحصري، وآمالهم في الطعن في الربوبية وشم الانبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم، فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الاسلام وسلطانه والمسلمون اكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز، والذين وضعوا هذه الكتب أذل ما كانوا، وانما كان الواحد بعد الواحد من هؤلاء يضع كتابه خفياً وهو خائف يترقب، وإلهي ذلك عن اهل وولده، ولا يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد ممن هو في مثل حاله في الخوف والذل والقهر، ثم ينتشر ذلك في ادنى مدة ويظهر في سباع في اسواق المسلمين، ويعرفه خاصتهم وعامتهم، ويتحدثون به ويقلولونه ويذكرونه وقد غشهم ذلك وساءهم، وودوا ان ذلك لم يكن. وكذا ما كان / بالبحرين من ابي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي^(١) وولده،

(١) كبير الدرامطة ومعلن مذهبه، كان دقاقاً من أهل جنابة بفارس ثم انتقل الى البحرين =

وما كان من ابي القاسم الحسن بن الفرخ بن حوشب بن زاذان النجار الكوفي
يحيال لاعة وعدن لاعة من ارض اليمن ، وما كان من ابي الحسين محمد بن
الفضل ^(١) يحيشان والجند والمذيخرة من ارض اليمن ، وما كان لعبيد المتسمي
بعبيد الله المهدي ^(٢) بأرض المغرب ، وما كان بمن بعده من هذه الطوائف
فإنهم كلهم لما تمكنوا وقد كانوا في اول امرهم يتسترون بالتشيع ، فلما
ظهروا وصاروا في جماعات وعساكر أغاروا على من جاورهم وقرب منهم ،
فقتلوا الانبياء واستنجموا بالمصاحف ، وسبوا المسلمات والعلويات ، وغزوا
مكة . وكان غزو مكة لقرامطة البحرين خاصة من ولد ابي سعيد ، وغدروا
بالحجاج بعد ان امنوهم ، ولهم في قصد الاسلام ومكاره المسلمين ما هو معلوم
ومكتوب . وكل ذلك مما قد ضرّ المسلمين وكرهوه ، وودوا ان ذلك لم يكن ،
ثم هم يذكرون ذلك ويتقوّلونه ويدونونه ، فتعلم ان الدول والممالك والقهر
والغلبة لا تغطّي على الامور التي قد كانت ووقعت ، وأن العقلاء لا يحدثون
انفسهم بكتّان معايبهم التي قد كانت وتحصلت وعلم بها الناس مرة واحدة ،
ولا يحدثون انفسهم بكتّان مناقب اعدائهم وإن ساءم وغمهم .

= تاجراً ، وجعل يدعو الى مغلته ، ظفر على عدة جيوش للخلفاء العباسيين ثم صالحه المقتدر .
استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين . قتله خادم له صقاي سنة ٣٠١ هـ .
مرآة الجنان ٢ : ٢٣٨ والاعلام ٢ : ١٩٩ .

(١) انظر كيفية اتصال احمد بن عبد الله القداح بمحمد بن الفضل هذا وتأثيره عليه وجلبه
لصفه في الكامل لابن الاثير حوادث سنة ٢٩٦ .

(٢) هو عبيد الله بن محمد الملقب بالمهدي ، مؤسس دولة العلويين في المغرب وجدّ الفاطميين في
مصر ، في نسبه خلاف كثير . ولد بسفينة ، وكانت دعاة ابيه قد مهدوا له الامر بالمغرب ،
يوسع بالقيروان سنة ٢٩٧ و توفي سنة ٣٢٢ هـ . ابن الاثير الجزء الثامن حوادث سنة ٢٩٦
وما بعدها .

يزيدك علماً بذلك ان للفرس والروم والهند محاسن ومناقب لا يسترها
أعداؤهم من المسلمين ولا يكتُمونها وإن ساءتهم ، وكذا ما للمسلمين والعرب
من المحاسن والمناقب لا يدفعها أعداؤهم من هذه الامم ، وللملوك بني امية
مساويء وهفوات كانت مذكورة متداولة في ايامهم وفي سلطانهم ، وكذا
للملوك / بني العباس ، وللملوك بني امية محاسن لا يدفعها اعداؤهم من ملوك بني
العباس .

فاعرف هذا الباب وأطل فكرك فيه لتعرف غلط الملحدة ، وتعرف
بطلان دعاوى الشيعة ان الصدر الاول من المسلمين غيروا النصوص والقرآن ،
فبدّلوا ووضعوا ما لم يكن ، ونسبوه الى النبي ﷺ ، وأخذوا عنهم التابعون ،
وصار فيمن بعدهم من العلماء وطبقات المتكلمين والفقهاء فظنوه ديناً وليس
كذلك . وأن هذه الحيلة قد تمت على المعتزلة والفقهاء وعلى اصحاب الحديث
والمرجئة والخوارج ، وخفي عليهم موضع الحيلة في ذلك ، وأن سلطان ابي
بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم غطّى ذلك ومنع من ذكره ، وأنت عليّ
ابن ابي طالب رضي الله عنه لما ملك سلك سبيل الخلفاء وقبلة وما امكنه
إظهار تضليلهم الى ان خرج من الدنيا ، لأن اعوانه وجنوده كانوا شيعة ابي
بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فلو أومى الى تضليلهم لقتلوه وأبادوه ،
فالخجة في بطلان دعاويهم هذه كالخجة على الملحدة وجميع اعداء رسول الله
ﷺ . على ان هذا الطعن على السلف انما وضعه لهم الملحدة الذين قدمنا
ذكرهم فلكلهم كتب في نصرة دعاوى الرافضة على المهاجرين والانصار ،
وهم خدعواهم ولقنواهم هذه المطاعن لفرط عداوتهم لرسول الله ﷺ ،
فتمت حيلتهم عليهم وهم لا يشعرون . على انهم لا ينفصلون عن مطاعن
الملحدة على رسول الله ﷺ ما أقاموا على بدعهم هذه ، والخجة عليهم اكثر

منها على كل مبتدع ، كما ان الحجة على الشيع اكثر من هذا .

ثم عدت الى اليهود والنصارى فيما ادعوه من الصلب وغيره مما [قدمنا] (١) /
ف قيل لهم : إذا كان العلم بذلك قد شاع في الامم وعلمه العقلاء الذين سمعوا به
[لكان] (٢) محمد ﷺ ومن كان في زمانه من الامم [الذين] (٣) صدقوه
واعتقدوا نبوته قد علموا ذلك لا محالة فكيف ادعى ان ذلك لم يكن ، وهل
يفعل هذا عاقل كائناً من كان ، فكيف بعقل يدعى النبوة والصدق ويريد
من الامم كلها تصديقه واتباعه وهو اشد الناس حرصاً على اجابته . وكيف
اتبعته تلك الجماعات من قريش والأوس والخزرج واليهود والنصارى مع
كثرته في جزيرة العرب ، وهم يسمعون يكذب ويبهت وهو يعلم انهم يعلمون
انه قد كذب في ذلك ، وهذا لا يكون مثله ولا يقع من العقلاء . ومن تدبر
الأمر يعلم جهل من ادعى علم اليهود والنصارى بما قدمنا بأدنى تأمل ، وكيف
لم يحج في هذا قول معه فيقول له اعداؤه من قريش وغيرهم : ادعيت الصدق
والنبوة ثم كذبت الكذب الظاهر وبهت الأمم البهت المكسوف ، فقلت :
المسيح لم يقتل ولم يصلب ، وهذه الامم كلها تعلم ذلك علماً لا يرتاب به كما
تعلم ان موسى وعيسى كانا في الدنيا ، ومن كانت هذه سبيله لم يصدق عاقل
ولم يكن له رئاسة ، وكيف لم يقولوا لمن اتبعه : يا هؤلاء ، اكفرتم آباءكم ،
وضلتم اسلافكم ، وانفقتم اموالكم ، وعاديتكم ملوك الارض وجبايرتها وجميع
الامم ، وسفكتم دماءكم في طاعة كذاب قد عرفتم كذبه وبهته .

وقد قيل لبعض مجادلي اليهود ونظارهم من قد قرأ الكتب ، واكثر
الاختلاف الى العلماء وكتب كتبهم ، وادعى انه يتقدم على / علمائهم من اهل

(١ و ٢ و ٣) زيادة مني يقتضيها السياق وإلا كانت العبارة ملتوية

عصره : أليس انما يعرف الاخبار من تأخر عن تقدم ؟ فقال : بلى ، قالوا
له : أليس اليهود الذين كانوا مع محمد ﷺ وفي زمانه قد علموا ان موسى قد
قال إن شريعته مؤبدة ؟ فقال بلى : ف قيل له : فلم لم يقولوا لمحمد انت قد
زكيت موسى وصدقته ووثقته وهو قد قال ووصى بأن شريعته مؤبدة ؟
وفي هذا كفاية في كذبك وبطلان قولك ، وهذا امر ظاهر بين يستدركه
رعن النساء فضلاً عن عقلاء الرجال ، فأين كانوا عنه وقد خرجوا معه وفي
عداوته الى شذائد الأمور ، من شتمه وهجوه والغدر به ومساعدة قريش في
محاربتة وبذل الاموال والمهج في مكارهه ؟ فقال : قد قالوا ذلك له وأقاموا
الحجة به عليه ، ف قيل له : من اين لك العلم بهذه الدعوى ؟ فقال : قد علمت
ذلك ، ف قيل له : فلم لم يعلمه خصومك كما علمته ؟ فقال : بحجته الاسماع ،
ف قيل له : ما تريد على الدعاوى : فإنك ادعيت ان ذلك قد كان ، ف قيل لك
من اين لك العلم به ولم لا علمه خصومك ؟ فادعيت ان الاسماع بحجته ،
فانتقلت من الدعوى الى دعوى ، وقرنت الدعوى بدعوى ، ولا فرق بين
دعواك هذه وبين دعوى من ادعى ان اليهود حين قالوا هذا له أحيا الله
موسى وهرون وأظهر على ايديهما الآيات والمعجزات فكاشفاً محمداً وشافها
وأقاما الحجة عليه بمشهد من اليهود ومن اصحابه ، وان ذلك قد كان وعلم
ولكن بحجته الاسماع ، فما اتى بشيء .

واعلم ان اقوى حجج اليهود هو دعواهم ان موسى نص على ذلك ووصى
به وقد مر / لك الكلام عليه من غير وجه فما يحتاج في الرد على اليهود
اكثر منه .

فإن قيل : فأنتم قد طالبت هذه الطوائف التي ادعت هذه الدعوى
ادعت العلم بها ، فقلتم لليهود والنصارى : لو كان علمكم بالصلب لهذا الشخص

قد حصل لكم بإخبار جماعات كثيرة شاهدت ذلك لعلمنا ذلك بخبركم وبسماعنا منكم كما علمتم بإخبارنا لكم قتل جعفر وحزة وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وقلتم : لو نص موسى النص الذي تدعونه وكنتم قد علمتم ذلك بإخبار الجماعات لكم لعلمنا ذلك بخبركم كما علمتم بإخبارنا إياكم عن نبينا ان شريعته مؤبدة . وقلتم للامامية وطبقات الرافضة : لو كان النبي نص على ما تدعون ووصى امته بذلك وفرضه عليهم ، وكان اعتقادكم لذلك علماً حصل لكم من قبل الجماعات التي اخبرتكم بذلك ، لعلمنا ذلك بإخباركم إيانا وسماعنا منكم كما علمتم وعلمنا نص عمر على اهل الشورى ، وكما علمتم وعلمنا نص اهل المدينة على الامام علي رضي الله عنه بالخلافة بعد عثمان ، وكما علمتم وعلمنا نص ابي بكر على عمر ، ونص معاوية على يزيد ، ونص عبد الملك على الوليد ، ونص المنصور على المهدي ، فلم لا علم اليهود والنصارى والرافضة ان هذه الامور لم تكن كما علمتم .

قليل له : لو كانت ، لجماعات مجيء امثالها مما ذكرناه وتحصل العلم بها لنا كحصوله في تلك الأمور، وإنما يعلم ان ذلك لم يكن بما يستدل به كما استدللنا ، ومن لم يستدل جاز ان يعتقد ان ذلك قد كان وإن لم يكن لتركه النظر والاستدلال ، ويكون اعتقاده لذلك ليس بعلم وخبره ليس بصدق وإن ظنه علماً وصدقاً .

ولسنا ندعي على هذه الطوائف انها كلها / قد علمت وكأبرت ، وهذا يكون الاصل فيه ان يخبر به الواحد والاثنان او النفر القليل ، فيقولون : أخذنا هذا عن جماعات كثيرة فيصدقهم من سمعهم وبجس الظن بهم ، وبأبي^(١) من بعد هؤلاء فيصدقهم ، ويكثر من يعتقد ذلك ، ويقول : من

(١) في الاصل : وبأبي

قبلي قد اخذ هذا عن جماعات ، فتكثر اهل هذه الدعاوى بعد ذلك ويفترون بكثرتهم .

وربما كان اصل المقالة تأويل آية من كتاب او من قول من يقتدى به فيعتقد التالي له انه نص فيقول : قد نص موسى او عيسى او محمد صلى الله عليهم على كذا في آية كذا في يوم كذا ويذكر ذلك القول . وذلك القائل ما اراد بقوله ما اراده هذا المتأول ولا قصد قصده . مثل ما اولت القرامطة في قوله تبارك وتعالى « ومن دخله كان آمناً^(١) » قالوا : فقد أخبر أن من دخل مكة يأمن من القتل والخوف ونحن نرى الناس فيه يخافون ويقتلون ، فقد ظهر كذبه ، فإنما قد قتلنا المسلمين فيه ، ولكن اتباع محمد ﷺ حير لا يعقلون^(٢) . والله تبارك وتعالى ما اراد ما ظنوا ، ولا هذا خبر وإن كان لفظه لفظ الخبر ، وإنما هو امر بأن من دخله فينبغي ان يؤمن ولا يخاف ولا يحل لأحد ان يخيفه. وهذا مثل قوله « والمطلقات يتربصن بأنفسهن والوالدات يحل لأحد ان يخيفه. وهذا مثل قوله « والمطلقات يتربصن بأنفسهن والوالدات يرضعن اولادهن^(٣) » وما اشبهه ، فإن ظاهر هذا الخبر ومعناه الامر ، أي يجب على المطلقة ان تتربص ، وعلى الوالدة ان ترضع . ولكن الباطنية يقصدون البوادي والمعجم ومن لم يشتغل بالعلم فيخدعونه بأنواع الخدائع ، ويخلفونهم على كتابان ما يسمعون ، فيفتررون بهم . وهم افسدوا من بالبحرين ، وكان ابتداء امرهم معهم التشيع ، ثم رفقوهم درجات الى ان جاؤوهم وجاهروهم / بتكذيب الانبياء ، فصار بتلك النواحي عداوة الاسلام مناكدة الى هذه الغاية .

ولا إفراط جهل هؤلاء ما تم عليهم ، وإلا ففي نص القرآن جواز القتل

(١) آل عمران ٩٧

(٢) ان القاضي كعادته يستعرض أقوال الخصوم وافترائهم مها كان فيها من إيذاء للمسلمين ليرد عليها بعد ذلك .

(٣) البقرة ٢٢٨

في المسجد الحرام . أما تسمع قوله عز وجل : « ولا تقتاتوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم قاتلوهم » (١) فأبي شأن أبين من هذا . ومثله قوله عز وجل : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كثير » (٢) وقد قتل قوم ممن آمن بالنبي ﷺ قبل الهجرة وقتل فيه منهم قبل الفتح ، وقد قتل هو ﷺ يوم الفتح فيه قوماً ، والأمر في ذلك ظاهر ، ولا يذهب مثل هذا إلا على الغاية في الغفلة . فإن كان الأمر على ما ظنه هؤلاء الجهال ، فكيف لم تقتل قريش والعرب واليهود والنصارى وأعداء رسول الله الذين كانوا معه وهم في طلب عثرة تكون له مثل ما قاله هؤلاء الجهال وأنكروا عليه ذلك .

وبما قاله هؤلاء الزنادقة أيضاً : أن محمداً قد رجع عما كان يدّعيه من اليقين في امره وأظهر الشك بقوله في كتابه : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » (٣) وقال : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (٤) .

ف قيل لهم : إن كان أفاد بهذا الذي ظننتم ، فلم لا كان أعداؤه من قريش والأعراب واليهود والنصارى انكروا ما انكركم ؟ .

وكذا نقول لمن قال : إن اصحاب محمد صلى الله عليهم وسلم ارتدوا بعده ، ف قيل له : من أين لك هذا ؟ قال من نص القرآن لأنه قال : « أفإن مات

أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) ، فيقال له : أنت أسوأ حالاً في هذا من أولئك ، لأن هذا ليس بخبر ولا ظاهره الخبر ، وإنما ظاهره الاستفهام ، والله لا يستفهم لأنه بكل شيء عليم ، وإنما المراد به التثبيت والتنبية كما قال : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » (٢) أي لا يخلدون ولا ينبغي لهم الخلود ، وكذلك أولئك لا يرتدون ولا ينبغي لهم أن يرتدوا . ولما قال بعض المبتدعة بالتشبيه ، وتأولوا النصوص قلنا لهم هذا .

وقد كثرت البدع والكذب على الانبياء بما لم يقولوه ولا أرادوه ، ويدعون المبتدعة أن لهم سلفاً أمثالهم حتى يتصلوا بالانبياء فتغرم كثرتهم وتغرم زعمائهم .

على ان النصارى لو رجعت الى أخبارها والى ما في أناجيلها الأربعة لعلمت أن المقتول المصلوب غير المسح ، اذا كانت هذه الأناجيل معولهم . لأنهم لما انتهوا الى ذكر المقتول المصلوب والصلبوت قالوا : إن اليهود (٣) قصدوا في خميس الفصح الى هيريدس صاحب فيلاطس ملك الروم ، وقالوا : هاهنا رجل منا قد أفسد أحداثنا وجرهم ولنا عليك في الشرط ان تمكننا من هذه سبيله لتنفيذ حكمتنا فيه ؛ فقال لأعوانه : اذهبوا مع هؤلاء فهاتوا خصمهم ، فخرج الأعوان مع اليهود فصاروا بباب هذا السلطان ، فأقبل اليهود على الأعوان فقالوا لهم : هل تعرفون خصمنا فقالوا : لا ، فقال اليهود

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) الانبياء ٣٤

(٣) جاء في الحاشية : « في كيفية صلب اليهود رجلاً على انه المسيح »

(١) البقرة ١٩١

(٢) البقرة ٢١٧

(٣) الاحقاف ٩

(٤) يونس ٩٤

ولا نحن نعرفه ، ولكن امشوا معنا فإننا لا نعدّم من يدلنا عليه .

فمشوا ، فلقبهم يهوذا سرخوطا وكان احد خواص المسيح وثقاته وكبار اصحابه واحد الإثني عشر ، فقال لهم : أتطلبون يسوع الناصري قالوا : نعم ، قال : فمالي عليكم إن انا دلتكم عليه ؟ فحلّ بعض اليهود عن دراهم كانت معه فعد ثلاثين درهماً وسلمها اليه وقال : هذه لك . فقال لهم : هو كما قد علمتم صديقي وأستحي ان اقول هذا هو ، ولكن كونوا معي وانظروا الى الذي اصابحه وأقبل رأسه ، فاذا أرسلت يدي من يده فتخذوه .

فساروا معه وقد كثر الناس بببيت المقدس واجتمعوا اليه لإقامة هذا العيد من كل مكان فصافح يهوذا سرخوطا رجلاً وقبّل رأسه / وأرسل يده من يده وغاص في الناس ، فأخذه اليهود والاعوان ، فقال المأخوذ : ما لكم ولي ؟ وجزع جزعاً شديداً ؛ فقالوا له : السلطان يريدك ، فقال : مالي وللسلطان؟ فجاءوا به فأدخلوه على هيريدس وقد طار عقله خوفاً وجزعاً وهو يبكي فما يملك نفسه ، فرجه هيريدس لما رأى به من الخوف ، فقال لهم : خلوا عنه ، واستدناه واقعهده وبسطه وسكّن منه وقال له : ما تقول فيما يدّعي هؤلاء عليك من انك المسيح ملك بني اسرائيل ، هل قلت هذا او دعوت اليه ؟ فأنكر ان يكون قال هذا او ادعاه ومع هذا فما يسكن قلبه ، وهيريدس يسكّنه ويقول له : اذكر ما عندك [من حجة ^(١)] إن كان لك ، فلا يزيد على إنكاره وانه لا يقول ذلك ، وانهم هم الذين يقولون ذلك لا هو ، وانهم قد ظلموه بهذه الدعوى وتقولوا عليه ، فقال هيريدس لليهود : ما أراه

(١) في الاصل : وحجة ، ولعل الصواب ما اثبتناه

يرافقكم ولا يقول ما تدعونه وما أراكم إلا متقولين عليه ظالمين له ، هاتم الطست والماء لأغسل يدي من دم هذا الرجل .

ووجه فيلاطس ملك الروم الكبير الى هيريدس يقول له : بلغني ان اليهود رفعوا اليك خصماً لهم فيه أرب ومعرفة فأنفذه الي لأفأتحه وأنظر ما عنده ، فأنفذه اليه ؛ فأدخل على فيلاطس وهو في حالة من الجزع والخوف والقلق ، فسكّنه الملك وسأله عما ادعاه عليه اليهود من انه المسيح ، فأنكر ان يكون قال ذلك ولم يزل يسأله ويباسطه لينذكر ما عنده وما معه وليسمع منه حكمة او يستفيد منه أدباً او وصية فما وجد عنده شيئاً ، ولا زاده على القلق والخوف والجزع والبكاء والانتحاب فردّه الى هيريدس وقال له : ما وجدت في هذا الرجل ما قيل فيه وما عنده خير ، ونسبه الى النقص / والغباء ، فقال هيريدس : الآن هو الليل فاذهبوا به الى الحبس ، فذهبوا به .

فلما كان من الغد بكر اليهود وأخذوه وشهروه تلك الشهرة ، وعذبوه ونالوه بأنواع العذاب ، ثم ضربوه في آخر النهار بالسوط ، وجاؤوا به الى مبطخة ومبقة ^(١) وصلبوه وطعنوه بالرمح ليموت بسرعة ، وما زال يصيح بأعلى صوته وهو مصلوب على خشبة : يا إلهي اخذلني ؟ يا إلهي لم تركتني ؟ الى ان مات . وان يهوذا سرخوطا لقي اليهود وقال لهم : ماذا صنعتُم بالرجل الذي اخذتموه امس؟ قالوا : صلبناه ، فتمعجب من هذا واستبعده ، فقالوا له : قد فعلنا ، وإن اردت ان تعلم ذلك فصر الى المبطخة الفلانية ، فصار الى هناك ، فلما رآه قال : هذا دم بريء ، هذا دم زكي ، وشمّ اليهود ، وأخرج الثلاثين درهماً الذي اعطوه دلالة فرمى بها في وجوههم وصار الى بيته

(١) المبطخة مكان البطيخ ، والمبقة مكان البقل

فانظر كم في هذا من عجب :

منها إقرار اليهود والروم انهم ما عرفوه ، واخرى ان الذي دلّ عليه لو كان ظاهر العدالة لما عرف بخبره ولا بشهادته شيء ، واخرى جزعه وقلقه وإنكاره ، ولو كان هو المسيح لأخبر بذلك ولقال : انا هو الذي بشرني الانبياء ، وانني كذا وكذا ، سيا والحاكم بينه وبين اليهود ملك الروم وم اعداء اليهود ، وكان قد اقام الحجة عليهم ، هذا لو كان نبياً^(١) ، فكيف وهو عند النصارى إله ، فإن الانبياء يبدؤون الدعوى والحجة عند من لم يسأل ذلك فكيف بمن يسأل ويرغب اليهم .

وأخرى ان يهوذا سرخوطا قال : هذا دم بريء ، ويرى منهم ورد الدراهم ورجع الى بيته وقتل نفسه ندماً على ما كان منه . فقلنا للنصارى : فكيف في هذا من دلالة على ان المقتول المصلوب غير المسيح ، فأنتم لا الى / حجج العقول ترجعون ، ولا الى ما كتبتم وسطرتم تتدبرون ، ولا على ما نعلم تعملون ، ولكنكم تمشون مكبتين على وجوهكم .

وفي الانجيل معهم ان المسيح اخذ صندوقاً يخزن فيه الذهب والفضة وكان خازنه يهوذا سرخوطا الساعي به ، وان امرأة زانية اهدت اليه طيباً

= وقال لهم : قد قدمتم الي هذا الانسان كمن يفسد الشعب وما انا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الانسان علة مما تشتكون به عليه ولا هيروودوس ايضاً . لوقا ، الاصحاح ٢٣ : ١ - ١٥ . « وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً ألي ألي (وفي انجيل متى ايلى ايلى : ابي ابي) لم سبقتني ، الذي تفسيره ابي ابي لماذا تركتني . فقال قوم من الحاضرين لما سمعوا : هو ذا ينادي ايلى (وفي انجيل يوحنا : انا عطشان) فركض واحد وملاً اسفنجة خلا وجعلها على قصبة وسقاء .. مرقس ، ١٥ : ٣٣ - ٣٥ .

(١) في الاصل : نبى

(١) ثبت هنا ما جاء في الانجيل حول ما عرضه القاضي من تسليم يهوذا للمسيح ، والاشارة التي اعطاها لهم ليتعرفوا عليه ، وما جرى بعد ذلك من اخذه الى هيروودس وبيلاطس ، ومسا دار بين السيد المسيح وهؤلاء من حديث ، ولا تريد ان نعلق على ما نوردناه وانما سنكتفي بوضع هذا كله امام القارىء ليقرن ويشير . ما ورد حول تسليم يهوذا للمسيح : « حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر (اصحاب المسيح) الذي يدعى يهوذا الاسخريوطي الى رؤساء الكهنة وقال : ما تريدون ان تعطوني وأنا اسلم اليكم ، فجمعوا له ثلاثين من الفضة ، ومن ذلك الوقت كانت يطلب فرصة ليسله . » متى ، الاصحاح ٢٦ ، الفقرات ١٤ و ١٥ و ١٦ . « ثم ان يهوذا الاسخريوطي واحداً من الاثني عشر مضى الى رؤساء الكهنة ليسله اليهم ، ولما سمعوا فرحوا ووعده ان يعطوه فضة » مرقس ، الاصحاح ١٤ الفقرات ١٠ و ١١ . ومثل ذلك في انجيل لوقا ، الاصحاح ٢٢ فقرات ٣ و ٦ : « وكان يهوذا مسله يعرف الموضع لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه . فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء الى هناك بشاعل ومصباح وسلاح . فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم : من تطلبون ؟ اجابوه : يسوع الناصري . قال لهم يسوع : انا هو ، وكان يهوذا مسله ايضاً واقفاً معهم . فلما قال لهم انا هو رجعوا الى الوراء وسقطوا على الارض . فسألهم ايضاً من تطلبون فقالوا : يسوع الناصري ، فأجاب يسوع : قد قلت لكم انا انا هو فان كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون » يوحنا ، ١٨ : ١ - ٨ . وأورد انجيل لوقا حادثة القبض على المسيح على النحو التالي : « وبينما هو يتكلم اذا جمع والذي يدعى يهوذا واحداً من الاثني عشر يتقدمهم فدنا من يسوع ليقبله فقال له يسوع : يا يهوذا بقية تسلّم ابن الانسان . ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والاشيوخ المقبلين عليه كأنه على لص : خرجتم بسيف وعصي . اذ كنت معكم كل يوم في الهيكل لم تمدوا علي الايدي ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة » . لوقا ، الاصحاح ٢٢ : ٤٧ - ٥٣ . مع بيلاطس وهيروودس : « فقام كل جمهورهم وجاءوا به الى بيلاطس . وابتدؤوا يشتكون عليه قائلين : انا وجدنا هذا يفسد الامة وينع ان تعطى جزية لقيصر قائلاً انه هو المسيح ملك ، فسأله بيلاطس : انت ملك اليهود ؟ فأجابه وقال : انت تقول ، فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع : اني لا أجد علة في هذا الانسان ، فكانوا يشددون قائلين : انه يبيع الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل الى هنا . فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل : هل الرجل جليلي ؟ وحين علم انه من سلطنة هيروودس ارسله الى هيروودس اذ كانت هيروودس ملك اليازم في اورشليم . وأما هيروودس لما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل ان يراه لسباعه عنه اشياء كثيرة وترجى ان يرى آية تصنع منه وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء ، ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه بإشتداد فاحتقره هيروودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً وردّه الى بيلاطس ... فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب =

قيمته ثلثائة دينار ، وجعلت تمسح به قدميه وتمسح شعرها بأسفل قدميه ،
وان شمعن جاء وأنكر ذلك عليه ، وقال : هذا سرف وفساد ، وكان ينبغي
ان تتصدق بثمان هذا على الفقراء (١) .

ولهذا ما قالت طائفة من اليهود ان يسوع (٢) بن مريم هذا الذي يعتقد
المسلمون والنصارى ربوبيته الذي صلب وقتل هو ابن يوسف النجار ، وهو
رجل من اليهود برُّ قميّ صارت له رئاسة في اليهود ، فحسده بعضهم
للرئاسة وسعى به وأذله الى ان قُتل مصلوباً . وهو ما ادعى ما يقوله
النصارى ولا ما يقوله المسلمون من انه المسيح وانه نبي . قالوا ألا ترون انه
قد سئل عن ذلك عند هيريدس وعند فيلاطس وأنكر ذلك كله ، ولو كان
نبياً لاحتج بحجة وآيات ، والبشارات به وأنه مولود من غير ذكر .

قالوا : وبما يؤكد هذا ، ان النصارى قد كتبت في انجيلهم ان يسوع
هذا قال لأصحابه : ما يقول الناس فيّ ؟ قالوا : منهم من يقول : إنك إلبنا
ومنهم من يقول : انك يوحنا الصائغ ، قال : فأنتم اصحابي ما تقولون فيّ
ومن انا عنكم ؟ قالوا : الذي عندنا انك المسيح ، قال : لا تقولوا هذا .

قالت هذه الطائفة من اليهود : أما ترونه قد نهاهم ان يقولوا (٣) انه
المسيح ، فما الذي يبقي بعد هذا من البيان . قالوا : وقد خاصمه اليهود
ثلاث سنين ، ورفعوه الى الملوك فما حصل عليه إقرار انه ادعى انه المسيح

(١) انجيل متى الاصحاح السادس والعشرون .

(٢) ورد اسم المسيح عليه السلام على اشكال متعددة ، فقد رسم اسمه احياناً : يسوع ،
واحياناً يشوع واحياناً اخرى ليسوع ، وقد اثبتناها جميعاً يسوع لشهرة هذا اللفظ .

(٣) في الاصل : يقولون

٦٧ ب ولا انه نبي ، ولا شهد عليه بذلك وليّه / ولا عدوّه . والآيات والمعجزات
التي تدعيها النصارى له لا أصل لها ما ادعاها هو ولا احد من اصحابه في
زمانه ولا في الفرق الذين يلونهم ، وإنما ادعي له ذلك بعد مضيّه ومضي
اصحابه بالأزمان والأحقاب ، كما ادعت النصارى ذلك لبولص اليهودي (١)
وهو معروف الحال والحيل والكذب والسقوط ، وكما ادّعوا ذلك لجورجس (٢)
والابا مرقس (٣) ، وكما يدّعون في كل زمان لرهبانهم ورواهبهم وكله لا أصل
له . فاحفظ رحمك الله هذا فانه يؤكد الحال في ان المسيح لم يصلب ، وأن
المصلوب غيره صلى الله عليه ، وهو شديد على النصارى من كل وجه .

وفي الانجيل ان المسيح كان قائماً في ناحية في موضع الصلب ، وأن مريم
ام المسيح جاءت الى الموضع فنظر اليها المصلوب فقال لها وهو على الخشبة :
هذا ابنك ، وقال للمسيح : وهذه امك ، وأن مريم اخذت بيده ومضت من
بين الجماعة (٤) .

وفي الانجيل ايضاً ان المسيح مات من غير ان يمسه شيء ، وفيه ان امرأة
سامرية قالت للمسيح : انت رجل يهودي ونحن لا نسقي اليهود الماء ، فقال

(١) يقصد بولس ، الشهير بالرسول في تاريخ النصرانية وقد مر سابقاً .

(٢) يقصد مار جورجس ، الذي تنسب له النصرانية عدداً من الحوارق ، وتعتبره كنيسة
الكنائز حامية لها وكذلك تفعل كنيسة روسيا . ويظن انه ولد في الرملة من فلسطين في النصف
الاخير من القرن الثالث الميلاد ويقال انه مات سنة ٣٠٣ م . دائرة معارف البستاني ٦ : ٤٢٧
(٣) اسمه العبراني يوحنا ، واسمه اليوناني مأخوذ عن الروماني مرقس ، يقال انه ابن اخت
برنابا اللاوي القبرصي ، وتقول كتابات الآباء المسيحيين انه كان مترجماً لبطرس . انظر القول
الصريح في سيرة يسوع المسيح ، ص ١٣ جورج فورده .

(٤) جاء في انجيل يوحنا الاصحاح ١٩-٢٦ : « فلما رأى يسوع امه والتلميذ الذي كان
يحبه واقفاً قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا امك » .

لها : صدقت ايها المرأة في جميع ما قلت .

وفيه أن المسيح قال لأصحابه : إن الكهنة والربانيين جلسوا على كرسي موسى وهم يفتنونكم فاقبلوا منهم فتياهم ولا تعملوا مثل أعمالهم ، فإنهم يقولون وما يعملون .

وفيه ان مريم المجدلانية ومريم الاخرى إنما امتنعنا من بعثة الطبيب لسيدنا المسيح يوم السبت للسنة في حفظ السبت .

وفيه ان المسيح قال : شبهت جلوس هذه القبيلة السوء بصبيان جلوس في السوق يناديهم اصحابهم : غنينا لكم فلم ترقصوا ونحنا لكم فلم تبكوا ، اناكم يحبى لا يأكل ولا يشرب / فقلتم: لا يأكل ولا يشرب ، واناكم من البشر اكل شروب فقلتم : اكل شروب يدخل بيوت الزناة ويحالس الخطائين .

وفيه انه مر^(١) على شمعون الصفا فقال له : يا شيطان .

وفيه أنه قال لبني إسرائيل : يا حيّات ، اولاد الافاعي ، تقرؤون الكتاب ولا تعقلون ، تغفلون خارج الإثاء وداخله مملوءة قدراً ، تطلبون البر والبحر والسهل والجبل صاحباً لكم ، فلو أوجدتموه علمتموه طرائقكم حتى يصير ثمراً منكم ، فلا أنتم دخلتم ملكوت السماء ، ولا تركتم الناس يدخلون ملكوت السماء اذ لم قدخلوا .

فإن قال قائل : لعمرى قد تبين ان النصارى قد قالت في عيسى بن مريم عليه السلام : انه ليس بنبي ولا رسول لله ولا بعبد صالح ، وانه إله

ورب وخالق ورازق ، وان الله ثالث ثلاثة ، وانه قتل وصلب . وقد قال صاحبكم في كتابكم : «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله»^(١) فقالت النصارى : فهذا كذب ، قانا وإن قلنا فيه انه إله فما قلنا في امه انها إله .

قيل له : ما خبر عنهم انهم قالوا ذلك ، وما ها هنا خبر فيقع فيه صدق او كذب ، وإنما قال « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » وليس هذا خبراً ، ولا من لا يعرف من العربية قليلاً ولا كثيراً ، وإنما ظاهر هذا القول الاستفهام والاستعلام ، والله جل ثناؤه لا يجوز عليه ذلك ، لأنه إنما يستعلم ويستفهم من لا يعلم ما استفهم وسأل عنه ، وإنما معناه التقرير لاستخراج الجواب من المسؤول . وهذا كقوله لموسى صلى الله عليه : « وما تلك بيمينك يا موسى »^(٢) وهو عز وجل اعلم بذلك من موسى . ولقوله لإبليس : « ما منعك / ألا تسجد إذ أمرتك »^(٣) واذ أمرك ، وهو عز وجل اعلم من إبليس بالمانع له فقال للمسيح : هل قلت هذا في نفسك او في امك الوالدة لك وهي اخص الناس بك وأوجبهم حقاً عليك وأجلهم عندك ، لتبين براءة ساحته عليه السلام من كل وجه . فقد بطل ما ظنه السائل من ان هذا خبر وهذا جواب شافٍ كافٍ .

وأيضاً ففي النصارى من قد قال بمعنى هذا وان لم يصرح بلفظه ، لأنهم قالوا إن مريم صفت حين قبلت الجوهر الإلهي وولدت ، وكل جوهر لا يقبل

(١) المائة ١١٦

(٢) طه ١٧

(٣) الاعراف ١٢ ، وقد اثبتت القرامتين : اذ امرتك و اذ امرك

(١) في الاصل مرة ، ولعل الاصح ما اثبتناه

إلا ما في جوهره وسنخه^(١) ولا يلد إلا ما في جوهره ، وهذا جواب ثان بين نير انت فيهم من قد صرح بذلك . وهذا بين في كتب البيعة الموجودة بكور الاهواز وغيرها من كور العراق بالقلم السرياني ، وقد ترجم منه في رسالة كتبها عبد يسوع بن بهرين اسقف حران والرقه والمصير بعهد ذلك مطراناً على الموصل والجزيرة الى قس يعقوبي يقال له بادوس : انت لا تنكر ان البتول الطاهرة إله كما تراه انت ، بل إنسان كما نراه نحن .

وهذا تصريح من هؤلاء بأن مريم إله والفسطورية تخالفهم في ذلك وتجادلهم ، وهذا بيتن وانما ينكره من لا يعرف أقاويل النصارى وحقيقة النصرانية .

وعلى ان هذه الطوائف الثلاث منهم من يقول في مريم انها ام المسيح بن الله في الحقيقة ووالدته في الحقيقة ، لا ام لابن الله الالهي ، ولا والدة لابن الله غيرها ، ولا أب لابنها إلا الله ، ولا والد لابنها إلا الله ، وان الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من سائر النساء ، ولو كانت كسائر النساء / لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها ، وانما اختصت بهذا لأنها جبلت بابن الله وولدت ابن الله الذي لا ابن له في الحقيقة إلا هو ولا ولد له إلا هو ، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب والد ابنها ، وابنها عن يمينه . وهم يدعونها ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر وغفران الذنوب ، وان تكون لهم عند ابنها ووالد ابنها سوراً وسنداً وذخراً وشفيعاً وركناً . فلو ان انساناً عظم انساناً هذا التعظيم وقال فيه عشر هذا القول لجاز في

لغة العرب بل في كل لغة ان يقال قد اتخذها إلهاً . ألا ترى الى قول الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله^(٢) » وهم ما صاموا لهم ولا صلوا ولكن قلدوهم ، فحرموا عليهم الحلال فحرموه ، وأحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وهذا دون ما قالوه في مريم .

وفي هذا المعنى قوله عليه السلام : « تعس عبد الدنيا وتعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة^(٣) » لما غلب عليه حب ذلك وشغفه به صار كالعبد له ، فلو لم يكن معنا تلك النصوص فيمن قال منهم إنها إله فكان معنا خبر ونص أنهم ما قالوا انها إله لجاز مع هذا التعظيم ان يطلق ، فكيف وما اخبر أنهم ما قالوا انها إله ، ولقد عظموها ورفعوها على الملائكة والأنبياء وقالوا فيها ما يقال في الإله ، وسألوها ما يسأل الإله من العافية والكفاية في الدنيا والآخرة كما قد تقدم لك ذلك حتى ان اليعقوبية لتقول في مناجاتها لمريم عليه السلام : يا مريم يا والدة المسيح كوني لنا سوراً وسنداً وذخراً وركناً ، والفسطورية تقول : يا والدة المسيح كوني لنا كذلك ، ويأتون مسألة اليعقوبية ويقولون لليعقوبية : لا تقولوا / يا والدة الله وقولوا يا والدة المسيح ، فتقول اليعقوبية لهم : فالمسيح عندنا وعندكم إله في الحقيقة فأبي فرق بيننا وبينكم في معنى هذا ، ولكنكم أردتم ان تخرقوا عند من لا يعرف هذا من قولنا وقولكم فتوهمونه انكم تتزهون عن هذا وأنكم تقاربون المسلمين في التوحيد .

واعلم ان أفجاج النصارى يعمقون ان الله اختار مريم لنفسه ولولده

(١) التوبة ٣١

(٢) حديث تعس عبد الدينار ، هداية الباري الى ترتيب احاديث البخاري ١ : ٣١٤ في كتاب الجهاد باب الخراصة .

(١) السنخ : الاصل ، ومن السن منبته ، ومن الحمى سورتها

وتحفظها كما يختار الرجل المرأة ويتحفظها لشهوته لها ، وقد حكاها النظام والجاحظ ، وقال : إنما يفصحون بهذا عند من يثقون به . وقد قال ابن الأخشيد هذا عنهم في « المعونة » وقال : اليه يشيرون ، ألا ترى أنهم يقولون لو لم يكن والدًا لكان عقيمًا والعقم آفة ، وهذا قول جميعهم وإلى البضاع يشيرون . وانت تجد ذلك في كتاب « المعونة »^(١) وفي كتاب الجاحظ على النصارى ، وأظن أبا جعفر الإسكافي قد ذكر هذا في كتابه على النصارى ، وكل من خالط الرهبان وأرباب البيع وظاولهم وأنسهم عرف ذلك منهم .

فإن قال قائل : ادعيت أن هذه الطوائف قد خالفت المسيح في الأصول والفروع وقد عرفنا بما ذكرتم مخالفتهم له في الأصول فمن أين لكم أنهم قد خالفوه في الفروع ؟ قيل له : كان المسيح يتدين بالطهارة ، وبغسل الجنابة ، وبوجوب غسل الحائض ، وهذه الطوائف لا تختلف بأن ذلك ليس بواجب ، وإن للإنسان أن يصلي وهو غير مطهر وغير مستنج ، ويصلي وهو جنب ، ولا يختلفون في أن الجنابة والبول والغائط وغير ذلك لا يقطع الصلاة ، وإن المصلي له أن يصلي وهو يبول وهو يتغوط وهو يجامع وإن كان الجماع في زنى ، فما هذا شيء يقطع الصلاة ولا يفسدها / بل الأفضل عندهم أن يصلي وهو جنب وهو يتغوط ويبول ويضطر ، لأن ذلك أبعد من صلاة المسلمين واليهود ، وكل هذا خلاف صلاة المسيح .

وكان المسيح يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل قبله وفي زمانه ، وفي زمانه يقرؤون من كلام الله ومن قول الله من التوراة ومن زبور داود ،

(١) « المعونة » اسم كتاب لأبي الأخشيد وهو : أحمد بن علي ، يتكلم على مذهب المعتزلة . وله آراء خاصة يخالف بها الكثيرين منهم .

وهذه الطوائف من النصارى إنما تقول في صلاتها كلاماً قد لحنه لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم ، فبحرئ مجرى النوح والأغاني فيقولون : هذا قداس فلان ، ينسبونه إلى الذين وضعوه .

وهم يصلون إلى المشرق وما صلى المسيح إلى أن توفاه الله إلا إلى المغرب وبيت المقدس ، وقبله داود والأنبياء^(١) بنو إسرائيل ، وقد اختن المسيح وأرجب الحتان كما أوجبه من قبله موسى وهارون والأنبياء ، وما صام هو وأصحابه إلى أن خرج من الدنيا إلا اليوم الذي صامه بنو إسرائيل . فأما هذه الخمسون يوماً التي تصومها النصارى ، وصوم نينوي ، وصوم العذارى ، فما صام شيئاً منها قط ، ولا أكل في الصوم ما يأكلونه ، ولا حرّم فيه ما يحرمونه ، ولا اتخذ يوم الأحد عيداً قط ، ولا بنى بيعة قط ، ولا عطل يوم السبت ساعة واحدة ، ولا أكل خنزيراً قط بل حرّمه ولعن أكله كما فعل الأنبياء قبله .

والنصارى تزعم أنه رقى مريم المجدلانية فأخرج منها سبع شياطين ، وإن الشياطين قالت له : ابن نأوي ؟ فقال لها : اسلمي هذه الدابة النجسة ، يعني الخنازير . وحرّم ذبائح من ليس من أهل الكتاب وحرّم مناكلتهم ، وسار في المناكح والطلاق والمواريث والحدود سيرة الأنبياء قبله ، وليس عند هؤلاء النصارى على من زنى أو لاط أو افترى أو سكر حدّ البتة ولا هذاب في الدنيا ولا في الآخرة .

وفي الجملة إن المسيح جاء لإحياء التوراة وإقامتها ، وقال : إنما جئتكم

(١) في الأصل : وبني

لأعمل بالتوراة وبوصايا الانبياء قبلي ، وما جئت ناقضاً بل متمماً ، ولأن تقع السماء على الارض ايسر عند الله من ان تنقض شيئاً من شريعة موسى ، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعى ناقصاً في ملكوت السماء . وما زال هو وأصحابه كذلك الى ان خرج من الدنيا وقال لأصحابه اعملوا كما رأيتموني اعمل ووصوا الناس بما وصيتكم به ، وكونوا معهم كما كنت معكم ، وكونوا لهم كما كنت لكم . وما زال اصحابه بعده على ذلك وكذلك ، ثم الذين بعد القرن الاول من اصحابه ، ثم من بعدهم بالدهر الطويل . ثم اخذوا في التغيير والتبديل ، والبدع في الدين ، وطلب الرئاسة ، والتقرب الى الناس بما يهون ، ومكايده اليهود وشفاء الغيظ منهم وإن كان فيه ترك الدين . وهذا بين في الاناجيل التي معهم وإليها يرجعون ، وفي كتابهم المعروف بكتاب افراسكس^(١) ، فإن فيه ان قوماً من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتوا انطاكية وغيرها من الشام ؛ فدعوا الناس الى سنة التوراة ، والى تحريم ذبائح من ليس من أهلها ، والى الحتان ، والى اقامة السبت ، والى تحريم الخنزير ، والى ما حرّمته التوراة . وان ذلك شق على الامم واستثقلوه ، فاجتمع النصارى ببيت المقدس ، وتشاوروا فيما يحتالون به على الامم ليحببونهم ويطيعونهم ، فأوجب رأيهم مداخله الامم والترخص لهم والانحطاط في احوالهم ، وترك مخالفتهم ، والاختلاط بهم ، والأكل من ذبائحهم ، والتخلق بأخلاقهم ، وتصوبيهم فيما هم عليه . وانشؤوا في ذلك كتاباً . وقد قال بولس في الكتاب الذي يسمونه السليح : انا قلت لهم الى كم تهودون الناس ؟ وقال في السليحين : / كنت مع اليهودي يهودياً ومع الرومي رومياً ،

(١) اي كتاب الحواريين ، انظر القهرست ص ٤١

ومع الارمائي ارمائياً^(٢) . وبولس هذا عندهم اجل من موسى وهارون وداود وجميع الانبياء ، وإذا قرئت رسائله وكلامه في البيعة قاموا قياماً اعظماً واجلالاً له ولكلامه ؛ ولا يفعلون ذلك بالتوراة التي هي عندهم كلام المسيح وهو كتبها لموسى وأرسله الى خلقه وخلق له البحر وقلب له العصا حية ، ولا في الاناجيل وفيها كلام المسيح . وهو يقول لليهود : التوراة سنة حسنة لمن عمل بها ، ويقول للروم وغيرهم من اعداء موسى والانبياء : التوراة مهبجة للبشر ، وإذا وضع عن الناس شرائع التوراة فقد كمل بر الله وتم فضله ، هذا كله مع النصارى وأعظم منه وأفحش . وقد عملوا عمل المسيح بالتوراة ووصيته الناس بالعمل بها .

انظر كيف ينسلخ الناس من العمل بشرائع الانبياء الذين يدعون انهم عليها ويخرجون منها ، واعتبروا كن على حذر ، فقد بدت هذه السيرة في هذه الأمة ، فكم فيهم بمن قد عطل وصايا النبي ﷺ ونبذ سنته وهجر كتابه لأنه زعم انه مغير مبدل ، وآخر يقول له باطن غير ما عليه الفقهاء والعلماء ، الى غير ذلك من انواع البدع التي قد نشأت في الاسلام وغلب أهلها بالكثرة أهل الحق فيبيدعونهم ويسبونهم وينفروا عنهم ، وهكذا تتغير ملل الانبياء عليهم السلام ويموت العلم ، كما قال رسول الله ﷺ : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور الرجال ، ولكن يموت العلم بموت العلماء ، فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ،^(٣) . / ثم

(١) على هامش الصفحة كتب : « الارمائي من يعبد الكواكب والأوثان » بخط مختلف عن خط الاصل ، ويظهر انه خط ناسخه ، او المعلق عليه .

(٢) كتب الناسخ على هامش الصفحة : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من صدور الرجال الى آخره » والحديث في الجامع الصغير (شرح المناري) ٣ : ٢٧٢ رواه الامام احمد في سننه والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر بإسناد صحيح .

المستأكلة ومن تكسب بالدين ، وقد قال الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » فهم هؤلاء العباد وهؤلاء العلماء وقد عرفك الله حال كثير منهم ، فكيف بمن ليس بعالم ولا عابد . فاحذر كما حذرك الله ، واقبل وصية رسول الله عليه السلام .

واعلم ان دين المسيح وديانات الرسل عليهم السلام لم تتغير ولم تبدل جملة واحدة ولكن شيئاً بعد شيء ، وفي كل عصر وفي كل حين حتى تكامل تغيرها ، وما زال اهل الحق فيها يقلون وأهل الباطل يكثرون حتى غلبوا ومات بهم الحق . فكان اصحاب المسيح بعده مع اليهود وبني اسرائيل في كنائسهم يقيمون صلاتهم وأعيادهم في مكان واحد وبينهم الخلاف في شأن المسيح ، وكانت الروم تملكهم ، وكانت النصارى تشكو اليهود الى ملوك الروم ، وتبدي لهم الضعف الذي فيهم وتسترهم فيرحمهم ، وكثر هذا فكانت الروم تقول لهم : بيننا وبين اليهود عهد ان لا نغير اديانهم ، فلو خرجتم من اديانهم وفارقتموهم وصلبتم الى المشرق كما نصلي وأكلتم ما نأكل واستباحتهم مما نبيح نصرناكم وأعززناكم ، ولم يكن لليهود عليكم سبيل بل صرتم اعز منهم . قالوا : نفعل . قالوا فاذهبوا فهاؤوا اصحابكم وهاؤوا كتابكم . فجاءوا بأصحابهم فأخبروهم بما كان بينهم وبين الروم ، وقالوا لهم هاؤوا الانجيل وقوموا حتى نصير اليهم ، فقال اولئك لهم : بشئ ما صنعتم ولا يحل لنا ان نمكن الروم الانجاس من الانجيل وقد خرجتم انتم من الدين / بإجابتكم الروم ، ولا يحل لنا مخالطتكم ، بل وجبت البراءة منكم ومنعكم من الانجيل والوصول اليه .

فوقع بينهم الخلاف الشديد . وعادوا اولئك الى الروم وقالوا لهم : أعدونا (١) على اصحابنا هؤلاء قبل اليهود ، وخذوا لنا منهم كتابنا ، فاستقر اولئك من الروم وفروا في البلاد . فكتب الروم فيهم الى عمالهم بنواحي الموصل ويجزيرة العرب . فطلبوا ، فوقع منهم قوم فأحرقوا وقوم فقتلوا ، واجتمع الذين أجابوا الروم وتشاوروا فيما يعتاضون عن الانجيل إذ قد فاتهم ، فتقرر رأيهم على أن ينشئوا انجيلاً . وقالوا إنما التوراة موالد الانبياء وتواريخ اعمالهم فتبني الانجيل على ذلك ، وبذكر كل واحد منا ما حفظه من ألفاظ الانجيل ومما تحدث به النصارى عن المسيح . فكتب قوم انجيلاً . ثم أتى من بعدهم قوم وكتبوا انجيلاً ، وكتبوا عدة أناجيل ، وسقط عنهم الكثير مما في الأصل . وكان فيهم الواحد بعد الواحد ممن يعرف اموراً كثيرة في الانجيل الصحيح فأمسكوا عنها لتتم رؤاستهم ، ولم يكن في ذاك ذكر الصليب ولا الصلبوت ، وهم يزعمون انها كانت ثمانين انجيلاً ، فلم تزل تقبل وتختصر حتى بقي منها أربعة أناجيل لأربعة نفر عمل كل واحد في عصره انجيلاً ، وجاء من بعده فرآه مقصراً فعمل انجيلاً هو عنده أصح من انجيل غيره واقرب الى الصحة . ثم ليس فيها انجيل بلغة المسيح التي كان يتكلم بها هو وأصحابه وهي العبرانية لغة ابراهيم الخليل وسائر الانبياء ، بها تكلموا وبها نزلت كتب الله على هؤلاء وغيرهم من بني اسرائيل ، وبها خاطبهم الله ، فتركها هؤلاء . وقد قالت العلماء لهم : عدولكم معشر النصارى عن اللغة العبرانية وهي لغة المسيح والانبياء قبله عليهم السلام / الى سائر اللغات حتى

(١) هكذا في الاصل ، لعلها : ساعدونا

ما من نصراني يتلو هذه الأناجيل في فرض من فروضه بلغة العبراني حيلة ومكيده و فراراً من الفضيحة . فقال الناس لهم : انما وقع العدول عنها لما قصده أصحابكم الأولون من الادغال في المقالات ، واحتياطاً في تدليس ما وضعوه من الأكاذيب وسترأ لما احتالوا طلباً للرئاسة ، وذلك ان العبرانية هم كانوا اهل الكتاب واهل العلم في ذلك الزمان ، فغير هؤلاء النفر اللغة بل عدلوا عنها كلها لئلا يفهم اهل العلم مذهبهم وقصدهم لسترها فيفتضحوا قبل تمكن مذهبهم ولا يتم لهم . فعدلوا الى اناس كثيرة ما تكلم المسيح وأصحابه بها ، وليس اهلها من اهل الكتاب ، ولا لهم علم بكتب الله وشرائعه ، كالروم والسريانيين والفرس والهند والارمن وغيرهم من الأعاجم ، وتلبساً واحتياطاً لستر العورة وقام البغية في طلب الرئاسة من اولئك القوم القليل الذين طلبوها بالدين . ولولا ذلك للزموا لغة ابراهيم وولده والمسيح الذين بهم قامت البينة ، وعليهم أنزلت الكتب ، وكان ذلك أولى بإثبات الحجة على بني اسرائيل وكفرة اليهود اذا ادعوا بلسانهم ، ونظروا بلغتهم التي لا يمكنهم دفعها . فاعرف هذا فانه اصل كبير .

واعلم رحمك الله ، ان هذه الطوائف الثلاث من النصراني لا تعتقد ان الله أنزل على المسيح الانجيل ولا كتاباً بوجه من الوجوه ، بل عندهم ان المسيح خلق الأنبياء وأنزل عليهم الكتب ، وارسل اليهم الملائكة . وانما معهم اربعة أناجيل لأربعة نفر ، كتب كل واحد منهم الانجيل في زمانه ، وجاء من بعده فما رضي الانجيل غيره ، وكان الانجيل أولى . وهم يتفقون في مواضع ويختلفون في مواضع ، وفي بعضها ما ليس في بعض ، وهي حكايات قوم رجال ونساء من اليهود والروم وغيرهم انهم قالوا كذا ، وفعلوا كذا ، وفيها من المحال والباطل والسخف والكذب الظاهر والتناقض البين شيء كثير . وقد تلعبه

الناس وأفردوه ، واذا قرأه المتأمل عرف ذلك . وفيها شيء من كلام المسيح ووصاياه وأخباره قليل . فلانجيل منها عمله يوحنا ، وانجيل منها عمله متى ، ثم جاء بعدهما مرقس فلما رضي بالانجيليها ، ثم جاء بعدهم لوقا فما رضي بتلك الاناجيل فعمل الانجيل آخر ، وكان عند كل واحد من هؤلاء ان صاحبه الذي تقدم وعمل الانجيل أنه قد ضبط أشياء وأخل بأشياء ، وغيره اعرف واضبط . ولو كان من قبله قد ضبط واصاب لما احتاج ان يعمل هو الانجيل آخر غير الانجيل صاحبه ، وليس احد هذه الاناجيل شرحاً للآخر ، كما يشرح من تأخر كتاب من تقدم فيحكي كلامه على وجهه ثم يشرحه . فاعرف هذا وانما وضعه لأن غيره قد قصر .

وعند هؤلاء الطوائف من النصراني ان هؤلاء الاربعة اصحاب المسيح وتلاميذه ، وهم لا يعلمون ولا يدرون من هم ولا معهم في ذلك إلا الدعوى فقط ، بل قد ذكر لوقا في الانجيل انه ما رأى المسيح ، فقال لوقا مخاطباً للذي عمل له الانجيل وهو آخر من عمل من الاربعة : « عرفت رغبتك في الخير والعلم والأدب فعملت هذا الانجيل لمعرفتي ولأني كنت قريباً الى الذين خدموا الكلمة ورأوها » (١) . فهو قبل كل شيء قد أفصح بأنه ما رأى الكلمة - يعنون بالكلمة المسيح - ثم ادعى انه رأى من رأى المسيح ، وليس هاهنا إلا دعوى بأنه رأيهم ولو كان ثقة لما علم بخبره شيء ، ومع هذا فقد ذكر ان الانجيل أولى من الانجيل غيره / . فلو تأمل النصراني لعلوا انهم ليسوا على شيء من هذه الاناجيل التي معهم ، ولا معهم علم مما يدعيه اربابها

(١) كتب الناسخ في الهامش : الاناجيل الاربعة

والواضعون لها ، وان الامر في ذلك على ما ذكرنا . وهو معلوم مذكور في انصرافهم عن ملة المسيح الى مذاهب الروم وتغيرهم وتعجلهم المناقع بسلطانهم واموالهم .

وقد كان بولص هذا يهودياً خبيثاً شريعياً ، ساعياً في الشر ، ومعيناً للأشرار ، وثائراً في الفتن ، طالباً للرئاسة والدولة ، محتالاً فيها بكل وجه ، وكان يقال له وهو يهودي : شاؤول ، وكان يعين على النصرارى . ثم خرج عن بيت المقدس وغاب غيبة طويلة ، وعاد الى بيت المقدس وأخذ يعين النصرارى على اليهود ويقول لهم : قولوا كذا ، واصنعوا كذا ، وفارقوهم وقاربوا الامم التي تعادي اليهود . فقال له اليهود : كيف صرت نصرانياً وما الذي دعاك الى هنا ؟ فقال : الله تبارك وتعالى دعاني الى ذلك ، وكان من قصتي اني خرجت من بيت المقدس اريد دمشق ، فأدركني الليل بظلمته وهبت ريح عظيمة وذهب بصري ، وغاداني الرب وقال لي : يا شاؤول أتلاطم الأشقاء تؤذي اصحاب ابني ؟ فقلت : يا رب قد ثبت ، فقال لي : ان كان كما تقول فاذهب الى حايم اليهودي الكاهن ليرد اليك بصرك ، فذهبت اليه وخبرته ، فمسح يده على بصري فسقط منه مثل قشور البيض وفلوس السمك ، وأبصرت كما كنت ، وان الله استدعاني اليه الى السماء ، فأقامت عنده في السماء اربعة عشر يوماً ، ووصاني بأشياء كثيرة ، وقال لي : فيكم أموراً قبيحة لا اقولها لكم ^(١) .

فسخر منه اليهود وتعجبوا من حقه وقوته ، وصاروا به الى صاحب

(١) جاء في انجيل لوقا : « اذ كان كثيرون قد اخذوا بتأليف قصة في الامور المتبقية عندها كما سلمها اليها الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة ، رأيت انا ايضاً اذ قد تشعبت كل شيء من الاول بتدقيق ، ان اكتب على التوالي اليك ايها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » الاصحاح الاول ١ - ٥

قيصر ملك الروم عليهم ، وكانوا اذ ذاك / مغلوبين مع الروم . فقالوا له : أما تعرف شاؤول هذا ؟ فقال : بلى ، اعرفه بالشر وهو يجيئنا في السعيات بالناس . فقالوا له : انه قد ادعى كذا وكذا ، وذكروا له ما قال . فاغتاط الرومي منه وأمر به فبطح ليضرب ، فقال له : اتضرب روميّاً ؟ فقال : أو رومي انت ؟ قال : نعم ، انا على دين قيصر ملك الروم وبريء من اليهودية ، فكف عنه لدخوله في دين الملك ، وقال له : ها هنا مركب يأخذ الى القسطنطينية وأنت رومي وعلى دين الروم ، فكن هناك ان كنت كما تقول ، فقال : افعل ، أنفذني الى بلاد الروم . فصار الى القسطنطينية ، وتردد الى الروم ، ولزم باب الملك وأغرى الروم باليهود ، وذكرهم عداوتهم لهم ، وما صنع بنو اسرائيل بهم ، ومن قتلوا منهم ، وخوفهم شر اليهود ، وانهم لا يأمنون دولتهم والكثرة عليهم ، وذكر لهم كثرة اموالهم .

ومن عادة الروم لا تحتجب نساؤهم عن الرجال ، وتركب امرأة الملك في موكب الملك مكشوفة الوجه ، وتخطب الناس ، وتأمّر وتنهاي ، فتقرب بولس هذا اليها وخاطبها في شأن اليهود . ومن عادة الروم أن لا يحل للرجل ان يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ثم لا يفرق بينها طلاق ولا هرم ولا عيب من العيوب بوجه ولا سبب ، ولا يحل له غيرها الى ان تموت . ونساء الروم تبغض ديانات الانبياء من بني اسرائيل لما فيها من إباحة الطلاق وأن للرجل ان يتزوج ما أطاق المؤونة .

فقيل للشاؤول : انت من امّة هذا سبيلها ، فقال : لا ، وما يحل للرجل اكثر من امرأة واحدة على احكام الروم ، فنفق على النساء بهذا . وقرب من امرأة الملك فخاطبت الملك في غزو بين اسرائيل ، وذكرت له ما يقول شاؤول ، وسألته ان يسمع منه ففعل . وتقرب اليهم / بأن تسمي بولص وهو

من اسماء الروم ، والروم تكره الختان شديداً في الرجال والنساء ، وتبعض الامم الذي تفعله . فقالوا لبولص في ذلك ، فقال : نعم ، هو ما ترون ، وما يجب عليكم ختان ، وإنما يجب على بني اسرائيل فانها امة قلفتها في قلوبها . والروم تأكل الخنزير ، فقال : ما هو حرام وما يحرم على الانسان شيء يدخل جوفه وإنما يحرم عليه الكذب الذي يخرج منه ، وبنو اسرائيل لا تأكل ذبائح الوثنيين ومن ليس من اهل الكتاب والروم ليس كذلك ، فصوتهم بولص في هذا ونفق عندهم بكل شيء وما خالفهم في شيء ، وكانت ديانات الروم اذ ذاك منشرة أكثرهم يعظم الكواكب ويعتقد فيها انها تحيي وتميت وتنفع وتضر ولهم عندها هياكل وقوابين ، ومنهم من كان على دين اليونانيين من ان هذه الكواكب حية ناطقة رازقة وهي الأرباب ، ويعتقدون صحة السحر ، بالجملة إن دياناتهم كلها باطلة ضميغة فاسدة . وكان بولص يذكر لهم فضل المسيح وزهده وانه كان مجاب الدعوة وكان يحيي الموتى ، فكانوا يجمعون اليه ويستمعون منه ، وكان محتالاً لا خبيثاً ، وكان الروم تصلي الى مشرق الشمس ولا ترى وجوب الوضوء ولا غسل الجنابة ولا الحائض ولا التوقي من البول والغائط والدم ولا تراه فحشاً ، وان الروم تزوج الوثنيين وسائر الامم وبنو اسرائيل لا تفعل ذلك ، فقالت الروم لبولص في ذلك ، فقال : تزوج المؤمنة بالكافر فانها تطهره ولا ينجسها والولد بينها طاهر . وقال : هذا انما تحرمه التوراة ، والتوراة شر كلها واذا وضع عن الناس شرائع التوراة فقد كمل برّ الله وتم فضله . فاختلف بولص من ديانات المسيح / وصار الى ديانات الروم . فاذا تبينت الامر وجدت النصارى تروموا ورجعوا الى ديانات الروم ولم تجد الروم تنصروا .

ثم قبل الملوك سعايات بولص باليهود واخذ برأيه فيهم ، فصار اليهم وقتل

منهم القتل العظيم واخذ اموالهم واستصفاهم وعاد من عندهم بالרגائب ، فقامت سوق بولص فيهم وازدادوا له حباً ، وهذا الملك الذي غزا بني اسرائيل يقال له كططس^(١) . وقد كان للروم ملك يقال له بيلاطس خرج الى الشام بعد المسيح عليه السلام وبعد اصحابه بالمدد الطويلة ، وكانت له امرأة ببلاد الروم فماتت ، فأراد ان يتزوج امرأة مكانها ، ومن عادة الروم ان يعارض الرجل المرأة اذا اراد التزويج ويقلبها ويستقصي تفتيشها فلما صلحت له تزوجها ، وان لم تصلح تركها . فوصف لبيلاطس امرأة بجران يقال لها هيلانة^(٢) تكون في فندق بجران - والفندق هو الخان - فأشخصها وقلبها وارتضاها وتزوجها - وكانت نصرانية - فحظيت عنده ، وسألته إعزاز النصارى والاحسان اليهم ، فقال لها : إن اليهود يزعمون ان اصحابك هؤلاء اصحاب حيل وطلاب دنيا ورئاسة ، فقالت : كذبوا ، وإنما اجيئك بهم لثراهم . فأتته بجماعة من الرهبان وقالت له : انظر اليهم والى مسكنهم وضعفهم لتعلم كذب اليهود عليهم . فرحمهم ورق لهم وظن الجميل بهم ، فأعزهم وصانهم ومكّن لهم في ممالكه بالشام وبلاد الروم ، واحسن اليهم ، فانبسطوا وكثروا واستطالوا على اليهود / وكان لهذا الملك اولاد من المرأة التي كانت قبل هيلانة ، وولد له من هيلانة هذه ابن يقال له قسطنطينوس . وقد كان امر بولص عظم ببلاد الروم مع العامة والنوغاء واستهواهم بما يجري مجرى الرقى والطب والشعبذة والسحر ، والروم الارمن تصدق بهذا كله وهي امة مفرطة الجهل بعيدة مما يستدرك بالفكر والنظر ، يغلب عليها

(١) وقد ارسل بولس الى تيطس رسالته المشهورة حوالي سنة ٦٥ م

(٢) في الاصل : هيلانية

الفدامة والبلادة سياً في العامة فهي لا تعرف إلا المهن والصنائع ، وان كانت ملوكها تتقدم في ظاهرها الحياة الدنيا وتدبير الملك . ففطن بعض ملوكهم لبولص وتصفح احواله وحصله وعلم انه محتال بمخرق طالب دنيا ورئاسة ، فأحضره وسأله عن الختان فذمه وذم اهله ومن يفعله فسأله عن المسيح هل اختن ؟ وهل كان مختوناً ؟ وهل كان اصحابه من الحواريين كذلك ؟ قال : نعم ثم كشف عنه فإذا هو مختون ، ووجده قد ساعد الروم في دياناتها وهي خلاف ديانات المسيح واصحابه وانها كفر وضلال عند المسيح واصحابه ، وقد كان اصحاب بولص في رجله داء الفيل وهو يدعي انه يطبّ ويبرئ ، فأمر الملك به فصنع وحلقت لحيته وصلب . فقال لهم : لا تصلبوني طولاً كما صلب ربنا المسيح ، ولكن اصلبوني عرضاً . والملك الذي صنع هذا ببولص يقال له ييرن ، ففترت النصرانية ببلاد الروم وانكسروا . ومملك اولاد بيلاطس بعده ، وانتهى الملك الى ابنه قسطنطينوس ، وكان ظاهره على ديانات الروم غير ان والدته هيلانة هذه قد / غذته بحب الصليب ، وعودته عادة النصراني وما يقولونه في المسيح ، وظهر في جسمه برص وكانت الروم لا تملك عليها من به برص ، بل كان محرماً عندها تمليك البرص . ففعم ذلك وأمه وكنمه وانطوى على قمع الروم وصرفها عن هذا الرأي في كراهة تمليك البرص ، وكانت تغزوهم امم فاتفق غزو السرجان والبربر إياهم فعبثاً عساكره على هياكل الكواكب ، وقصد الى مشيخة الروم والراشخين في ديانات الروم وانفذهم الى العدو ، ولم يستظهر لهم على عدوهم بالمكائد والجواسيس كما يفعل الملوك ومن يدبر العساكر فتم عليهم ما يكرهون من القتل وانهم من بقي فكان يظهر الحزن والكآبة ويقول : قد استظهرنا وعبثاً على هياكل الكواكب التي تعظمها وقد عظمتها آباؤنا قبلنا ، وقربنا لها القرايين ، وما نراها تنفعنا

ولا تغني عنا ، وما زال يدبرهم بهذا التدبير ويقول هذا القول ، وانه ما يلبغي ان يعبد احد ما لا ينفعه ، وهذا وقت الحاجة واوان الشدة فما تدفع هذه الكواكب عنا ، فيلبغي ان يستبصر الانسان ويعبد ما ينفعه ويدفع عنه . ثم قال : ها هنا امرأة رأت في منامها قائلاً يقول لها استنصروا بهذا ، واخرج اليهم صليباً . واتفق موت امير الجند الذي غزاهم فانصرفوا عنهم ، فقال هو ومن كان على رأيه وهواه هذا ببركة الصليب . وكانت عادة الروم ان تجعل على راياتها الألهة وما هو على صورة الهلال تبركاً بالقمر والنجوم ولأن القمر / اخف الكواكب سيراً ، فحطوها وجعلوا مكانها الصليبان فهم على هذا الى هذه الغاية .

ثم ابتدأ في التدبير في نقل الروم عن تعظيم الكواكب الى تعظيم الصليبان ، وكان الفلاسفة في بلدهم كثيرين ، وكانوا يعظمون الكواكب ، ويدعون انها حية ناطقة ، ويستطيعون على الناس ، ويدلون على الملوك ، ويدعون انهم أخص الخاصة ، ولا يتكسبون ، ويعتادون البطالة ، ويعملون على اموال الناس ، ويفسدون الأحداث ومن يصغي اليهم من ملك او سوقة ، ويدعون العزائم والطلسمات وانهم ينفعون بها ويضرون ، وانهم يدركون علم المغيبات بصناعة النجوم ، ويهولون بالهندسة والأشكال . وكان قسطنطينوس هذا خبيراً مفكراً صبوراً متصفحاً امر هؤلاء الفلاسفة وما يدعونه في النجوم والطلسمات فوجده باطلاً كله ، وجد القوم محتالين ممخرقين ومفسدين ، فابتدأ في قتلهم على طبقاتهم ، وفي احراق كتبهم وابطال هياكلهم . فكثت على ذلك حتى خلت أبنيته منهم ، وكانت مدينة الفلاسفة فما بقي منها إلا حرثا ودبّاغ وصباغ ، وجعل الهياكل التي كانت للكواكب بيماً ، وأسكنها الرهبان وقال : هؤلاء المساكين أرجى من اولئك الجهال الممخرقين الكذابين ، وسلط

الرهبان والعامّة عليهم في كل مكان ، لا يظهرون بكتاب طب ولا هندسة إلا أحرق وبادر على من كان على رأي الفلاسفة فتبرأ منهم ، وأعان عليهم ، وانبطت أمه هيلانة في ذلك ، وبسطت الرهبان والنصارى / واستعدتهم^(١) من كل مكان فجعلتهم اصحاب اخبار لابنها وأعواناً ، واستظهرت بهم ، واطهر هو تعظيم المسيح والصليب ، وأقسام ديانات الروم على حالها كما كانت من الصلاة الى المشرق وغيرها مما تقدم ذكره ، فما أزال إلا عبادة الكواكب وما زاد إلا تعظيم المسيح والقول بربوبيته ، وتعظيم الصليب . ولم يكن هذا بالبعيد عن الروم لأن من اعتقد في الكواكب وهي جماد موات أنها أرباب وتنفع وتضر لم يبعد عنهم ان يقولوا في انسان حي عاقل يميز قد قيل لهم انه كان يحيي الموتى ، وانه إله ، وانه وابوه وزوجته خلقوا الكواكب . وكان هذا سهلاً على اهل المغرب ، ألا ترى ان القبط ومن بمصر كانوا يعقدون إلهية فرعون وانه لا إله لهم غيره . وسار قسطنطينوس هذا الى الجزيرة فقصد حران وأعمالها وكانوا في تعظيم الكواكب أشدّ مما كان بأثينية وبلاد الروم ، فوضع فيهم السيف حتى أبادهم ، وهرب من هرب منهم في الجبال فطلبهم بنفسه ، وكانوا يعيبون البرص فكان له فيهم فضل حرص ، فقال له قواده : لا تبعث في طلبهم فان الثاج الذي في هذه الجبال سيهلكهم ، فان بقيت منهم بقية جعلناهم حجاجين للروم وجميع النصارى واصحاب الصوامع والرهبان ليعرف منهم حقيقة النصرانية وما ينبغي ان يقرر مما يؤخذ الناس به فلا يتجاوزونهم ، وان من تجاوزه قتل . فاجتمع عنده نحو ألفين من رؤسائهم وقرّر أشياء

(١) استعداء : استغاثه . انظر القاموس المحيط

من تسييحه الإيمان ، وكان فيهم من يخالف اولئك ويقول : كلمة الله / مخلوقة وان المسيح كلمة الله وكان هناك إيرلس ومقدونيوس ، وأوثامس ، وأولوفريانوس واصحابهم ، ممن يقول : الكلمة مخلوقة وكلام الله وقوله خلق من خلقه ، فشغبوا عليهم ووقف الأمر وبطل ذلك التقرير .

ثم اجتمع بعد ذلك ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً بنيقية من بلاد الروم وعملوا تسييحه ايمانهم التي قد ذكرت ، فأتوا بها قسطنطينوس فأخذها وعمل عليها وأخذ الناس بها فمن لم يقبلها قتله . فاحتاج اولئك ان يظهروا قبولها خوف السيف ، وأبطل ما سواها عن التقرير ، وحصل من كان على دين المسيح في كل مكره ، واخذوا بتعظيم الصليب وأكل الخنزير وديانات الروم ، وكان من لا يأكله يقتل .

وكان في الصابئين من اهل حران من لا يأكل الباقلاء ويزعم انه عدو للفلك لأنه مكعب والفلك كروي ، فكان يطبخ الباقلاء في أبواب البيع ويجمع الناس إليها ويقال لهم : اخرجوا ولا يبقى منكم احد إلا اكل الباقلاء ومن لم يأكله قتل ورمى برأسه ، وهناك سيافة قد جردوا سيوفهم فمن لم يأكله قتلوه .

ولم يزل قسطنطينوس في الملك خمسين سنة مشغولاً بقتل من لم يعظم الصليب ولم يقل بربوبية المسيح حتى تأكد ذلك وتمكن ، واوصى الملوك بعده بذلك وأكد عليهم وعهد فيه اليهم وقال : هو أولى من تعظيم الكواكب وآراء الفلاسفة ، وأوثق هذا العهد على اولاده وقواده واوليائه وجعل الملك في اولاده . والروم يصفونه بالحزم والشهامة / وانه فيهم كاردشير بن بابل^(١)

(١) ذكر الطبري ملكين من ملوك فارس بهذا الاسم ، احدهما : اردشير بن بابك بن ساسان =

ملك فارس في الفرس . وقام اولاده بعده في الملك فأكدوا عهوده وقرروا في كل حين شيئاً بعد شيء في النصرانية الى ان جاء ملك منهم فرأى ان يجعل يوم الأحد عيداً لهم يجتمعون فيه كما لليهود يوم السبت ، وكان هذا بعد قسطنطينوس بالدهر الطويل . وعملوا لذلك سنهودس ، وكان للروم واليونان عيداً يسمونه ميلاد الزمان وهو عند رجوع الشمس في كانون ، فجعلوه ميلاد المسيح وزادوا ونقصوا ، وهو عيد لهم عظيم وهو الذي يقيمه النصراني ويسمونه الميلاد وليلة الميلاد وهذا سببه وأصله ، وما كانت النصراني في زمن المسيح واصحابه من بعده يعرفون هذا العيد ولا يقيمونه . وكان للروم والصابئين ايام يصومونها تجرى تجرى التقرب الى الكواكب يسكون فيها عن اكل اللحم ، فلما صاروا الى القول بالهية المسيح أقاموها ثم زادوا فيها من اشياء ونقصوا ، وهم اليوم يصومونها خمسين يوماً الى زوال الشمس ثم يفطرون في بعض الأيام ، هكذا يصومون ببلاد الروم .

والروم هم الأصل في هذه الطوائف الثلاثة من النصراني ، ثم تفرعت منهم اليعقوبية أصحاب يعقوب ، ثم من بعد اليعقوبية النسطورية وهم اصحاب نسطورس وهم يختلفون في الصيام ، فإن هؤلاء الذين بالعراق لا يصومون في كل يوم نصفه كما تصوم الروم ، ولهم ايام ، أعني الذين ببلاد الاسلام ، ينظرون فيها بعد صلاة العصر يتحسون الخمر في البيعة وهو القربان عندهم ، وقد قال بولص : إن دم هذا الشراب هو دم الرب وهذا / البرشان هو لحم الرب فمن

٧٨ / ب

ارتاب في ان هذا لحم الرب ودمه فلا يأخذه ولا يذقه وان ذلك لا يحل له . والبرشان ^(١) هي اقراص تخبز وتحمل الى البيعة وتترد في الخمر وتؤكل تقرباً . والمسيح عليه السلام ما صام هو واصحابه إلا الصوم الذي صامه بنو اسرائيل .

قالت هذه الطوائف من النصراني : إن كان المسيح ما صام هذه الايام الخمسين فقد صام حين اسره الشيطان اربعين يوماً بلياليها فجعلناها نحن خمسين يوماً ، قلنا : هبنا صدقناكم في ذلك فمن اين وجب عليكم مثل ذلك وانتم تقولون ان موسى صام ثمانين يوماً بلياليها فلم يطعم فيها شيئاً البتة وكان ذلك في دفعتين ، وزعمتم ان ايليا ^(٢) صام اربعين يوماً بلياليها فما وجب على قوم موسى الصيام الذي صامه موسى ولا عليكم صيام ذلك . وبعد ، فقد عاد المسيح اليكم حين اطلقه الشيطان وبقي معكم فما صام صومكم هذا ولا امركم به ولا صام هو واصحابه إلا صوم بني اسرائيل ، فمعلتم الصوم الذي تعلمونه يقيناً وصتم صوماً ما صامه ولا امركم به .

وفي انجيلهم ان الشيطان اسر المسيح وحصره اربعين يوماً ليمتحنه ، وان المسيح امسك عن الأكل والشرب خوفاً من ان تم عليه حيلة الشيطان ، وانه قال له وهو معه وفي يده : إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزاً ، فقال له المسيح مجيباً : أن مكتوب أن حياة الانسان لا تكون بالخبز بل بكل كلمة تخرج من الله . ثم ساقه الشيطان الى مدينة بيت المقدس فأقامه

(١) كتب في الاصل في الحاشية : البرشان

(٢) في الاصل : اليا

= ابن عم دارا بن دارا والمطالب بدمه وهو من ملوك فارس الاوائل والموصوفين بالشدة والشجاعة . وثانيها اردشير بن هرمز بن فرسي بن هرام بن هرمز بن ساسوب بن اردشير بن بابك وهو احد احفاد اردشير الاول ، وقد وصف بالبطش والشجاعة ايضاً . والاول اكثر شدة ولعله هو المقصود هنا .

على قرنة الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فارم نفسك / من هنا فإنه مكتوب ان الملائكة تؤكل بك فلا تعثر رجلك بالحجر ، قال المسيح : ومكتوب لا تجرب الله إلهك . ثم ساقه الى جبل عال فأراه جميع ممالك الدنيا وزخرفتها وقال له : إن خررت على وجهك لي ساجداً جعلت هذه الدنيا كلها لك كما جعلتها لمن قبلك ، فقال له المسيح : اغرب ايها الشيطان فإنه مكتوب اسجد للرب إلهك . ثم بعث الله ملكاً اقتلع الشيطان من مكانه ورماه الى البحر وأطلق السبيل للمسيح ^(١) . فهذا من الجهل الذي خبرتك انه مكتوب في انجيلهم وهو زعموا حجبتهم في صومهم ، فهل سمعت بشيطان يأمر إلهه ويقتله من مكان الى مكان ويطمع في إلهه ان يستعبده والشيطان لا يقدر ان يأخذ حمار اليهودي ، وعند النصارى انه قد اخذ ربه الى ان جاء الملك فخلصه وفك أسرهم . وعند النصارى ان المسيح لما ظهر ربط الشيطان عن الخلق وأطفاً ثأثرته وأزال اذاه وشره ، وها هنا يقولون اشد ما كان قوة عليه وتسلطاً عليه وهو ربه وإلهه ، ففكر واعجب .

وكان الروم والصابئين دخن وبخورات في الهياكل للكواكب والأصنام ،

(١) جاء في انجيل متى : « ثم اصعد يسوع الى البرية من الروح ليحرب من ابليس ، فبعدها صام اربعين يوماً واربعين ليلة جاع اخيراً . فتقدم اليه المجرّب وقال له : ان كنت ابن الله فقل ان تصير هذه الحجارة خبزاً ، فأجاب وقال : مكتوب ليس بالحبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله . ثم اخذه ابليس الى المدينة المقدسة ووقفه على جناح الهيكل وقال له : انت كنت ابن الله فاطرح نفسك الى اسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فعلى ايادهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ، قال له يسوع : مكتوب ايضاً لا تجرب الرب إلهك . ثم اخذه ايضاً ابليس الى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : اعطيك هذه جميعها ان خررت وسجدت لي ، حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد واياه وحده تعبد » الاصحاح الرابع من انجيل متى .

وهي قائمة عند النصارى ما عطلوها ، وهي في البيع يسمونها دخنة مريم وبخور مريم ، وما عرفته مريم ولا المسيح ساعة قط ولا اصحابه ، ولا استعملوا ذلك ، فجعلوا هذا بخور مريم كما جعلوا صومهم للمسيح ، وكما جعلوا الحجر والقربان لحمه ودمه .

وكانت الروم مع عبادتها الكواكب تعظم الأصنام وتصورها في الهياكل ، فبقيت على ذلك / بعد اجابتها الى تعظيم الصليب ، وما كان منهم في ذلك قصور ، والمسيح وأمه وأصحابه عوضاً من تلك الأصنام . ثم تركوها شيئاً شيئاً على الايام والدهور .

وهم كانوا يستبيحون الزنا ولا يمتنعون منه فبقوا على ذلك بعد تعظيم المسيح فهو مبثوث بينهم وفي مدنهم وأسواقهم منتشر ، يقولون : المرأة اذا لم يكن لها زوج ولم تختر الزوج وآثرت الزنى فهي املك بنفسها ولها ان تفعل ذلك ، والملك يسعر ذلك ، ويقيم له الحكام والولاة لكل إزالة تكون من الرجل فلس واحد ، وكل اربعة افلس قيمتها دانت فضة . وللقحاب في بلدانهم اسواق كثيرة ، ولهن دكاكين ، تفتح حانوتها وتزين وتجلس على بابه بارزة مكشوفة . وليس عندهم في كشف السوءة والعورة من الرجال والنساء تحريم ولا خطر ، بل المرأة الحرة منهم تزف الى زوجها راكبة فتمر بالناس في الاسواق مكشوفة الوجه والرأس ، وقد ارسلت ضفائرها وتجدلت بها ، وأبدت محاسنها كلها لينظر كل احد اليها ، ويقال ان الغالب على ذوات الأزواج العفاف ، فأما من ليست بزوجة فحالها كما وصفنا ، وربما كانت تزني في بيت ابويها ، ومن جاء من هؤلاء الزواني بولد حملته الى البيعة ان شامت وسلمته الى البطرك والمطران والقس ، وقالت : قد وهبت هذا للمسيح ليكون خادماً له وقيماً في البيعة ، فيجزونها خيراً ويقولون لها : قديسة

طاهرة مباركة ، هنيئاً لك رضى المسيح وثوابه ويدعو الناس لها ويهنئوها بالثواب ، وهناك من المرضعات والكاملات لمثل اولاد (١) الزنا هؤلاء جماعة .

وهم يأبون الختان ، / ويخصون الاطفال ، وإذا سبوا المسلمين نظروا الى اطفالهم فخصوا منهم القطعان الكبيرة وألقوهم ، فموت منهم الكثير . وهم يدعون الرأفة والرحمة وكانوا في اول الاسلام يحترزون على الاسارى لقوة الاسلام وضعفهم ليفادوا بهم ، فلما ساءت سيرة ملوك الاسلام وقلت مبالاتهم به ، وصار يغزوهم مثل علي بن حمدان (٢) سيف الدولة ، ومن بمصر اعداء المسلمين يقبضون اوقاف الثغور ، هان المسلحون على الروم ، وهم يقولون دولة الاسلام قد زالت منذ نحو ثمانين سنة ، وأنت اليوم في نحو سنة خمس وثمانين وثلثمائة .

ثم عدت الى ذكر سيرة النصارى ، وليس الخصاص من شريعة التوراة ولا إباحة الزنا لتعلم ان الروم ما تنصرت ولا اجابت المسيح ، بل النصارى ترومت وارقدت عن دين المسيح وعطلت اصوله وفروعه وصارت الى ديانات اعدائه وهو ما عليه هذه الطوائف الثلاث من النصارى ، فعلوا هذا طلباً للرئاسة وعاجل الدنيا كما قد وجدته في كتبهم وفي إقرارهم بما تقدم ذكره لك .

(١) في الاصل : هؤلاء اولاد

(٢) علي بن حمدان سيف الدولة : يقصد علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي ، ابو الحسن ، سيف الدولة الحمداني ، كان شجاعاً مهذباً عالي الهمة ، اجتمع على بابه عدد كبير من شيوخ العلم والادب وكان له مع الروم وقائع كثيرة . ويظهر ان حملة القاضي عليه لأنه كان على خلاف مع البويهيين الذين كانوا يحكون مقر الخلافة العباسية والمشرق الاسلامي وكانت له معهم وقائع وحروب ايضاً ، فالقاضي هنا يلتصق بحكومته وسلطانه .

وهذا التثليث الذي للنصارى قد كانت فلاسفة الروم تنحو نحوه من ان العقل والعامل والمعقول تصير شيئاً واحداً ، ويقولون : هو من المثلث ، وهو من فيلسوف قديم (١) . وقد قال رسول الله ﷺ : « أحب الدنيا رأس كل خطيئة (٢) » وقال كعب بن مالك الانصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ذئبان جائعان ارسلا في زريبة غم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » وقال ابن عمر : قال / رسول الله ﷺ : « ما ذئبان ضاريان في حظيرة وثيقة يأكلان ويفريان (٣) بأمرع هلاكاً من حب الشرف والمال في دين المرء المسلم (٤) » .

ومثل صنيع بولص مع الروم في مساعدتهم على دينهم ومفارقة دين المسيح صنع ماني القس ، وهو رئيس المنانية (٥) ، وهذا كان بعد بولص بالدهر الطويل ، وكانت له الرئاسة ، وصار مطراناً على النصارى بالعراق في مملكة الفرس بعد ان كان قساً ، واختلط بالفرس ، ومدح الانوار وذم الظلام على ما يذهب اليه المجوس ، ومدح زرادشت نبي المجوس ، وقال : النور اختاره وأرسله

(١) يقصد هرمس المثلث ، وكان كتاب الطبقات المسفون يذكرون ثلاثة اشخاص بهذا الاسم : اولهم هرمس الذي كان قبل الطوفان ، وهو اول من تكلم في الاشياء العلوية من الحركات النجومية وينسبون له اموراً كثيرة ، ثم هرمس الثاني : من اهل بابل وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة وطبائع الاعداد وتلميذ فيثاغورس الارماتيطقي . وأخيراً هرمس الثالث ويسمى ايضاً هرمس المثلث الحكمة ، وكان فيلسوفاً طبيعياً ويظهر ان هذا هو المقصود هنا . انظر طبقات الاطباء لابن جليل ٥ - ١٠ ، وطبقات الحكماء لابن القفطي ٣٤٦ - ٣٤٩ ، والفهرست لابن النديم ٥٠٨ تجارياً .

(٢) من حديث انس رضي الله عنه ، أخرجه رزين . انظر تيسير الوصول ١١٠

(٣) يفري : يهلك

(٤) رواه الامام احمد بن مسند والترمذي عن كعب بن مالك بأسناد صحيح . المنادي على

الجامع الصغير ٥ : ٤٤٥

(٥) سبق التعريف بماني والمنانية

الى المشرق ، وأرسل المسيح الى الغرب . وذم ابراهيم وإسماعيل والانبياء الذين صدقهم المسيح ، وكانت الفرس تبرا منهم ، فساعدتهم ماني وتقرب اليهم بذمهم وقال : الشيطان ارسلهم ، وكان من يكتب : من ماني عبد اليسوع كما كان بولص يكتب ، وكان يتشبه به ويقفو اثره . وأخذ الأبستاق وهو كتاب زرادشت نبي المجوس^(١) ، وهو كتاب ليس بلغة الفرس ولا بلغة من اللغات البتة ، ولا يدري احد ما هو وهو الزمرة ، وإنما يحكون لفظه وإن كانوا لا يدرون ما هو . فادعى ماني القس انه قد وقف عليه وعلم ما هو ، وادعى ماني انه رسول النور ، فوضع لهم جهالات ، وقال : هذا تفسير الأبستاق ، واستهوا العامة وقامت سوقه فيهم وأطاعوه ، وادعوا له بالمعجزات والآيات . فأخذه بعض ملوك الفرس ليمتنحنه ، وفتش عن احواله ، فاذا هو كذاب ومارق طالب رئاسة يتقرب الى الفرس / والمجوس بما يهونونه لينفق عليهم مما ليس هو من دين المسيح ، فقتله كما فعل ذلك الملك ببولص . وبقي اصحاب ماني بعده يدعون نبوته ويقررون رسائله وإنجيله ، ولعل رسائله تزيد على السليحين ورسائل بولص ، وكثير من هذه الطوائف الثلاث يعتقد مذهبه وما يكاد يظهره خوفاً من النصارى ومن المسلمين ممن منهم في بلاد الاسلام ، لأنه لا ذمة للمناينة عند المسلمين^(٢) .

ومن سيرتهم ان الذماء الديرانيات العابدات ومن انقطع الي البيع والعبادة ،

(١) في الاصل على هامش الصفحة كتب احد قراء التثبيث « الأبستاق كتاب زرادشت » وقد سبق التعريف بالمجوس وعقيدتهم .

(٢) في الاصل على هامش الصفحة كتب احد قراء التثبيث « لا ذمة للمناينة عند المسلمين » وقد سبق التعريف بهذه النحلة .

يظفن على العزّاب والرهبان ، ويخرجن الى الحصون التي فيها الرجال العزّاب يبيعون لمن انفسهن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة والرحمة بالعزّاب ، ومن فعل هذا منهم كان عندهن مشكوراً محموداً على هذا الفعل ويدعا له ، ويقال لها : لا ينسى لك المسيح هذه الرأفة والرحمة .

وعندهم انه لا يحل للرجل اكثر من امرأة واحدة ، ولا يحل له أن يتسرى ولا يظاً بملك اليمين ، فإن صادق امرأة أو خادمة لم يكن بذلك بأس ولا عار ، وهذا مشهور ببلاد الروم كشهرة الزنى .

ولقد تحدث مصبح الطائي ، وأبو عبد الله الحسين بن الصقر ، وعبد الرحمن صاحب ابن الزيات وغيرهم من الغزاة ، ومن اقام بالقسطنطينية السنين الكثيرة في الأسر وغير الأمر ، فإنهم لطول الشقاء وعدم من بعثت المسلمين في فساد او غزو ، اظهروا النصرانية تقية ، وانتشروا بينهم ، واختلطوا بهم . فحدث من حدث منهم بعض من تنصر من الشجعان بعد الشدة وطول الشقاء ، قال : فأعطاني الملك وأجزل وقال لخدمه وأعوانه : / انظروا لهؤلاء المنتصرة نساء من ذوي اليسار يتزوجون بهن لتحسن احوالهم ، فقال رجل منهم : فلانة قد مات ابوها ، ولها ضيعة ومواش وأموال كثيرة تزوجها بهذا ، وأشار اليّ ، فزوجوني بها . فاذا هناك جمال ومال كثير فأقمت معها مسروراً ثم ضرب الملك بعثاً على جماعة انا منهم ليخرج الى مكان فيه زرع مستحصد يخاف عليه العدو أن يمنهم منه ، ويكون مقامنا اربعين يوماً ، ثم يأتي بعدنا عسكر يقوم مقامنا ونرجع الى اهلنا . فخرجنا ، وأقمنا هذه المدة ، ثم جاء العسكر فسألت بعض الواردين عن اهلي ومنزلي ، فقال لي : قد تزوجت امرأتك بعد خروجك ، فاستثبت ذلك جيداً من ورد فأخبرت بهذا ،

فأخذني ما أقامني وأقعدني ؛ فلما رجعت الى البلد عدلت عن منزلي ونزلت سوق الدواب ، فسأل اهلي عن الواردين من اهل عسكرنا فأخبروهم بسلامتي وورودي ، فتعرفوا مكاني فلماذا ام امرأتي قد جاءتني ومعها موكب عظيم من نساء الجيران عليهن البزة الفاخرة والحلي ، فقالت لي حماتي : ما لك عدلت عن منزلك وأهلك ونزلت ها هنا ونحن نتعرف أخبارك ونشتاقك ، فقلت : وما اصنع بامرأة غبت عنها فتزوجت بعدي ، أنا عليّ أن ادخل على الملك واكسر بحضرته سيفي وأقطع زناري وأعرفه ما جرى عليّ . فقالت (١) لي اخطأ من قال هذا ، ما تزوجت امرأتك وكيف تتزوج رومية بزوجين ، إنما ذلك صديقها ، لما غبت جاء ونزل عندها . فلما علمنا بقدمك حمل فراشه وانصرف ، واستشهدت بأولئك النسوة والجيران ، فشهدن انه ليس بزوج وإنما هو صديقها ، وإذا ليس / عندهم ان بهذا بأساً ولا عاراً . ثم اقبلت حماتي تقول : لي قم الى بيتك فانظر الى المكنوز والنبيذ وما خلفته تجده لم ينقص بل هو محفوظ موفر ، وإذا هي تبشرني [فيما إذا] (٢) أن صديق امرأتي قد كفاني مؤونتها في غيبي وتسرني بهذا أو تمن به عليّ . وقال اولئك النساء وهن حليلات وأزواج كبار الناس ، قم عافاك الله الى بيتك ، فما ها هنا شيء يكره ولا ينكر ، فقمت وحملت اثقالتي وصرت الى منزلي وأنا مقيم على امرأتي ، وما اجد شيئاً ، وزالت الغيرة . ثم قال يا ابا الفتح : ما يدخل احد بلاد الروم إلا وقد طابت نفسه باتخاذ امرأته الأصدقاء ، وزال عما كان عليه واحت الغيرة من قلبه ، وزال عن الحمية وما كان عليه وهو مسلم .

(١) في الاصل : فقال لي
(٢) هكذا وردت العبارة في الاصل

فإن قالوا : مبتدع في دين النصرانية كما مثل ذلك مبتدع في الاسلام ، قيل له : إن الروم قد كانت قبل التنصر تأكل الخنزير ، وتستعمل الخصاء ، وتغزو الامم ، وتسي وتقتل وتسترقت ، وتجرى في الزنا ما قد ذكرنا ، وتسير السيرة التي وصفنا . ولما تنصرت دامت على تلك السيرة فما زيلتها ولا زالت عنها ، ففحق كان هذا الابتداع . ولا فرق بين من ادعى هذا ، وادعى ان الروم كانت على خلافه ورجعت اليه لما تنصرت ، ومن انتهى الى هذا فقد جحد وكابر وليس مع المكابرة مناظرة .

ومما يحتاج به النصارى وهو اكبر شبههم في دينهم ، وأجل ما يلجئون اليه ، وهو عمدة الخواص والعوام منهم ، ان يقولوا : النصرانية دين صعب ضيق ، قد أجابت اليه الأمم الكبيرة والملوك بلا إكراه ولا سيف ولا قهر ولا غلبة ، وما كانوا ليجيبوا الى ذلك إلا بالآيات والمعجزات التي ظهرت على أيدي / الدعاة اليها من الرهبان والرواهب .

قيل له : قد بينا وعرف تبديل النصارى لدين المسيح وميلهم الى ملوك الروم ، وقد شرحنا ذلك وعرفناه ، فلا نجد إلا النصارى ترومت ولم تقتصر الروم . وأصل طوائفكم هم الروم ، فهذا شاف كاف . ولو لم نعلم هذا وكيف الحيلة فيه من اوله الى آخره لما كان يشكل علينا ايضاً بطلان هذا الاحتجاج وفساده ، وأن اهل هذا الدين لا يظهر الله على ايديهم معجزة ، ولا ينقض على يد احد منهم عادة ؛ كيف والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام وفي زمانهم .

ثم يقال للنصارى : إنكم ادعيتم الصحة لدينكم بالكثرة والملوك الذين تدينوا بدينكم ، والكثرة لا تكون دلالة في صحة الديانة ، وإنما يدل على

صحة الديانة الحجة والبرهان لا غير ذلك ، سواء كان اهل ذلك الدين قليلا او كثيراً . وقد كان المسيح ومن اتبعه قليلا والروم واليهود هم الاكثر وأصحاب الملك ، فبدل هذا على قياسكم انه لم يكن له معجزة . ثم يقال لهم : انتم تدعون المعجزات والآيات لرهبانكم ورواهبكم ورؤسائكم في كل زمان وأنها لا تنقطع ولا ترتفع ، وما انتم قد أجبت الى هذه الديانة ولم تروا معجزة ولا آية ، فكذا من قبلكم قد أجاب على هذه الصفة وفي هذا أتم كفاية لمن أراد الحق .

وهم في كل حين يجتمعون اذا ارادوا امر تحليل شيء او تحريره ، ويكون لهم فيه سنهودس^(١) ، وتفسيره الاجتماع للتقرير ، فيفعلون ذلك ، فاذا تقادم عهده ، قالوا : هذا ما حرّمته تلك الجماعة إلا بظهور آية او معجزة / ، ألا ترى ان الجثالة والمطرنة^(٢) قد كانت جائزة عندهم فيمن له الأهل والولد ، فصار الجثالة والرؤساء يعملون الرئاسة في اولادهم ويوصون بها في ذريتهم ، فاجتمع النصراني وعقدوا تحريرا فيمن له اهل وولد وعرف التزويج ، فصار ذلك ديناً لهم فاجتمعوا عليه وعملوا به من غير آية ولا معجزة .

وقد كان تزويج الأختين بالأخوين مباحاً عندهم ، فجرى من أختين كانتا عند اخوين عداوة ادت الى معاداة بين الأخوين ، فاجتمعوا وحرّموا ذلك ، وصار لهم ديناً يعملون به وان لم يروا فيه آية ولا معجزة . وقد كان تزويج بنت الأخ عندهم مباحاً فجرى فيه نسب استنصر به بعضهم ، فاجتمعوا

وحرّموا ذلك ، فصار لهم ديناً بغير آية ولا معجزة . وهذا منه ما فعلوه قريباً وفي الاسلام في دولة بني العباس . ومثل ما فعل مطران سمرقند فأنه حرم على اهلها الفراح وزعم ان روح القدس تنزل في هذه الحمامة ، فقبلوا ذلك منه وصيروه ديناً .

واذا اختلطت بهم وفشتهم ودخلت بينهم ولايست الجثالة والرهبان وجدت هناك من الكذب والجهل والحرص على الدنيا وطلب الرئاسة والجمع والمنع أموراً كثيرة ، فان الواحد منهم يترهب وما معه شيء ويصير كلا على غيره ، وما تمر الأيام حتى صار ذا مال كثير حتى ربما مات عن عشرات الوف ، ثم يقال لهم : انتم طوائف كثيرة وبينكم خلاف كبير في اصل الديانة ، تضلل فيه الملكية اليعقوبية ، وكذا الذسطورية لا ترضى مذاهب الملكية واليعقوبية ، وكل هذه الطوائف تدعى لرهبانها / ورواهبها ورؤسائها المعجزات والآيات ، وكذا المناذبة ، فعلى قياسهم الحق في طائفة واحدة والباقية كذبت فيما تدعيه لهم .

وقد قال بعض الحكماء ها هنا ديانات ومقالات تعرف كذب اهلها بأدنى تأمل :

منها : النصرانية ، فانهم يدعون الآيات لكبرائهم ، وانها لا تنقطع في زمان من الأزمنة ، وان الذين اجابوا الى النصرانية انما اجابوا بالمعجزات ، فيقال لهم : انتم اجبتم اليها ولم تروا آية ولا معجزة .

ومنها ، اصحاب النجوم ، فانهم يخرقون ويدعون بالاصابات لأوائهم ، فيقولون : حكم جنان لكسرى بالدول وانتقالها ، ولعلوك في موالدها ، فما أخطأ في حرف واحد ، وكذا كنكه منجم الهند للوك الهند ، وكذا

(١) كتب في الحاشية : تفسير سنهودس
(٢) الجاثليق بفتح الفاء : رئيس للنصارى يكون تحت يد بطريق انطاكية ، ثم المطران تحت يده ، ثم الاسقف ، ثم القسيس ، ثم الشماس .

ذوروثيوس ملوك الروم ، وبطليموس ملوك القبط ^(١) . وربما عملوا بذلك كتباً ، وقصدوا الى دول وبمالك قد كانت ، ووجدت ، وعرفت الحوادث فيها وأعمار ملوكها الخاصة والعامة ، فيذكرون الجمل منها ولا يفصحون بأسماء ملوكها ، لئلا يعرف فيه كذبهم . فيقرأ هذه الكتب والدفاتر الغر الغافل عن احتيال المحتالين او تقرأ عليه ، فيظن ان هذا قد ذكره المنجمون في سالف العصر قبل ان يكون ، فيعتقد في أحكام النجوم الصدق ، وان اهلها قد تكلموا بعلم . فيقال لهم : إن الكواكب والسماء ما ارتفعت ولا زالت ولا انتقضت ، وهي كما كانت ، فهاتوا واخبرونا عما سيكون ، او عما قد كان ووجد مما تشاهدونه بعيونكم ، وتلمسونه بأيديكم ، فلما نعد الى دفتر ضخيم مكتوب فيه فنقول لحذاقكم : خذوا طوالمكم وأخبرونا / كم ورقة هو ، وكم سطر في كل ورقة فلما نجد كذبكم فيه عياناً وحساً ، وما تحتاجون الى الإخبار عن نجم يطلع بعد سنة او عشرين سنة ، وتخبرونا عن تلك الحوادث ، فلما قد قربنا الأمر عليكم لتعلموا ان هذه الدعاوى كذب ومخاريق وحيل على الناس ، ولتعملوا بكذب أولكم وآخركم .

فلما قالوا : لم تقتصرونا منا على العلم بورق هذا الدفتر دون الأسطر والحروف التي فيه ؟ قلنا : إن مثل هذا وأكبر منه قد يصيب فيه الصبيان والجهال الذين يلعبون بالخاتم والزوج والفرد بالاتفاق ، فهاتوا ما يتجاوز اصابات الصبيان والجهال والجهانين ان كنتم صادقين ، وان كان صنعتكم حقاً ؛ وهذا ما لا سبيل لكم اليه ، وفضيحتكم فيه كفضيحة النصارى ،

فان قالوا : قد يكون لنا اصابات في مواليد ومسائل ؟ قلنا : قد يكون

(١) انظر ترجمة كنيكه الهندي في الفهرست لابن النديم ص ٣٩٢ ، و ترجمة ذوروثيوس (في الاصل ذروسيوس) في الفهرست ص ٣٨٩ ، وكذا ترجمة بطليموس ص ٣٨٨

ذلك في قليل من كثير تخطئون فيه ، وفي جمل دون تفصيل ، والذي يأتي به الأنبياء فلا يخطئون في شيء منه مع كثرة ، والذي يتفق لكم من ذلك كما يتفق للتعاب الذين ذكرنا ، وكما يتفق لأصحاب الفأل ولمن يضرب بالحصى والبعير بالنظر في الكف وبزجر الطائر ، وما يتفق لهؤلاء من الإصابة أكثر من الذي يتفق لكم ، وهم فيه أسرع ، وأحوالهم فيه أكشف ، وكما يتفق لبعض من يلقى الثعلب من السعادة ، ولمن يلقى البوم من الهنة ، وكما يتفق في رقى الهند والنصارى والمزمنين من العافية والإفاقة ، فيدعي اولئك ان هذا انما كان عن رقام وعزائمهم ، وان ما هم عليه حق ، وانهم قد نطقوا / بعلم .

ومنها ، اصحاب الطلسمات ^(١) ، فانهم يمحرقون ويقولون : إن الاسكندر شكا الى أرسطوطاليس بعد الماء عنه وعن عسكره عند لقاء عدوه ، فعمل له طلسماً سار الماء بمسيره ووقف بوقوفه ، وانه قال له وقد ورد على بحر إن تشاغل بمعبوره أبطأ عليه وفاته إدراك عدوه ، فقال له : أيما احب اليك ايها الملك ، ان اعمل طلسماً تسير بعسكرك على وجه الماء كما تسير على وجه الارض ، او اجمع بين الشطين لتعبه ، فقال : تجمع بين الشطين فانه أقرب في المسافة ، فجمع له بين الشطين فعبه .

وأن غيروا حد قد عمل طلسماً للقطعان من البقر والغنم وأمثالها من الحيوان ، فتعبته وسارت بمسيره . وأنهم يعملون الطلسمات للبق والمقارب

(١) الطلسم والطلسم في علم السحر : خطوط واعداد يزعم كاتبها انه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية والطبائع السفلية لجلب محبوب او دفع أذى ، وهو لفظ يوناني ، وقد يقصد به الغامض المبهم من الامر .

والجراد وغير ذلك ، فيصرفونها عن بلد بلد ؛ وأن من عرف صنعة النجوم تأتي له ذلك .

فقيل لهم : هذه كلها غاريق ، وإذا أردتم ان تعرفوا كذب اوائلكم فاعرفوه بكذبكم في زمانكم ، فإن الكواكب ما بقيت ولا زالت ، فهانوا شيئاً من هذا ، وفي تعذره عليكم دلالة على كذبكم وكذب اوائلكم .

فإن قالوا : بلاد حمص لا يكون بها عقرب ، وإن دخلت إليها عقرب ماتت وإنما هذا طلسم عمل لها ، قلنا : قد بينا كذبكم حساً كما بينا كذب النصارى والمنجمين ، فإن كانت حمص لا يعيش بها عقرب فإن هذا من فعل الله تبارك وتعالى ، قد يميت بعض الحيوان إذا صار في بعض الأماكن لتدبير له عز وجل هو اعلم به ، والمصلحة فيه . ألا ترى ان بلاد الروم لا تكاد تبقى بها الجمال مع حرصهم في بقائها ، حتى قال من لا يعلم : ان هذا لشدة البرد ، فقيل له : فبلاد الترك / أشدّ برداً وبها الجمال ، والأتراك بالري (١) إذا قطنوا بها فما يكادون يبقون بل يتماوتون ، والاصفهاني إذا أراد السفر الى الري اوصى . وما هذا الطلسم ، وأرض مصر وغيرها من مواضع شق لا يكاد يكون بها مطر . وما ذاك الطلسم ، وأرض العراق مع كرمها وطيب ماثها لا ينبت بها الفلفل ، ولا الدار فلفل ، ولا العود ولا الزنجبيل ولا الدارصيني ، ولا الزعفران ، ولا سنبل الطيب ، ولا يكون في انهارهم العنبر.

(١) الري : بلدة عظيمة في ذلك الوقت ، فتحها المسلمون في خلافة عمر رضي الله عنه ، واصبحت حاضرة اسلامية في القرن الرابع الهجري حتى لقد فاقت بغداد نفسها في كثير من الاحيان . انظر : ابن الاثير الكامل ٩ : ٢٣٥ ، السمعي الانساب ٢٣٢ ، احسن التقاسيم للمقدسي ٣٨٥ - ٣٩٠

او ترى هذه الطلسمات وضعت بالعراق وأثاث البغال لا تكاد تحمل بل لا تكاد تهيج . أفترى هذا الطلسم وأودية العراق لا يكون فيها التمساح ، وهو بمصر كثير . أفترى هذا الطلسم وضع بالعراق لئلا يكون فيه هذا ، او وضع بمصر حتى لا يفارقها . وهذا التمساح في نيل مصر ، وهو في بعض المواضع بها دون بعض ، وبأرض الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى ومصر والقيروان ، وهذه كلها أمصار اسلامية ، ووضعت في الاسلام ، وخطت في الاسلام ، فحدثت امور كثيرة في احوال الحيوان ابداع مما يدعونه لحمص وغيرها بلا طلسم .

والجوس تدعي ان لهم منتظراً حياً باقياً مهدياً من ولد بشتاسف بن بهراسف يقال له أبشاون (١) ، وانه في حصن عظيم من خراسان والصين ، ومعه كثير ، كلهم ثقات امناء اخيار ، لا يكذبون ولا يعصون الله ، ولا يقع منهم خطيئة صغيرة ولا كبيرة ، وأن دعوتهم مجابة (٢) ، ولهم دلالات وآيات ومعجزات ، وانهم صاروا الى ذلك المكان عند زمن زرادشت الذي تدعي نبوته ، وانهم انوار ساطعة ، وانهم من الجمال والحسن والنظارة على امر عظيم ، وأنهم لا يكون ولا / يهرمون ولا يموتون ، وأن أبشاون لا يحتاج الى اكل ولا الى شرب ، ولا يكون منه بول ولا غائط ولا شيء من الأذى . هذا الذي أتقنه مما قد ذكره أذرباذ بن أميد الموبد في وصفه أبشاون ، انه لا يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يتغوط ، فأما اصحابه

(١) في الهامش كتب الناسخ ما يلي : « الجوس ينتظرون رجلاً من ولد بشتاسف يقال له أبشاون .

(٢) نشأت في ايران فكرة كان لها اثرها في كثير من الديانات هي فكرة المخلص او المهدي الذي سيعود يوماً الى العالم ليزيل الشرور ويحل العدل محل الجور وينقذ البشر .

فلست اتيقن انه وصفهم بأنهم لا يأكلون ولا يشربون ، ويغلب على ظني انه قد وصفهم بذلك ، فأما العصمة وان اصحابه بمثابة ، فما اشك فيه .

فقبل للمجوس : اذا شئتم ان تعرفوا اول امركم فاعتبروه بآخره تجدون بطلانه واضحاً بيناً ، كما يجدونه النصارى والمنجمون^(١) وأصحاب الطلسمات . فإنكم تدعون ان قوماً في زماننا هذه صفاتهم وأحكامهم ، وعليكم في هذا فضل مزية في الباطل ، فإنكم امم كبيرة قديمة تجبرون بكون هؤلاء في الدنيا معنا وفي زماننا ، وانهم يخرجون مع ابشاون هذا فيكلمون الارض كلها ، ويعيدون المجوسية وديانات الفرس وملكها الذي أزاله الاسلام كما كانت . فقد كان ينبغي ان كان هذا في الدنيا هاهنا قوم يدعونه ان نعلمه بخبركم ، وفي عدم العلم بذلك دليل على انه امر لا اصل له ، وما في الدنيا انسان يدعي هذا ، ولكنه شيء وضعه لكم الواحد والاثنان والنفر اليسير ، فصدقتموه واحسنتم الظن بهم ، وانتشر فيكم ، وهو كذب وانتم لا تعلمون انه كذب ، كما اصاب النصارى وغيرهم من كانت هذه سبيله .

وكذا لمن ادعى ان معنا وفي زماننا إماماً معصوماً قد أقيم لنا وهو الحجة علينا وعلى اهل الارض بأسرهم ، قيل لهم : انتم امم كثيرة عظيمة بالعراق والشام وبفارس وبمصر والمغرب والحجاز واليمن والبحرين وكور الأهواز / وبالجبال والديلم وخراسان وكلكم نخبرنا بأن في الدنيا رجل هذه سبيله ، ويدعو الى نفسه ، وكلكم اصحابه وينتظروه ويدعو اليه . وتصنيف الكتب في ذلك قد ملأت الدنيا ، ونخاصم في ذلك ، فلو كان في الدنيا انسان هذه

سبيله لعلمنا ذلك بخبركم وبما نسمعه منكم وان لم نصدقه فيما ادعى ، ولم نقبل قوله ولم نر شخصه ، وان لم نسمع كلامه . ألا ترى ان نبينا محمداً^(١) لما ادعى انه رسول الله الى الخلق اجمعين وانه الحجة عليهم علم ذلك من دعواه كل من بلغه خبره ممن صدقه او كذبه ، ومن رآه ومن لم يره ، وكذا العلم بمسيلة وما ادعاه وان كذبه الناس كلهم . بل لو اخبر جماعة عن امرأة من وراء حجاب بصلاح او طلاح لعلم الناس ذلك بخبرهم اذا كانوا عالمين بما أخبروا ، فكيف وانتم امم كثيرة عظيمة قد طبقت الارض والبحر والسهل والجبل ، تعتقدون ذلك ، وتجبرون به ، وتدعون اليه ، وتزعمون انكم اصحاب هذا الرجل واتباعه ، فلا يزداد من تأمل ونظروا اعتبر إلا علماً بأن ليس في الدنيا انسان يدعي ذلك ولا يدعو اليه . فلو نظرتم وانصفتم لعلمتم ان اول امركم مثل آخره في الباطل ، وان النبي^(ص) ما تدين بما تدعون ولا دعا اليه . لا هو ولا احد من اصحابه .

فإن قيل : فلو قال لكم قائل وأنتم ايضاً اول امركم مثل آخره ، إذ ليس في زمانكم من معه معجزة ولا آية ، فأولكم هذه سبيله ما كان يكون جوابكم ؟

قيل له : لا سؤال علينا في هذا ، لأننا نمنع ان يكون مع احد بعد نبينا آية او معجزة ، وما ندعي انه آية ومعجزة فهو ما علمه كل من سمع الاخبار ، وهو هذا القرآن وما جاء بحجج القرآن ، ونقول : لا حجة على الخلق إلا رسول الله^(ص) وحده ، فعرفت الفصل بيننا وبين من ذكرنا .

(١) في الاصل : محمد

(٢) في الاصل : فقد

(١) في الاصل : المنجمين

وجواب آخر ، وهو ان كل من سمع اخبار النبي عليه السلام فمن صدقه او كذبه يعلم باضطرار انه كان يدعي النبوة ، ويدعي ان معه آيات ودلالات ومعجزات . فان قالت النصارى : نحن اولنا المسيح وهو سلفنا ، وأنتم تقولون ان معه آيات ومعجزات ، فكيف قلتم ان اولنا مثل آخرنا ؟

قيل لهم : ومن سلم لكم ان المسيح عليه السلام سلفكم ، ونحن فقد دفعناكم عن هذا ، وبيّنا انكم قد خالفتم المسيح عليه السلام في أصوله وفروعه ، ونقضتم عهوده ، وعطلتم وصاياه بياناً لا يمكنكم دفعه ، ونحن فيما علمنا ان المسيح نبيّ وانه قد كان معه آيات ومعجزات بقولكم ، ولا بنقلكم ، ولا بدعواكم ، وانما علمنا ذلك بقول نبينا صلى الله عليه ، ولكن ادعيتم ان هذه الأمم ما اجابت الى النصرانية إلا بالآيات والمعجزات التي ظهرت على يولص وجورجس وأبا مرقس وأمثالهم ، ودونتم ذلك في كتبكم كما دونته المنائية والمجوس وغيرهم ، وادعيتم ذلك في كل زمان ، والناس معكم ويشاهدونكم فلا يرون لذلك اصلاً ولا اثرًا ، ولا يرون إلا السيف والقهر والعسف وان اول هذا الامر ما كان إلا بالسيف والقهر كما قد بيّنا ، وهو قائم باق ما زال ولا حال بل زاد ، ونحن فقد وجدناكم نزلتم على اهل المصيبة ، وعين ذرية ، وجزيرة اقريطش ، وجزيرة قبرس ^(١) ، وجزيرة أرواد ، والثغور

(١) في الاصل : قفرس ، اما عين ذرية فقد اثبتتها ياقوت بالالف المقصورة ذرية وقال : بلد بالثر من نواحي المصيبة ، والمصيبة وطرسوس من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم . اما اقريطش (كريت) فهي جزيرة بالبحر المتوسط ، اول من غزاها من المسلمين معاوية ثم فتح قسماً منها الوليد بن عبد الملك وتم فتحها بأمر المأمون الخليفة العباسي . وارواد جزيرة صغيرة في البحر المتوسط مقابل طرطوس من سوريا . ومميطاط او مميطاط مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات . وحصن منصور من اعمال ديار مصر غربي الفرات قرب مميطاط . وميمون او سيمان نهر كبير بالثر من نواحي المصيبة قرب انطاكية .

الشامية ، والثغور الجزيرية ، وثغور ارمينية ، وأذربيجان ، وما يكثر احصاؤه / ، وما قد قدره اهل الخبرة الى هذه الغاية ، ومقداره الف فرسخ منائر ، وعمارته متصلة ومقدار السبي والأسر نحو عشرين الف الف انسان ، لا يقرون على الاسلام ، بل يدخلون في النصرانية كرهاً ، بالرهبة والرغبة ، وكذا من دخل في ذلك من البرغر والبرجان كله بالإكراه والسيف ، وإن طالبت مدته ، وتناسى الناس كيف جرى ذلك .

وادعيتم أن هؤلاء انما دخلوا في النصرانية بالآيات والمعجزات ، وأن البطررك وافى من بلاد الروم ، فنزل وجذده وعليه الجوزبا والكتين والودار وعلى رأسه القبع وفي يده الكرار ، فأقام موتاهم من المقابر ، فقاموا بأسرهم من تلقاء انفسهم وصاروا الى بلاد الروم . ووافى ميخائيل الراهب الى اهل المصيبة فقلب سيحون زيناً ، وجعل اغنامهم كلها خيلاً ، فقاموا كلهم من تلقاء انفسهم فقبلوا الصليب ، وصاروا الى بلاد الروم . وكذا اهل مميطاط وحصن منصور ، فليس عندهم في الكذب والبهت شيء ، وهم قوم يكذب لهم رؤساؤهم فيقبلون ذلك الكذب عنهم ، وقل مصر من هذه الأمصار وثغر من هذه الثغور إلا وقد ترددت اليه ملوك الروم السنين الكثيرة ، ونزلوا عليه الأعوام المتوالية، ورعوا زروعهم وحصروهم ومنعواهم الأقوات، حتى اكلوا الكلاب والسنانير والميتة ، وقتلوهم جوعاً وعطشاً ، وقتلوا مقاتلتهم ، وسبوا ذريتهم ، وقادوهم بالسلاسل والحبال ، وأزّلوا بهم من المكارة ما يطول شرحه ، وكذا امرهم من اوله الى آخره . وليس / سيف حُميل بباطل في جميع الأزمان مثل سيف النصرانية كما قد بيّنا ذلك ، وحيث لا يكون لهم ملك ولا سيف فإن من أسلم منهم يمنعونه اهلهم ، ويبطلون ديونه ، ويذمونهم بكل فاحشة ، ويسعون في كل ما يقدرون عليه

من مكارهه واضرارہ ، وهذا ايضا ضرب من الاكراه .

ثم يقال لهم : هذه المثانية قد غلبت على المشرق ، وليس معهم سيف ولا مال ، ويدعون ان دينهم اضيق الاديان وأصعبها ، وأنهم لا يأكلون اللحوم ولا يؤذون شيئاً من الحيوان ، ولا يأكلون إلا ما انبتته الارض . وعبادتهم من الصوم والصلاة كثيرة عظيمة ، ولا يدخرون الأموال ، ويدعون ان المعجزات اضطرتهم الى هذا الدين ، وهم يدعون ان المستبصرين من رهبانكم ورؤوسائكم منهم ، ويدعون هرايدة المجوس^(١) . قالوا : ولكن ليس لنا عند المسلمين ذمة كما لليهود والنصارى والمجوس ، ومتى أظهرنا لهؤلاء ديننا قتلونا ، قالوا : وكذا يصنع بنسا ملوك الروم . ويذكرون من آيات ماني ومعجزاته انه كان نوراً خالصاً كله وأنه لم يكن له في الشمس ظل ، وأن الملائكة كانت تأتيه وتحمله حتى تصعد به الى الشمس فيصير فيها ، وأصحابه يشاهدونه ، وأنهم نقلوا ذلك الجمهور عن الجمهور ، والجماعات عن الجماعات ، ويدعون لأتباعه المعجزات ، ويدعون مع ذلك انهم اصحاب المسيح وعلى دين المسيح ، وأن الانجيل الذي معهم هو الحق دون ما معكم ، فينبغي ان يكونوا على قياسكم محقين ، وأن ذلك انما تم لهم بآيات ومعجزات كما ادعيت ذلك ، ولهم كتب مدونة في آياته ومعجزاته ، ولعلها / اكثر من السليحين الذي لكم ، ومن الآيات التي تضيفونها الى جميع من دعا الى النصرانية ، منذ كانت النصرانية .

وهذه الهند ، وهي امم عظيمة لعلها تزيد على امم النصارى^(٢) ، ولهم

العقول والحكم التي لا تكاد تدانيها عقول الارمن والروم ، يعبدون البدعة قبل تنصر الروم بالدهور الكثيرة ، وليس يدعون الناس باتباعهم لا بسيف ولا برغبة ولا بالرهبة ، ومن دخل فيه لم يمنعه ، وهم يدعون ان اصنامهم تكلمهم وتأمروهم وتنهاهم ، وتبدرهم بالأمور قبل كونها ، وتأتيهم بالأمطار وما يسألونها من الرخاء والنعم ، وتدفع عنهم السوء ، وتشفي مرضاهم ، ويحملون زمنامهم على الجنائز الى سوق الاصنام فينقحون ويرجعون على اقدامهم ، ويدعون انها تحيي الموتى ، ولهم رقي يدعون انها تشفي وتحيي ، فينبغي ان يكون هؤلاء محقين صادقين .

والمجوس تدعي لزراشت من المعجزات والآيات اكثر مما يدعيه النصارى لمن دعاهم الى النصرانية ، ويقولون : نحن لا نكره احداً على الدخول في ديننا ولا نرغبه فيه ، وهو دين خصنا الله به ، فمن دخل فيه لم نمنعه ، وإنما نقاتل ونحمل السيف على الامم لتأدية الخراج والدخول في الطاعة فقط ، فأما لأجل الدين فلا نحارب . وعقول الفرس وحكمتها وتحصيلها قد عرفه الناس ، وكثرة وسع ممالكها فوق ممالك الروم بطبقات ، فينبغي على قياسكم ان يكونوا محقين وصادقين .

فان قلت لهم : لكم ملوك عتاة جبابرة هم ادخلوكم بالقهر والسيف والرغبة والرهبة في هذا الدين ، قالوا لكم : أما الدين فما تعرضوا لإدخال الناس فيه ولا / اشتغلوا به ، وإنما كان أخذهم للناس بالسمع والطاعة والخضوع للملك ، وهذا معروف .

والعيان والموجود من دين النصرانية وما عليه هذه الطوائف لهم القهر والغلبة والسيف منذ كانت الى هذه الغاية ، وما هاهنا سيف حمل بباطل إلا

(١) كتب المعلق على هامش الكتاب : هرايدة المجوس .

(٢) في الاصل : للنصارى

سيف النصرانية من اول امرها الى هذه الغاية .

حامل السيف وإن كان محقاً .

وعلى ان ديانات المنانية اضيق من ديانات النصرانية لأنهم يحرمون اكل جميع الحيوان وركوبه وأذيته بكل وجه ، حتى أنهم يحرمون قتل السباع والحيات والعقارب ويصبرون على أذيتها ويحرمون ادخار الاموال ، ويوجبون من الصوم والصلاة اكثر مما توجبه النصرانية ، ويحرمون المناكح كلها ولذات النفوس ، فيلبيغي ان يكون دين هؤلاء هو اصح من النصرانية بألف طبقة .

والهند لها عبادات كثيرة وزهد عظيم ، لا يدانيه ما يفعله أزهد رهبان النصرانية . [والهند لها عبادات كثيرة] (١) وتوجب في دينها قتل انفسها ، وتحرق انفسها بالنيران وهم احياء ، واذا مات رئيسهم احرقوه واحرقوا معه احبابه واصدقائه وخاصته وزوجته ، يفعل ذلك بها ابوها وامها واهلها ، وليس في دين النصرانية شيء من هذا ، فيلبيغي ان يكون دين المنانية هذا (٢) اصح من مذاهب هذه الطوائف النصرانية /

على انا لا نعرف ديناً اوسع ولا ارحص ولا اسهل من دين النصرانية ، إذ ليس فيه زاجر مخوف كالحدود المكتوبة ، ولا النار ، ولا عذاب الآخرة ، وان اشد العذاب في الآخرة ان المعاند الذي قد عرف الحق وتركه ، يلحقه غمّ مدة ثم ينجلي وينقضي ، فأما من لم يعاند ، وان اخطأ ، وان كان مع اعتقاده مخالفاً لدين النصرانية فليس عليه خوف ولا عقاب ، اذا كانت نيته سليمة واعتقد الشيء على انه حق وان كان باطلاً . واما النصرانية فليس

وقد دعا واحد من اليهود الخزر وهم امم كثيرة فأجابوه ودخلوا في دينه عن قرب ، وفي ايام بني العباس ودولتهم ، ولو أراد مريد ان يدعي أنهم إنما اجابوا إلا بالآيات والمعجزات كما يدعي النصراني لمن تنصر لأمكنه ذلك وكان اولى بالشغب من النصراني ، فإن هذا رجل واحد قصد الى ملك عظيم الشأن ، والى قوم اولى بأس شديد ، فأجابوه بلا غلبة ولا سيف ، وتحملوا ما في شريعة التوراة من الشدة بالختان والوضوء وغسل الجنابة وتحريم الأعمال في السبت والأعياد ، وتحريم ما في هذه الشريعة من الحيوان ، الى غير ذلك . ولعل اليهود تدعى لهذا الداعي الآيات والمعجزات ، فمنهم من يميزها للصالحين منهم وهذا اولى بالشبه مما تدعيه النصرانية ، ولكن النصرانية اكذب وأشدّ جرأة على ادعاء ما لم يكن .

ثم يقال للنصارى : ادعيتم لدينكم الضيق والصعوبة ، وقلتم : هذا أحد الأدلة على صحته وعلى ان الامم لم تقبله ولم تدخل فيه إلا بالآيات ، فقد عرفنا من قولهم في الآيات ، ولو كان ضيقاً صعباً شديداً لما دل ذلك على صحته فإن دعواهم هذه كدعواهم المعجزات . / وليس يدل على صحة الدين ضيقه وصعوبته ، بل ربما احتال الممخرق والمبطل على صحة ما يدعو إليه بالتصوف والتشفيع وكثرة العبادة والمضايقة فيما يدعو إليه الى ان يتمكن ، ثم يظهر مساوئه ، ويكون ذلك له شبهة على من يرى ذلك ويسمعه ، والنفوس ترحم المتصوف والمتشفيع الموصل للصلاة والصيام وإن كان مبطلاً ، ويحسن ظنهم فيه ، ويسرّهون الى القبول منه قبل النظر في حاله ، ويكتفون بما يظهر منه عن البحث عن حاله ، وفي النظر والبحث شدة ومشقة ، وتنفّر نفوسهم عن

(١) لعل العبارة مكررة من النسخ

(٢) في الاصل : وهذا ، ولعل السياق يقتضي حذف الواو .

عليهم خوف ، ولا يؤخذون بذنب من الذنوب ، وقالوا لأن الرب الذي هو الأب (١) إنما ارسل ابنه ليصلب ويقتل ليحمل خطايانا ويغفر ذنوبنا . فليس دين يغري بالقبيح ، ويبعث على ارتكاب الفواحش ، ويهيج على الفساد اكثر من دين النصرانية ، وهم يدعون فيه الضيق قعة منهم ومباهة ، وهو كما ترى ، وإنما يدعون لأهله ولما دعا اليه المعجزات لأنه ليس فيه حجة ولا على صحته دلالة .

ثم نقول للنصارى : اعندكم ان من حمل السيف كان مبطلا؟ فإن قالوا: نعم، قلنا : فالمسيح اول المبطلين ، لأنه (٢) عندكم ارسل موسى عليه السلام وغيره من الانبياء بالسيف وقتل الرجال والنساء المخالفين له ، واحل له في بعض الحروب قتل الرجال وكل امرأة ضاجعت رجلا واستبقاء الأبرار ، واحل له الغنائم واخذ الاموال ودفعها الى بني اسرائيل ، وكذا سائر الانبياء الذين تتولونهم وتقولون إنهم على الحق ، الى ان جاء المسيح وظهر للناس / وقال : ما جئت مخالفا لموسى ولا للتوراة وإنما جئت متمما ، ولأن تسقط السماء على الارض ايسر عند الله من ان يحمل شيء مما عقده موسى ، ومن حل ولوالدي هو ، واخذ من ناموس موسى يدعى ناقصا في ملكوت السماء (٣) . ثم ليس عند هؤلاء اخذ الجزية ممن ملكوه وقدروا عليه ولا إقراره على

(١) في الاصل : الابن

(٢) في الاصل : لأنهم

(٣) جاء في الإنجيل متى الاصحاح الخامس فقرة ١٧ وما بعدها : « لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فاني الحق أقول لكم الى ان تزول السماء والارض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السماء » .

دينه ، وليس إلا الإجابة الى الدين أو القتل ، وهذا اعظم وأشد وأغلظ من دين الاسلام وشريعته .

ونراكم تدعون للمسيح الرأفة والرحمة ، وتزنيه عن فعل الألم والشدائد والمضار والهموم ، وهو عندكم قد شرع التوراة واحكامها وحدودها، وغرق اهل الارض في طوفان نوح ، وعندكم ان هذا الموت والجذام والبرص والعمى والصمم وإنزال الجرب والاسقام وانواع الألم بالبهايم التي ما عصت من فعله ، ثم اباح ذبحها واكل لحومها وإيلامها بالكبد والركوب والحمل عليها الى غير ذلك مما قد فعلوه ، فأين الرأفة والرحمة ، وأين هذا ما أباحه نبينا محمد ﷺ من قتل من كفر بالله وافسد في الارض ، هذا ولو (١) كنتم ترون المسيح نبيا مرسلما لما وجب ان تعيبوا حمله السيف لأنه قد جاء وصوب حمل الانبياء قبله للسيف ، واباحة الحيوان ، وان الامراض والاسقام من الله ومن قبل الله ، فكيف وانتم [تدعون ان الفاعل لذلك جميعه هو المسيح] (٢) فما سمع يقوم هم اجهل وأوقح وأبهر من النصارى ، إذ هذا قولهم وهم يعيبون حمل محمد ﷺ السيف على من كفر بالله وعبد الاوثان والكواكب والنيران من دون الله وكذب بهم / ويهتهم اكثر من هذا . فإن قالوا : إن هؤلاء الانبياء حملوا السيف بأمر الله ، قيل لهم : فقد بطل ان يكون حمل السيف باطلا من كل وجه على ما ذهبت إليه ، ووجب ان يراعي حامله ، فإن كان قد حمله بحجة كان محقا . فينبغي ان ينظروا في اعلام محمد ﷺ ومعجزاته وآياته ،

(١) في الاصل : لو ، وقد أضفنا الواو لما يتطلبه سياق الكلام .

(٢) وردت هذه العبارة في الاصل على النحو التالي : « تدعون انه هو الفاعل لذلك جميعه المسيح له » .

ويعلموا^(١) انه مثل من تقدمه من الانبياء .

وتدعون التصوف والتقشف وطول الصيام والصلاة ، والنهي عن حمل
السيف . وليس في دين النصارى والمنانية والديسانية واشباههم حجة ، فهم
يخدعون الناس بلبس الصوف وإظهار الزهد .

ومثل هذا من جهلهم وغاريقهم انهم يعيبون محمداً ﷺ باتخاذ النساء ،
وهم يعلمون ان آدم ونوحا و ابراهيم ولوطا واسحق ويعقوب والأسباط
وموسى وهرون وداوود ويوشع وغيرهم ممن يقولون بنبوته ويشهدون بصواب
مذهبه ، قد اتخذوا من الأزواج والسراري مثل ما اتخذ هؤلاء ، بل فيهم
من قد اتخذ في ذلك اضعافاً مضاعفة كما كان لداوود وأمثاله . والروم هم
اصل النصرانية ولكنهم لم يحدوا في رسول ﷺ مغزاً فعاوه بحمل السيف
واتخاذ الأزواج ، وهم يعيبون هذا منه صلى الله عليه ويدعون ان الله قد
اتخذ مريم أمّاً لولده واتخذ الولد لنفسه وان لم يسموا^(٢) مريم زوجة .

ومن عجيب ديانتهم ، ان المذنب منهم يقول للقس والراهب : اعمل لي
مغفرة وتوبة وتحمل ذنوبي ، ويحمل له على ذلك جمالة على مقداره في الغنى
والفقر ، فيبسط القس كساءه ويأخذ الجمالة ثم يقول للمذنب : هات الآن
واذكر لي ذنوبك / ذنباً ذنباً حتى اعرفها وأحملها . فيبتدئ ذلك المذنب
رجلاً كان او امرأة ملكاً او سوقة فيذكر ما قد فعله شيئاً شيئاً ، حتى
يقول : هذه هي كلها ، فيقول له القس : انها عظيمة ولكن قد تحملتها

وغفرت لك ، فأبشر . وربما جمع الكساء من اطرافه ووضعه على ظهره
وقال : ما اثقل ما في هذا الكساء من الذنوب .

ومن المأثور عنهم والشائع عليهم ان المرأة تُقرء عند القس بذنوبها ،
فتقول : أصابني رجل في يوم كذا فيستفهمها كم مرة فتقول : كذا وكذا ،
فيقول لها : اخبريني هذا الرجل نصراني او مسلم ، فربما قالت : مسلم ،
فيستعظم هذا ، ويستزيدها في الجمالة ، فان زادته ، وإلا غضب وانطلق
وهو يقول : قد زنى بها المسلمون وتريد ان اغفر لها وإنما اعطيتي كذا وكذا ،
فترده وتزيده وترضيه .

هذا من دينهم الذي الذي يدعون ضيقه ، ويدعون انه على دين المسيح ،
وهذا لا يجوز ان يكون ديناً له صلى الله عليه .

وقد قيل لبعض قسوسهم ما هذا من التوبة ؟ فقال : وما وجه تركنا
لهم لا نسألهم عن ذنوبهم ونطعمهم في غفرانها ، فإننا لو لم نفعل ذلك وناخذ
المال منهم لافتقرت البيعة .

وقل ما تجد منهم من يخاف عذاب الآخرة ، لأنهم يعتقدون ان المسيح
إنما قتل نفسه ليقبهم من الذنوب والعذاب ، وأنه جالس على يمين ابيه ، وأمه
جالسة مما يلي يساره فهي تتلقى الذنوب اذا طلعت وتقول لابنها : سل يا بني
أباك الرب غفرانها ، فهو عندهم يغفرها ويسأل أباه غفرانها .

والملوك بمصر والشام والعراق والجزيرة وفارس وما والى ذلك يعولون على
النصارى في الكتابة والوزارة والجهيزة . فلهم الرئاسة على المسلمين ، يحبون
اموالهم ويأخذونها منهم بالضرائب / الموضوع على كل شيء مما لم ينزل الله

(١) في الاصل : ويعلمون

(٢) في الاصل : يسمون

به سلطاناً ، فيذلون بها الاسلام ، وينفقونها في مكاره المسلمين .

والفرس ايضاً مثل هذه الفضائح التي تقدمت للنصارى ، وهو ان زرادشت قد شرع لهم تطهير الحائض والنفساء والتي قد مات جنينها في بطنها ببول البقر^(١) يتولى ذلك منها الهربذ بعد ان يجردها ويعريها ، ويباشر ذلك منها بيده ورأي عييه ، فيبركها ويفسل ذلك المكان بيده ، وربما جزعها منه جزعاً واخذ على ذلك الجمالة على مقدارها . واول ما يأخذ الخلعة التي عليها اذا جردها للتطهير ، واقل ما يأخذ على افقر فقير اربعة مثاقيل فضة . وزعم الفرس والمجوس انه كان يرتفع لموبدان موبذ في ايام ملكهم من هذا الوجه اربعة ألف دينار ينفقها على الهرايذة ، وشرع لهم بالإنجاب على زوج المرأة اذا غاب عن امرأته او عجز عن بضاعها ، ان يוכל في نيكها من يختاره من أصدقائه وثقاته ورفقائه .

ولم نكن في الرد على المجوس ولا النصارى ، إنما قصدنا البيان انهم مخالفون للمسيح ودينه في الأصول والفروع .

فهذا يرحمك الله اصل مذهب النصرانية ، ومذهب القراء والزهاد منهم . فأما اهل الجدل والنظر ومن يتجرد في نصره النصرانية ويضيف الكتب في ذلك فكلهم ملحدة وزنادقة ، ويكذبون المسيح وجميع الأنبياء عليهم السلام ، ويستجمل الشرائع ومن يعمل بها فلا تكاد تجد فيهم إلا من هذه سبيله ، مثل : قسطا بن لوقا ، وحنين بن إسحق ، وابنه إسحق ، وقويرى ، ومقي الجرمقاني وهو المكثي ابو بشر بن يونس الذي فسر كتب الملحدة ،

(١) كتب المعلق في الهامش : « تطهير الحائض والنفساء ببول البقر في شرع المجوس » .

وهلك في سني نيف وعشرين وثلاثمائة ، وبعده يحيى بن عدي ، وعنه ان هؤلاء الملحدة^(١) الذين في زمانك ، ومذهبهم لا يقوم بالجدل

واذا قيل لهم : قالوا : حجبتنا في ذلك على لسان أرسطاطالس ومن فوله ومن أصوله ، وأرسطالس لا يؤمن بكتاب ولا نبي ولا شريعة ، وينكر فلق البحار ، وانقلاب العصا حية ، وإحياء الموتى ، وولادة مريم من غير ذكر . ويرى ان التصديق بذلك جهل وحق وقلة عقل . فانظر من أولى بقلة العقل ، هو او من يجعله حجة لدينه يأخذ عنه ، فما بعد هذا في قضيتهم شيء . فاعرف هذا من طريقهم ، فقد تبين لك ان ديانات هؤلاء النصارى خلاف ديانات المسيح ووصاياه وعهوده ، وعلمت علم محمد ﷺ بذلك ، وان علمه به من قبل الله ، وانه من معجزاته .

والنصارى تقول : لعمرى إن المسيح ما عمل طول حياته بشيء مما نحن عليه ، وكذا تلاميذه من بعده فما لزموا شريعة التوراة ولكن من أتى بعدهم نقلوا وقالوا لنا قد قال المسيح : اعملوا بعدي بما ترون ، قلنا : قد صدقتهم في دعاويهم وهم قد جاؤوا بالرئاسة عليكم والتحكّم فيكم وفي أموالكم .

فإن قالوا : إننا لم نقبل منهم إلا بالمعجزات ، فقد فرغنا منها وبيننا كيف كان الأصل من قسطنطينوس بن هيلانة^(٢) وبيننا ان المسيح وصام بشريعة

(١) كتب المعلق في الحاشية : « الذين يكذبون المسيح وجميع الانبياء عليهم السلام ، ويستجملون الشرائع مثل قسطا بن لوقا » .

(٢) في الأصل رسمت هيلانية ، اما قسطنطينوس فقد رسمت في الأصل على النحو التالي : قسطنطوس .

موسى عليه السلام ، وان يعملوا بما رأوه يعمل طول حياته بما قدمناه ؛ من تجريد التوحيد ، وتنزيه الله عز وجل ، وإقامة الشريعة كما بينا .

وحديث انتقالهم في كتابهم المعروف بأفراشكس وفي السنهودس الذي لهم ، وانما هم ينهون من لا يعرف ، ويقولون : نحن على شريعة المسيح ، فإذا وافقهم العارف بذلك ، قالوا : قد انتقلنا بالآيات والمعجزات ، فإذا عرفهم حال قسطنطينوس بن هيلانة وما فعله وجميع هذا الذي بيناه ، قالوا : نهينا عن الجدل والبحث والتفتيش .

ومن عجيب أمورهم ان معهم وفيما حفظوه عن المسيح انه عليه السلام قال لهم : انكم تأتونني يوم القيامة ، وليُحشرون^(١) الي^١ سكان الارض فيقومون عن يميني وشمالى ، فأقول لأبناء الشمال : لقد كنت جائعاً فما أطعمتموني ، وعرياناً فما كسوتوني ، ومريضاً فما عديتوني ولا داويتوني ، ومحبوساً فما زرعتوني ، فيكون من جوابهم ان يقولوا لي : متى كنت يا سيدنا مريضاً او عرياناً او جائعاً او محبوساً ؟ ألم نكن باسمك نكتباً ، وباسمك نشفي المرضى ونقيم الزمنى ، وباسمك نطعم الجياع ، ونكسو العراة ، ونداوي المرضى ، وباسمك نأكل ونشرب ؟ فأقول لهم : قد كنتم تذكرون اسمي ولا تشهدون علي^٢ بالحق ، ابعدوا عني يا عاملي الإثم . ثم اقول لأبناء اليمين : هلم ايها الصالحون الى رحمة الله والى الحياة الدائمة ، وليس هاهنا من يطعم ويكسو او يداوي المرضى ويأكل ويشرب باسم المسيح ويفعل ذلك للمسيح إلا هؤلاء الطوائف من النصارى . فهذا نص واضح ببراءته منهم ، وعداوته لهم .

والروم تأكل الخنزير وجميع الحيوان وذبائح الناس كلهم ، فتبعوا الروم في هذا كما تبعوهم في غيره . فاذا قيل لهم في ذلك ، قالوا : إن شمعون الصفا

رأى في المنام ، واذا ثوب مربوط بأربعة اطرافه وهو ينزل من السماء الى الارض ، فيه كل الدواب ذوات الاربع القوائم وزخارف الارض ، وطير السماء ، وحيوان الماء . وسمع صوتاً يقول : قم يا شمعون ، قم اذبح وكل ، فقال شمعون : حاشا لي يا رب ، فأني منذ قط لم أكل شيئاً نجساً ، فعاد الصوت / المرة الثانية يقول له : لا تنجس ما طهره الله . وهذا عندهم رأي شمعون بعد موت المسيح ورفعته .

قلنا : فقد شهد شمعون ان هذا مما حرمه المسيح ونجسه ، فقد اكد فضيحتكم اذ هو ما جاء الا بالتألم لا بالتغيير والنسخ .

والعجب ان معهم في أشعيا النبي^(١) ، أن شر الأمم وأنجس الأمم وأخبث الأمم ، هذه الأمة ذات القلفة ، الآكلة للخنزير ، وكل البهائم . وهذا هو صفتهم .

وفي النصارى من يزيد في الكذب والخرقة ويقول : انما قتل اليهود المسيح لأنه أحيا الموتى وأقام الزمنى^(٢) في يوم السبت ، وهذا دليل على انه أحل السبت ، ونسخ ما في التوراة .

قلنا : قد بينا ما في الأنجيل وفي أفراشكس من وصايا المسيح بالتوراة ، وما عمله ، مما فيه بطلان هذه الدعاوي .

(١) في الاصل : شعيا بدون ألف
(٢) جمع زمين : وهو المريض الميثوس من شفاته .

ومما يزيد في البيان عن كذبهم قول متى في الانجيله : « ان المسيح كان يتمشى بين الزروع يوم السبت ، وكان تلامذته قد جاعوا ، فجعلوا يفركون السبل ويأكلون ، فلما رأى الأجباز ذلك قالوا له : إن تلاميذك هوذا يفعلون ما لا يحل لهم فعله في السبت ، فقال المسيح : فيما قرأتم ما صنع داود إذ جاع ، كيف دخل بيت الله وأكل من خبز مائدة الرب الذي لم يكن يحل له أكله ، ما خلا الكهنة فقط .

وقال لهم ايضا : « وما قرأتم في التوراة ان الكهنة في الهيكل يحلّون الهيكل وليس عليهم لوم » . فانظر كيف بين ان هؤلاء ما حلّوا^(١) السبت ولا ما في التوراة ، وأنهم انما عملوا بما يحل في التوراة ، ولكنكم انتم جهلتم ، فلو كان قد نسخها لقال / لهم : انما فركوا السبل في السبت لأن الله قد نسخ ذلك على يدي ، ولم يحتاج الى تبين حال الاضطرار .

وذكر متى في الانجيله ان المسيح لما أبرأ الرجل الأمثل قالت له اليهود : هل يحل الإبراء في السبت ؟ فقال لهم : اذا وقع لأحدكم كبش في البئر أما تستخرجونه ، فالانسان أفضل من الكبش ، وأنه قد يجوز أن يفعل الفعل الجليل في السبت ، فلو كان حل السبت لقال ذلك وأظهره ولم يحتاج ، وقد قال لوقا في الانجيله : ان المسيح كان يعلم في يوم السبت في بعض الكنائس ، وكان هناك امرأة بها مرض منذ ثمانية عشر سنة ، وكانت منحنية ، ولم تك تستطيع ان تبسط قامتها ، فلما رآها المسيح قال لها : ابنتي المرأة قد أطلقت من مرضك ، فعوفيت من ساعتها . فقال رئيس اليهود : إن الايام التي يجوز فيها العمل ستة ايام ففيها تعالجون لا في السبت ، فقال له المسيح : أما يطلق

(١) هكذا في الاصل ، ولعلها أحلوا .

أحدكم ثوره او حماره عن المعلق في يوم السبت ويذهب به ويسقيه الماء ، فهذه التي هي بنت ابراهيم عليه السلام ، وقد ربطها للشيطان منذ ثمانية عشر سنة لا يجب ان تطلق عن الأسر . فلو كان كما قال هذا الكذاب ، لقال : السبت منسوخ ، وكل الاعمال فيه جائزة مباحة .

وذكر متى في الانجيله : ان المسيح خبر ببلال ينزل بأصحابه وجلاء ، ثم قال لهم : صلّوا لله وارغبوا اليه ان لا يكون هربكم وجلّاؤكم في يوم السبت ولا في الشتاء . وهذا قاله لهم عند فراقه إياهم ووداعه لهم ، لتعلم تأكيده لإقامة السبت من بعده والتمسك بشرائع التوراة ، وانما امرهم مسألة / الله ألا يكون هربهم في يوم السبت ، لأنه لا يحل لهم ان يحملوا في يوم السبت شيئا من امتعتهم وأموالهم ، وانما يحل النجاة بالنفس لا غير . وكل هذا بين رفض النصراني لدين المسيح .

واذا قيل لهم : لم تصلّون الى المشرق وقد علمتم ان المسيح لم يزل يصلي الى بيت المقدس الى ان خرج من الدنيا ، وانما المشرق قبله الروم ؟ قالوا : لأن الله خاطب الانبياء من قبل المشرق ، وبعضهم يقول : ان المسيح لما صلب أمال وجهه الى المشرق فلماذا صلبنا الى المشرق ، فقبل لهم : فمن أعلم بالمصالح أنتم أم المسيح ، وقد علمتم وتيقنتم انه ما صلى الى المشرق ، ولكنكم صرتم الى دياناث الروم وفارقتم دين المسيح .

وفي الانجيل سألته السامرية : ارى انك نبي انت ، آباؤنا انما سجدوا في هذا الجبل ، وأنتم تقولون : إن الموضع الذي يجب السجود فيه انما هو اورشليم قال لها يسوع : ابنتي المرأة^(١) صدقت^(٢) ، أما [إن]^(٣) بين اتباعه [من]^(٤) لا

(١) في الاصل : الامراة

(٢) في الاصل : صدقتي

(٣ و ٤) زيادة على الاصل يقتضيها السياق

يسجدون للرب لا في هذا الجبل ولا في اورشليم .

فانظر الى الافصح والبيان في هذا ، ان المسيح إنما كان يصلّي الى اورشليم وهو بيت المقدس ، ليعلم انهم خالفوا ما كان عليه .

وقد ذكرت لك انه ما قصدنا بيان فساد النصرانية ، إنما قصدنا البيان عن مفارقتهم لدين المسيح ومخالفتهم له في الاصول والفروع جميعاً مع شدة تحقّقهم به ، وأن علم محمد ﷺ بذلك إنما هو من قبل الله عز وجل ، وأن ذلك من معجزاته وآياته وإن كان قد اتفق من حكايات اقوالهم والرد عليهم ما لا يكاد يوجد في كتاب ، سيما حكاية تسابيحهم وأقوالهم رؤسائهم . فاحتفظ بذلك فانك لا تكاد تجده / في كتاب ، وبك الى حفظه امس الحاجة .

فأما المسألة لهم والرد عليهم فكثير .

فمن ذلك ، كتاب الجاحظ ، وكتاب آخر له يعرف بالرسالة العسليّة ، ولأبي جعفر الاسكافي ، ولأبي بكر احمد بن علي بن الأخشيد قطعة حسنة في كتاب المعونة . ولأبي عيسى الوراق كتاب عليهم ، ولأبي علي كتاب عليهم ، ولأبي هاشم مسألة في البغداديات ، وفي أصول ابن خلاد وفي شرحه ، وفي الايضاح لأبي عبدالله البصري ، رحمة الله عليهم اجمعين ، كلام عليهم ^(١) .

(١) ابو بكر الاخشيد احد رجال الفكر الذين أيدوا المعتزلة في بعض أقوالهم وخالفوهم في بعضها توفي سنة ٣٢٠ هـ . اما ابو علي وابو هاشم فهما من كبار رجال الاعتزال وقد سبق التعريف بهما . اما ابو عبدالله البصري فهو الحسين بن علي اكبر أساتذة القاضي عبد الجبار ومن كبار رجال المعتزلة توفي سنة ٣٦٧ هـ او ٣٦٩ هـ . واما ابو علي بن خلاد فهو ايضاً احد كبار رجال الاعتزال وهو صاحب كتاب الاصول والشرح في علم الكلام وهو احد أساتذة القاضي وقد عده في الطبعة العاشرة ، اما ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي فقد كان احد أئمة الاعتزال ، خلف حوالي سبعين كتاباً في الكلام ، توفي سنة ٢٤٠ هـ .

وليس عندهم ان المسيح تكلم في المهد ، ولا اتى ببراءة ساحة امه ، وأكثر ما عندهم ان مريم عليها السلام كانت مملكة بابل عم لها يقال له يوسف ويعقوب النجار ، وأنها كانت عنده ، وأن الناس كانوا يرون ان المسيح ابن يوسف ، الى ان عمّده يوحنا في الاردن ، وجاء الصوت من السماء : هذا ابني الذي سررت به نفسي . قالوا : فعلنا انه ابن الله تعالى الله لا ابن يوسف النجار . قالوا : وكان هذا بعد ان اتى على المسيح ثلاثون سنة ، وكان الناس لا يشكون انه ابن النجار الى ان جاء هذا الصوت بزعم النصارى ، فأبي سخر وضعة وطعن في حكمة الله اعظم من هذا ، وهو عندهم رب العالمين ، وقد خلّى عبادهم يقذفون امه .

وفريق منهم وهم الخاصة يذهبون الى ان ربهم يهودي بن يهودي ، مولود من يهودية ، وان امه امرأة يهودية ، وقال متى في انجيله : لما ظهر الحمل بالمسيح بمريم البتول هم يوسف النجار بطلاقها ، فأثاه الملك في المنام فقال له : يا يوسف النجار لا ترتب بحيلتك مريم فإن الحال فيها من روح القدس ، فأمسك عن طلاقها .

فانظر كيف يشهد بأنها حليلة يوسف النجار وزوجته ، / وأنه هم بطلاقها واتهمها بالزنى وأراد طلاقها فراراً من العار .

وبعضهم يذكر في ترجمة انجيله : هذا ميلاد يسوع ^(٢) بن يوسف النجار ، ومتى يقول في انجيله : هذا ميلاد يسوع ^(٣) المسيح . وقال : يعقوب والد يوسف رجل مريم التي منها ولد يسوع المسمى مسيحاً ، فانظر كيف يحقّقون ان يوسف زوجها .

(١ و ٢) في الاصل : ياشوع

وفي الانجيل ان المسيح لما ولد ختن بعد ثمانية ايام ، وان يوسف النجار اخذه مع امه وخرج بهما الى مصر فأقام اثني عشر سنة ، ثم اخذهما وردهما الى بيت المقدس .

وفيه ان يوسف دخل بيته فقال لمريم : ابن الصبي ، يعني عيسى المسيح ، فقالت له : ظننته معك ، فقال : وأنا ظننته في البيت عندك ومعك ، فقلقا لذلك وخافا عليه الضياع ، فخرجوا جميعاً في طلبه ، فقال يوسف النجار : لمريم خذي انت طريقاً وآخذ انا طريقاً آخر ، فلعل واحداً منا يجده . فشياً متحرقين ، فلقيته مريم امه فقالت : يا بني ، اين تكون ؟ ظننتك مع ابيك وظننتك ابوك عندي فلما لم يرك قلعنا فأخذ ابوك في طريق وأخذت انا هذا الطريق ، فأين كنت ، ومع من كنت وابوك متحرق عليك ؟ فقال : كنت في بيت المقدس اتعلم .

وذكر متى في الانجيل : ان المسيح اجتمع مع اليهود وضرب لهم الامثال ، فلما فرغ المسيح من هذه الامثال تحول فدخل مدينته ، وكان يعلم في كنائسهم فكانوا يتعجبون ويقولون : من اين لهذا هذه الحكمة ، أليس هذا ابن يوسف النجار ، أليس امه التي تسمى مريم واخوته يعقوب وشمعون ويهوذا واخواته كلهن أليس هن عندنا ، من اين لهذا هذا كله ، وجعلوا يحتقرونه ويأثمون فيه / ويقدفونه ، والمسيح يقول لهم : ليس من نبي إلا ويحتقر في مدينته . والنصارى توافق المسلمين في ان المسيح ولد من غير ذكر ، ثم يقولون في انجيلهم : ان يوسف النجار زوج مريم ام المسيح ، ورجل مريم ، وابو المسيح ، وانه كان يدعي بذلك ويعرف به غير متناكر بينهم ، وأنه كان له إخوة وأخوات .

وفي انجيلهم وأخبارهم انه لما طلب جاءته أمه مريم ومعها أولادها يعقوب وشمعون ويهوذا ، فوقفوا خذاه ، فقال لها وهو على الخشبة : خذي أولادك وانصربي ، فما الذي بعد هذا في البيان ان مريم ولدت بعد المسيح من يوسف النجار هؤلاء الجماعة وكانوا إخوة المسيح من أمه ، فأني فضيحة تكون أبشع من هذا .

ومن عجيب امر النصارى ، ان اصحاب الانجيل الاربعة قد قصدوا الى ذكر نسب يوسف النجار خاصة ، وليس في ذلك نسب للمسيح اذ كان مولوداً من غير ذكر ، وانما يتصل نسبه الى سليمان بن داود عليها السلام من قبل أمه لا من قبل احد من الرجال ، وهذا تخليط بين وجهل ظاهر ، ولذلك وجد اليهود السبيل الى الطعن في المسيح

ولتعلم رحمك الله ، ان هذه الطوائف من النصارى أجهل عالم الله بالمسيح واخباره وأخبار أمه ، وان كل واحد من اصحاب هذه الانجيل إنما تلفظ ما كتبه بعد المسيح بالذهر الطويل ، وبعد مضي اصحابه عن لا يعرف ولا يحصل ، وفيها من الاختلاف والتناقض لما هم عليه ما يطول شرحه .

وفي انجيلهم ان المسيح أتاه قوم من اليهود يسألونه آية فقدفهم وقال مجيباً لهم : إن القبيلة الخبيثة الفاجرة تطلب آية ولن تعطى آية خلا آية يوحنا النبي ، هذا على قولهم يدل انه ما معه آية بهذا الإفصاح ، وأنه ما ادعى ذلك عند الحاجة اليه .

والنصارى لا تعرف الربوبية ولا تفرق بينها وبين الانسانية ولا يقوم على احد حجة بنقلهم وادعائهم إلا بآيات للمسيح ، ولولا شهادة رسول الله ﷺ للمسيح عليه السلام بالنبوة لما عرف احد ذلك .

ومن أكبر كيد رؤساء النصارى، ادعاء المعجزات لأنفسهم ولأمثالهم من سلف من رؤسائهم، والنصارى تقبل ذلك منهم بغير برهان ولا حجة، فإذا مات ذلك الرئيس من راهب أو قس أو مطران أو جاثليق قعد راهب وقال: أنا كنت أخدمه فأريت منه العجايب، فترحموا عليه معشر النصارى، وتوسلوا إلى الله به فانه شاهد، فاشهدوا قبره وأكثروا زيارته. فيقول النصارى له: يا رباني^(١) حدثنا بما رأيت منه فيمتنع ويقول: أعفوني من الشرح، وكلما تمنع لجؤا في مطالبته، فيقيم على الامتناع فيزدادون حرصاً في استخباره، فيقول: إنه في حياته ما تحدث به فيما أحببنا أن نتحدث به بعده، وإنما ذكرت لكم فضله لتتوسلوا إلى الله به، فان صدقتموني فافعلوا وإلا فدعوا فما يضرني وليس هي أعجوبة وآية لي وإنما هي له، فيزدادون حرصاً، فيقول: قد كان انقطع بنا الزيت في البيعة، وكان لا يطلب الزيت من احد ولا يدعني أطلبه، فاذا كان الليل أشعل القنديل وقام إلى جرة له فيها خل فيصبه في القنديل فيصير من ساعته زيتاً فيصطبغ به كذا وكذا شهراً وقد كان في الجرة أكثر من خمسين رطلاً خلا وهو في الجرة نأكله عند الافطار، وفي الليل / اذا قلبه في القنديل صار زيتاً.

ب

ويتحدث آخر عن راهب صحبه، يقال له أبا مرقس، وانه كان كثير العبادة، وأنه توكل على الله وألقى نفسه في البحر، وقال: يفعل الله بي ما شاء، إن شاء غرقني وإن شاء نجاني والقاني حيث شاء من ارضه. قال: فما جسرت ان افعل مثل ما فعله، وأتيت بمكان في بعده على ما في من وحشة فراقه مدة طويلة، ثم دعاني ما في من الوحشة له ان افعل مثل فعله، فلما

(١) في الاصل: يا ربين

ان أغرق فأستريح من الوحدة^(١). ففعلت وبقيت في البحر مدة، ثم ألقاني الله إلى ارض لا اعرفها ولا بها ينبوة يأكل منها حيوان؛ فأقبلت امشي فيها فوقعت عيني على شخص قائم يصلي فقصدت نحوه فاذا هو «أبنا مرقس» صاحبي، فقلت له: رباني^(٢)، مذ كم انت هاهنا؟ قال: مذ فارقتك ألقاني الله إلى هذه الارض، فقلت له: من اين تعيش وليس هنا ينبوة يأكلها حيوان؟ فقال: اذا كان العشاء التفت من صلاتي فأجد سمكة مشوية حارة في طبق رغيفين وسكرجة عسل، فأفطر على ذلك ويرتفع الطبق ولا ارى من يرفعه ولا من يضعه. فقلت له: هذا المقدار هو قوتك انت وان شاركك فيه ضيقت عليك، فكيف اعمل انا وهذه ارض قفر، ما بها نبات ولا بها يبس^(٣)، فقال: ما ادري وان شئت ان تقيم وتشاركني فيما يحببني فافعل. فأقمت، فلما كان العشاء اذ بطبقين وسمكتين ورغيفين وسكرجتين، أحدهما لي، والاخرى له. فقال لي: قد جاءك من الرزق مثل ما جاءني، فأقمت معه كذا وكذا / سنة، فمريض ووصاني بدفنته وأمرني انصرف بعد دفنه اليكم لأعرفكم خبره لتزدادوا بصيرة في دينكم، ولولا وصيته لما فارقت المكان.

ويقول آخر من الرهبان لهم: أبشروا معشر النصارى، فإن دينكم الحق، فقد رأيت من المعجب ما عرفت صحته، فيقولون له: مثل اي شيء رأيت فيقول: ليس هو شيء لي وإنما هو لغيري، وهو اني كنت في جملة الجاثليق فلان، فقال لي: يا اخي بلغني عن مطران خراسان انه يأكل اللحم، فامض اليه وقل له: اما علمت ان المطران لا ينبغي له ان يأكل اللحم؟ فمضيت

(١) لعل في العبارة نقصاً

(٢) في الاصل: ربين

(٣) في الاصل: أيبس

اليه فاتفق دخولي عليه وبين يديه مقلى مملوء عصافير قد قلت وهي حارة ، وهو يأكل ، فقال لي : كل ، فقلت له : ابونا الجاثليق ارسلني اليك يقول لك : أما علمت ان المطران لا ينبغي له ان يأكل اللحم ، فقال لي : هكذا قال لك ابونا ؟ فقلت : نعم ، فرفع يده وقال لي : نعمل ما قال ابونا ، وقال لتلك العصافير التي في المقلى : كش ، فتطايرت كلها ، ورفع المقلى ، فيصدقونه ويدنون ذلك ، ويكتبونه . ويطراً على من بالعراق منهم وما والى العراق راهب لا يعرفونه ، فيقولون له : وقد دخل البيعة : رباني ، من انت ، ومن اين جئت ؟ فيقول : دعوني وأعفوني فيراجعونه فيقول : ذني عظيم وفضيحي فاحشة فلا تسألوني عن شيء ، فيلحون في سؤاله فيقول : بشرط انكم تسترون عليّ ، فيقول : انا كنت رجلاً يهودياً شديد البغض للنصارى والمسيح ، وسمعتهم يقولون في الانجيل ان المسيح قال : من كان نصرانياً خالصاً وقال للشجرة قفي على أمواج البحر / ولا تبرحي ، فانها تقف . وكنت لا اصدق بهذا فجئت الى الملك وقلت له : انا رجل يهودي ، وقد قلت ان المسيح قال لكم كيت وكيت ، فإن صح هذا ورأيت بعيني تنصرت من ساعتي . فوجه الملك الى السواد فجاءوه بشيخ ضعيف البنية وعليه المسوح ، فقال له : هذا رجل يهودي ، وقد قال كذا وكذا ، فهات ما عندك في هذا ، فأقبل الشيخ عليّ وقال : يا هذا اتق الله ، إن كنت متعنتاً فامض بسلام ولا تؤذنا ، وإن كان ما تقوله حقاً وعن نية صادقة فعرفني ، فحلفت له على صدق نيتي ، فقال لي : اذهب الى الصحراء فانظر اي شجرة شئت فعلمت عليها وارجع اليّ فعرفني العلامة ، فذهبت وأعلمت على شجرة عظيمة ورجعت اليه فعرفته ، فقال لي : تجيئي في غد حتى اريك شجرتك على موج البحر كما اقترحت . فجيئته من غد وأخذ بيدي وجاء بي

الى البحر فأراني الشجرة التي أعلمت عليها قائمة منتصبه على موج البحر فتصرت ، فأنا اسبح في الارض وأبكي على ذنوبي وذهاب ايامي . فيصدقونه ، ويكتبون ما قاله ، ويكون مما يدرس في البيعة ويسمعه الرجال والنساء .

ويحييهم آخر من الرهبان فيبيكي ، فيقولون له : من انت ، وما يبكيك ؟ فيقول : دعوني فإن مصيبي عظيمة ، فيقال له : اذكرها يا بني ، فيقول : ما اعقل امري ، وما ادري ما اقول ، فيقولون له : على كل حال اذكر مصيبتك وعرفنا حالك ، فيقول : او ليس قد مات ابونا جورجس ؟ فيقال له : ومن جورجس ؟ فيقول صاحب البلا الفلاني والصومعة الفلانية ، فيقولون : ما نعرفه ، وربما فيهم واحد يقول : قد سمعت به فيقول : فهل بلغتم آياته ومعجزاته ، فيقولون : حذ ثنائها ، واذكرها لنا . فيقول : ما (١) لي اذكرها لكم ، ما انتم نصارى بل انتم خلاف النصارى ، ولو كنتم نصارى لعرفتموه وعرفتم آياته ودلالته . فيسألونه ذكرها فيأبى ويتمنع ، فلا يزالون يراجعونه / فيخبرهم ان الملك الفلاني ارسل فأشخصه ، وقال له : ارجع عن هذا الدين وأنا اعطيك وأكرمك وأشارك في ملكي ، فأبى ، فحبسه في محبس وثيق ضيق ، ثم طلبه من السجن فما وجدته في السجن ، فلحق السجن من الملك كل ما يكره ، وقال له : انت اطلاقته ، وبث الرسل في طلبه فوجدوه في صومعته فأثروا به الملك فقال له : اخبرني عن السجن ، اهو الذي اطلقك ؟ فيقول : لا ، المسيح اخرجني ، وفتح الابواب لي ، وحجب الأبصار عني ، فقال له الملك : انا الآن احبسك في محبس ، فقل للمسيح يطلقك . فحبسه في محبس وثيق من وراء ابواب حديد مقفلة ،

(١) في الاصل : لما ، ولعل الصحيح ما اثبتناه .

ثم طلبه فما وجده . فأرسل الى صومعته فإذا هو فيها ، فجاء به ، وقال له : من اطلقك فقال له المسيح : فردده الى الحبس وقيدته وثقله بالحديد وزاد في التوثق ، ثم طلبه فما وجده في الحبس ، والأبواب والأقفال كما كانت ، ووجد القيود ؛ فأرسل في طلبه فوجده في صومعته فجاءوا به وقد اغتاط الملك بما يتم له ، ومن تخجيله له مرة بعد اخرى ، فأمر فضربت عنقه ودفن فلما كان من غد يوم دفنه وجدوه في صومعته ، وقيل ذلك للملك ، فبعث وأحضره وقطعه إرباً^(١) وحمل ودفن فلما كان من غد وجده في صومعته ، وقيل ذلك للملك ، فأرسل وجاء به وقطعه إرباً^(٢) ، ودعا بنار فأحرقه وأمر برماده فألقي في البحر ، فلما كان من الغد وجدوه في صومعته ، فأرسل الملك وجاء به واعتذر إليه وتنصر .

فيقول الراهب : وكل هذا كان منه وأنا معه وأشاهده منه وما فعله الملك به ، فمثل هذا لا ابكي عليه ولا تعظم مصيبي به . وأشد من هذا ، جهلكم وغفلتكم حتى كأنكم ما انتم نصارى ولا سمعتم / بالنصرانية ، ويبكي ، فيصدقونه ويعتدرون إليه من غفلتهم وجهلهم بهذا الرجل وبما كان معه ، ويحتمعون : رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ، ويسألونه ذكر ذلك لهم ، فيعيده على فوج بعد فوج ، فينصرفون عنه وقد صدقوه . وينبثون ويتحدثون بذلك سروراً به ، ويخلدون ذلك ، ويعملون لمثل هذا اعياداً ، ويعملون له أياماً معلومة يقيمون هذه الاعياد فيها ، ويعيدون حديثهم ليتطروا ذكرها وليسمعها من يشاء من ذرارهم ، ويسمون ذلك ذكران ؛ فيقولون : هذا ذكران جورجس

(١ و ٢) في الاصل : ارباباً

وهذا ذكران ابا مرقس ، وهذا ذكران فلان^(٣) .

ويجيئهم آخر ، فيقول : تدرون معشر النصارى لم صار في العرب والقبط والحبشة والغلانيين^(٤) نصارى ؟ فيقولون : لا ، [فيقول^(٥)] ولكنني أدري ولو كنتم نصارى لدرتكم ، فيسألونه فيخبرهم . فيقول ان الآباء الأوائل باتوا ليلة لسانهم واحد ، فأصبحوا وقد نطق كل واحد منهم بلسان امة من الأمم ، فانطلق كل واحد منهم الى تلك الأمة التي نطق بلسانها ، فدعاهم بلسانهم ، وأظهر لهم الآيات والمعجزات ، وإلا فقولوا لنا : لم تنصرت الارمن والعرب والقبط والحبشة ؟ فيقولون له : صدقت ، هذا برهان نبي فيكتبون هذا ويدونونه ويعملون له عيداً وذكراناً ، وهذا اصله ونخرجه وأوله . فإذا تخلد وانبتت ومرت عليه الدهور وأنت عليه الأعصار ، ادعوا انه شيء كان أصله بشاهدة الأمم لأن الكذب فيما تقادم عهده أمكن . وانما يعملون له ذكراناً وعيداً ويوماً بعينه لتتم الحيلة فيه ، وليظن من يسمع انه ما جعل له عيد ويوم معلوم وتاريخ مؤقت محدود إلا وهو حق وله اصل ليتأكد / الكذب ويتم التمولي ، ولتتصل البر والصدقات على الرهبان في هذه الاعياد . والفظناء من النصارى يقولون : هذه الآيات والمعجزات انما هي من احتيالات الجشافة والرهبان ومن يبغيض العمل ويفر من الكد ، ويسمونهم بلغتهم السريانية «عازق معنا»^(٦) ، معناه انه ترهب ولزم الدين لئلا كل من غير ماله ويستريح من الكد ، والرهبان اذا ما تشاحنوا على ما يأخذون يقول احدهم لصاحبه : النصارى يفضلونك علينا ، ويعطونك أكثر مما يعطونا ، ومالك من فضل

(١) كتب المعلق في الهامش : في سبب ذكران النصارى .

(٢) هكذا في الاصل

(٣) في الاصل لا توجد كلمة فيقول ، وهي اضافة مني ليستقيم الكلام .

(٤) كتب المعلق في الهامش : عازق معنا .

علينا ، كلنا قد فر من العمل ، وانما نحن نصلي للنصارى . ولهم من المكاشفات ما يطول شرحه ، ولكن ليس متأمل ولا متخرق على الاسلام ولا متفقد^(١) . وربما ورد الراهب على النصارى بمثل ما قدمنا ، فيقبل الراهب بعضهم على بعض بالقول فيما بينهم : تأملوا هذا الفار من العمل بأي شيء قد جاء يخدع النصارى ، وانظروا هل يكون له نجت . وربما جاء الراهب الى الجاثليق بمثل هذا لينفق عنده ، فيقول له الجاثليق : عزمت على الهرب من العمل ، انت عازق معنا ، فربما بكى ، وقال له : أبونا ما يحل لك ان تقول لي هذا ، فيقول الجاثليق : يا أخي ما ينبغي ان تعمل معي هذا فانا أعرف بالصنعة ، هبنا خدعنا غيرنا ، بعضنا يعرف بعضاً والصنعة واحدة ، وأنا عازق معنا مثلك ، فلا تبك .

ومثل هذا رحك الله تجمد كثيراً من القسيسين والراهبان ، اذا رأوا راهباً او جاثليقاً او قساً او مطراناً قد ادّعت له المعجزات ونفق على النصارى ، يقول بعضهم لبعض : انظروا بأي شيء نفق هذا على النصارى الجهال ونفذت حيلته فيهم واستوت له عليهم / الرئاسة .

وكان متى بن يونس القس صاحب المنطق^(٢) يقول عند مثل هذا : هذا بخت النغول^(٣) . وعلماء النصارى يسرعون الى الإلحاد كما تقدم ذكره لك ، وما يدينهم من هذا الامر ، ان موضوع النصرانية ان الآيات والمعجزات

(١) هكذا وردت العبارة في الاصل

(٢) متى بن يونس النصراني (ابو بشر) ، حكيم منطقي توفي ببغداد سنة ٣٢٨ هـ . ترجم عدة كتب في الفلسفة والمنطق الى اللغة العربية . انظر الفهرست ١ : ٢٦٣ ، ابن ابي اصيبعة ١ : ٢٣٥ ، القفطي ٣٢٣ .

(٣) نغل الاديم فهو نغل اي فسد فهو فاسد ، والنغل ايضاً ولد الزانية . انظر القاموس المحيط

تكون في عبادتهم في كل عصر لا تنقطع ، تدعي ذلك الملكية لعبادها ، كما يدعيه باقي طوائفهم ، ويدّعون المشاهدة في كل زمان وأوان ، مع إكفار بعضهم لبعض .. وليس فيهم احد رأى شيئاً من ذلك ، وليس إلا الدعاوى التي تقدم ذكرها والذكران والاعيان ، فيلحدون ويظنون بما يدّعى لموسى وهارون وعيسى عليهم السلام بمثل ما يدّعى الراهبان .

وبما يؤثر ان النصارى جلسوا في ذكران جورجس ، وما جرى عليه من القتل مرة بعد مرة . وهو يعود ويقوم من قبره الى الصومعة . فيقول قائل منهم : لو صدقنا انفسنا لعلمنا ان هذا كذاب لا اصل له ، المسيح صاحب جورجس ذاق مرّ الحديد مرة واحدة فما عاد ولا تعرض لمثلها ، فكيف بتعرض لها جورجس وهو دونه في الصبر والبصيرة ، فأضحكهم .

وأكثر ما عند اهل البصائر منهم ان يقولوا : سبيلنا ان نسلم للرؤساء ونقتنع في الدين بالتقليد ولا نطلب فيه البرهان ، فليس امر الشريعة والبيعة من امر الطبيعة في شيء . وهذا شيء ألقاه لهم هؤلاء الرؤساء الذين يستأكلونهم ويسخرون منهم ، وأكثرهم ملحدة كما قدمنا . وهم يريدون بالطبيعة ما يقوله أرسطاطاليس وأمثالهم من الملحدة : في ان الشمس والقمر وسائر أجساد السماء لا يجوز ان تتصدع ولا تتفرق ، ولا ان تكون حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا حلوة ولا حامضة / ولا ثقيلة ولا خفيفة ، وما اشبه ذلك من جهالاتهم التي تزيد على جهالات النصارى أضعافاً مضاعفة . ويدعون انهم قالوا ذلك ببرهان . وان الربوبية والنبوات والشرائع لا يقوم عليها برهان فخاصة النصارى ورؤساؤهم أجهل من عامتهم بطبقات .

والقبض تبغض بني اسرائيل لما جرى عليهم وعلى فرعون من موسى .

فلما غلبت الروم على بني اسرائيل وملك مصر والشام والجزيرة ، وأخذت الناس بهذا الدين بالرغبة والرهبة كما يتنا وكما ترى وتشاهد ، اسرعت القبط الى ذلك ، وخالطت الروم قبائل العرب من غسان وغيرها بالشام فدعتها الى النصرانية ، وبذلت لها الملك ، وذكروا لهم دين المسيح وما يذهبون اليه من المعجزات التي ذكرناها ، فسهل ذلك عليهم وهم كانوا عبّاد أصنام ، فلم يبعد عليهم ذلك .

وقد صار في هذه الامة من يسلك هذا السبيل ، ويؤكد دعواه بادعاء الآيات والمعجزات والتواريخ والايام ، كادعاء الحنبلية ان المعتصم بن الرشيد لما ضرب احمد بن حنبل النخل عنه مئزره فخرجت كف فشدت مئزره ، وان المعتصم وتلك الجماعة من القضاة والفقهاء والمحدثين لما رأوا ذلك راعهم وخلي المعتصم ضربه وخضع له وسأله بعد أن اعتذر اليه ان يحله فأجابه احمد الى ذلك ، فخلع عليه وكرمه ، وسأله ان يدعوه له ، وصرفه الى منزله . ويدعون لمعروف الكرخي وغيره ما قد علمت^(١) .

وادعى آخرون ان رسول الله^(٢) ﷺ استخلف على أمته رجلاً بعينه ، وان امته اجابته الى ذلك وأظهرت السمع والطاعة ، فلما قبض رسول الله ﷺ

(١) كانت محنة الامام احمد بن حنبل (توفي سنة ٢٤١) بسبب موقفه الصلب الذي اتخذته في مشكلة القرآن هل هو مخلوق ام قديم ، فقد كان من رأي المعتزلة اصحاب السلطة آنذاك ان كلام الله فعله فهو مخلوق ، وقد حاولوا ان يأخذوا الناس والعلماء بعقيدتهم واضطرو الكثيرون الى مجاراتهم بسبب ضغط خلفاء بني العباس : المأمون والمعتصم والواثق وبتأثير كبير ووزرائهم احمد ابن ابي دؤاد ، الا ان الامام ابن حنبل رغم التعذيب على رأيه من انه لا يطلق على القرآن لفظاً يرد فيه نص . وقد أحبطت محنته ببالغات كثيرة ، اما معروف الكرخي فينسب له الصوفية كثيراً من الكرامات ، توفي سنة ٢٠٠ هـ .

(٢) عبارة « ان رسول الله » مكررة في الاصل .

ب / ١٠٠ عطاوا ذلك كله ، وارتدوا / بأسرهم . وهذا قول الكاملية ، ورئيس هذه المقالة ابو كامل معاذ بن الحصين النبهاني الكوفي . وقال هشام بن الحكم^(١) : قد ارتدوا كله ، إلا نفرأ يسيراً ، فانهم أقاموا على اعتقاد هذا النص بضائرهم وقلوبهم دون الإظهار بالسنتهم . قالوا : وهذا اليوم هو يوم الغدير^(٢) ، وحين ظهروا هذه الطائفة في سني نيف وخمسين وثلاثمائة للهجرة عيّدوا في ذلك اليوم ليؤكدوا كذبهم في المهاجرين والانصار في انهم ارتدوا ، فاعرف ذلك . والحنبلية والإمامية يحتجون بكثرتهم وان مقالاتهم قد غلبت على البلدان ، وقد تقدم لك القول : ان الكثرة لا تدل على صحة النحلة وانما يدل عليها قيام الحجة ، وان قلّ عدد العاملين . بل لو كان القائل بالحق رجلاً واحداً ، وقامت له الحجة ، لكان اولى بالحق ولو خالفه جميع اهل الارض . وقد قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : إن الحق لا يعرف بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف اهل ، واعرف الباطل تعرف اهل .

وقد كانت الحنبلية تحتج على خصومهم من الرافضة بالكثرة وتقرع الرافضة بالقلة ، والرافضة تحتج بأن الله قد ذم الكثرة ومدح القلة وتتلو ما في من القرآن ، فلما اتفقت لهم منذ سني ونيف وخمسين وثلاثمائة للهجرة احتجوا بالكثرة ،

(١) هشام بن الحكم الشيباني : من كبار مفكري الشيعة ومتكلميهم توفي سنة ١٩٩ هـ . انتهى المقال ٣٢٢ - ٣٢٣

(٢) يقصد غدیر خم ، وهي بشر على ثلاثة أميال من مكة . وقد روي ان الرسول عليه الصلاة والسلام خطب المسلمين فكان من جملة قوله : « ألت أولى بكم من انفسكم ؟ فقالوا اللهم نعم ، فقال : فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ... » وهذا الحديث مشهور ، وقد استدلل به الشيعة على ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد نص على الخلافة من بعده لعلي رضي الله عنه ، ولم يجد باقي المسلمين فيه أكثر من الدلالة على فضله .

وكتب رؤسائهم القدماء مملوءة بذكر ذم الكثير ومدح القليل ، فاعرف ذلك .
ثم يقال للإمامية : إن النص الذي ادعيتوه من النصوص التي تلازم الكفاية من الرجال والنساء والأحرار والعبيد والمسافرين والمقيمين والخاصة والعامة ، لو كان له أصل لكان العلم به عند كل عاقل سمع الأخبار كالعلم بأمثاله من نصوص الكفاية وإن لم يعرف اليوم الذي كان فيه ولا المكان ولا عين اللفظ به ، لأن قول النبي ﷺ : فلان خليفتي عليكم / وحجة الله بعدي عليكم ، كقوله : أنا رسول الله اليكم ، وحجة الله عليكم ، وقد عرف هذا من نصوصه عليه السلام كل عاقل سمع الأخبار بمن صدقه أو كذبه ، وإن لم يعرف الوقت الذي قال هذا فيه ولا المكان ، فإن عرفه كان من الفضل . وهذا بين كاف ، بل نصوص الإمامة والرئاسة الصحيحة منها والفسادة إذا وقعت حصل العلم بها عند كل من سمع ذلك الخبر ، ألا ترى أن نص عمر على عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنها بالإمامة والخلافة في الشورى قد عرفه كل من سمع الأخبار ، وكذا نص أهل المدينة عليه بعد عثمان ، ونص أبي بكر على عمر ، ونص الصحابة على أبي بكر ، ونص معاوية على يزيد ، ونص مروان على عبد الملك ، ونص عبد الملك على ابنه الوليد ، ونص المنصور على المهدي . فلو كان النبي ﷺ قد نص على رجل من أصحابه بأي لفظ كان لكان العلم به أقوى من العلم بهؤلاء ، لأنه ليس في هؤلاء أحد يعتقد في نصه وفرضه ما يعتقده المسلمون في نصوص رسول الله ﷺ وأوامره ، وفي فقد العلم بذلك دليل على أنه أمر لا أصل له بوجه من الوجوه . وبمثل هذا يعلم أن أمير المؤمنين ما نص على ابنه الحسن رضي الله عنها ، وبمثل هذا نستدل على فساد قول أهل التناسخ وما يدعون على العقلاء من الأكوار والادوار ، وبمثل يعرف بطلان قول الملحدة في دعواهم في النفس ، ونزولها من عالم العقل

إلى عالم الحس

فإن قيل : إن هذا قد حسد الناس صاحبه ، ونافسوه عنه ، ودفعوه ومنعوه من استعماله وذكره .

قيل له : إنك لم تطعن في الدلالة ، بل تركت ذلك وادّعت دعوى أخرى ، فدعواك الحسد والمنافسة كدعواك / النص ، وهذا فيه أتم كفاية على بطلان قولك .

ثم يقال له : إن هذا الدليل قد دل على أن ليس هناك من رسول الله ﷺ نص على رجل بعينه ينافس فيه أو يحسد لأجله ، فلو أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعصوا الله بتعطيل نصه على أمير المؤمنين لما قدروا على ذلك ، ولا وجدوا سبيلا إليه ، لأنه شيء ما كان قط ولا وجد .

ثم يقال له : لو كان هناك نص حقي ينافس صاحبه أو يحسد لما قدح ذلك في العلم به ، ولما زادت المنافسة إلا قوة . ألا ترى أن أهل المدينة لما نصوا عليه بعد عثمان قد نافسه معاوية ودفعه عن الخلافة فما أثر ذلك في العلم بمقد أهل المدينة عليه ، بل زاده قوة ونشروه وبسطه . وقد عقد أهل الكوفة للحسن بعد أبيه رضي الله عنها ، فدفعه معاوية ونافسه وزاحمه وغالبه وغلبه ، فما أثر ذلك في العلم بالعقد له بل زاده قوة . وقد ترشح سعد ابن عبادة الأنصاري للخلافة بعد رسول الله ﷺ ، ورأى نفسه أهلاً لذلك ، فدفعه أبو بكر الصديق عن ذلك ومنعه منه .

وقد ادعى مسيئة النبوة فدفعه أبو بكر الصديق عن ذلك ومنعه وقتله ، وادعى طليحة ذلك فمنعه أبو بكر ودفعه وأسرّه ، فما أثر ذلك في العلم بما

ادعى هؤلاء ودعوا اليه بل زاده قوة وعرف الناس الدعوى والمدعى، والرافع والمرفوع، والمانع والممنوع، هذا وليس لسعد احد يقول بامامته ولا يخاصم فيها، ولا يضع فيها الكتب، ولا يسير فيها الاشعار، ولا يقيم فيها المناحات، وكذا ما ادعاه مسيلمة وطلحة، فعلمت ان هذا شيء ما فعله رسول الله ﷺ / ولا ادعاه، ولا ادعاه امير المؤمنين ولا دعا اليه، ولا كان احد من الصحابة يتدين بذلك، ولا يذهب اليه 'حر' ولا عبد، ولا ذكر ولا أنثى. يزيدك رضوحاً بذلك، ان امير المؤمنين لما عقد له اهل المدينة كان قوم معه وقعد قوم عنه فلم يكونوا معه ولا عليه وكانوا في المدينة معه، كأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وسعد بن مالك، وغيرهم. ثم رجع قوم ممن كانوا معه فصاروا عليه، وهناك قوم لم يكونوا معه بل كانوا في جميع الاحوال عليه، ويعلم بذلك كل عاقل سمع الاخبار.

وهؤلاء زعموا ان رسول الله ﷺ قام بهذا النص الشامل العام، وعرف الناس هذا الفرض وقدره عندهم، وأداه اليهم بحسب عمومته وشموله، وأعلمهم انه شيء يلزم كل واحد منهم، من حر وعبد وذكر وأنثى ومسافر ومقيم وعليل وصحيح، وانهم أظهروا له القبول والرضا، فلما مات ارتدوا كلهم ورجعوا عن هذا النص.

وقال هشام: ارتدوا كلهم إلا ستة نفر منهم، قلنا: فقد كان ينبغي ان يكون العلم بهذا عند كل من سمع الاخبار، وان يكون أقوى وأقهر واغلب من العلم بالذين قعدوا عن امير المؤمنين فلم يكونوا معه ولا عليه، ومن العلم بالخوارج الذين كانوا معه ثم صاروا عليه، ومن العلم بما كان بينه وبين معاوية، ومن العلم بالتحكيم، وإلا فكنا نكون كمن قال: ترون الحصة وهي على ابي

قبيس^(١)، ولا ترون أبا قبيس، وهو مكان الحصة لأن ذاك العقد من رسول الله ﷺ اعظم، وفرضه أعم وأشمل من النص على القبلة، وعلى صيام شهر رمضان، وعلى الجمعة وغسل الجنابة. ألا ترى ان فرض القبلة يسقط عن خفيت عليه الدلالة وعن المتأنف^(٢) وعن المسافر في التطوع ولا يسقط عنه اعتقاد الإمامة وطاعة الإمام، وقد تسقط الجمعة عن المسافرين والمرضى والنساء والعبيد ولا يسقط عن احد منهم اعتقاد الإمامة وطاعة الامام، وقد يسقط الصوم عن المسافرين والمرضى والحيض ولا يسقط عن أحد منهم اعتقاد الإمامة وطاعة الامام، فلو كان كما ادعوا لكان العلم بذلك عند كل عاقل سمع الأخبار أقوى وأقهر. وأغلب من العلم بالقبلة وبصيام شهر رمضان، وبالجمعة وبغسل الجنابة. ومثله في النصوص، نص النبي ﷺ على انه رسول الله الى الناس جميعاً، ألا ترى أن العلم بذلك حاصل عند كل عاقل سمع الأخبار، ممن صدقه او كذبه، فلو كان لهذا النص أصل لكان يعلمه كل عاقل سمع الاخبار وإن لم يقبله وإن لم يتدين به. كما علم اليهود والنصارى والمجوس انه عليه السلام نص على انه رسول الله اليهم، وأن طاعته عليه السلام تلزمهم وتجب عليهم، وفي عدم العلم بذلك دليل على أن هذا شيء ما فعله رسول الله ﷺ ساعة قط، ولا كان منه فيه إشارة ولا إيماء بوجه من الوجوه.

ولسنا نقول: إنه لو فعله لقبولوه وعملوا به، بل نقول: كان العلم يحصل

(١) ابو قبيس: جبل بمكة سمي برجل من مذبح حداد لأنه اول من بنى فيه. القاموس

(٢) المتأنف: المبتدئ. والالتفاف: الابتداء.

بسه عند كل من سمع الأخبار وإن لم يعملوا به ، وإن اجمعوا على تعطيله كما اجمعوا على تعطيل إمامة سعد بن عباد ، ونبوة مسيلة وظليحة . فاعرف ذلك .

ومما يزيدك بياناً ، ان النبي ﷺ قد نصّ على اشياء ، فلما قبض ارتدت العرب عن ذلك بألوان الردة ، / فادعى مسيلة النبوة في ربيعة بأرض اليمامة وادعى مثل ذلك طليحة في بني اسد ، ورجعت قبائل كثيرة من فزارة وقضاة وغيرهم ممن هو معلوم عن الشريعة كلها ، واستثقلوا ما حرّم عليهم من الحمر والزنا والربا والسرقة والغارة وغير ذلك ، وارقد من بالبحرين وبنو يربوع وغيرهم لمنع الزكاة ، وقالوا لأبي بكر : نشهد الشهادتين ، ونقيم الصلاة ، ونجاهد معك العدو ؛ فلإن ابينت ذلك لحقنا بالعدو وحاربناك .

وأقسام ابو بكر والمهاجرون والانصار على الاسلام ، وجاهدوا المرتدين كلهم ، فحصل العلم بذلك عند كل من سمع الاخبار . فلو كان لما ادعاه هؤلاء القوم ادنى إشارة ، لكان العلم بذلك مثل العلم بهذه الامور ، بل قد كانت ينبغي ان يكون اقوى واقهر ، وإنما هذا شيء ادعاه ابو كامل وهشام (١) بعد انقراض الصحابة ، والتابعين وتابعي التابعين ، وتابعي تابعي التابعين .

وعلى ان قوله عليه السلام : « انت مفي بمنزلة هرون من موسى » ، « ومن كنت مولاه فعلي مولاه » ، وما اشبه ذلك مما يجعلونه حجة في دعاويهم ، ليس من ألفاظ النصوص والاستخلاف والوصايا في لغة ولا في عقل ولا في شريعة ، وإنما هي فضائل ادخلها هؤلاء في هذه الدعاوي ، وانه امر

لا تقوم به حجة ، ولا يحدون فيه حيلة ، فلجئوا الى التعلق بهذه الفضائل ، وقالوا : هي نصوص ، فلو لم يدلك على فساد قولهم إلا تعلقهم بهذه الاشياء لكفأك وأغناك .

وقد رفع الله قدر رسول الله ﷺ ان تكون نصوصه ووصاياه بمثل هذه الالفاظ ؛ يزيدك بياناً انه عليه السلام قد نص على خلق كثير بالولاية والإمارة ، فقال / في غزاة مؤتة للجيش الذي أنفذه : اميركم زيد بن حارثة ، فإن هلك فجعفر بن ابي طالب ، فان هلك فعبد الله بن رواحة . ومثل ذلك في الامراء ولعلمهم نحو ألف امير ، ما فيه نص بهذه الالفاظ التي يدعونها هؤلاء .

وقد استخلف ابو بكر عمر بن الخطاب ، وعمر اهل الشورى ، فليس فيهم من قال من كنت مولاه ففلان مولاه ، وكذا سائر من عهد الى احد لم يذكر هذا اللفظ ، وهم عرب وفصحاء ، وفي دعوة الاسلام ، ويتمون الى رسول الله ويؤكدون عقودهم بكل ما يقدرون عليه بما هو مستعمل في اللغة والشريعة ؛ وهم لا يعرفون هذا اللفظ في العقود ، وإنما هذه فضائل لا مدخل لها في النصوص والوصايا والعقود . وقد قال رسول الله ﷺ في رجال كثير ما هو أكد وأشرف من هذا وأوضح ؛ ألا ترى انه قال : « اقتدوا بالذين من بعدي : ابو بكر وعمر (١) » ، وقال عليه السلام : « هما كالملائكة والأنبياء ، في قصة أسارى بدر ، لما أشار عليه ابو بكر بالغفو عنهم

(١) انظر كتب المناقب وفضائل الصحابة في كتب الحديث ففيها الكثير من الاحاديث في فضائل الصحابة جميعاً .

(١) سبق ان مر التعريف بأبي كامل وهشام بن الحكم .

واستبقائهم ، وأشار عليه عمر بقتلهم واستئصالهم ، فقال رسول الله ﷺ : إن لأبي بكر وعمر إخوة من الملائكة والنبيين تشبههما ، فأبو بكر كميكائيل في الملائكة ينزل بالنعمة والرفقة والرحمة ، وهو كإبراهيم الخليل إذ يقول : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم »^(١) ، وهو كالمسيح إذ يقول : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »^(٢) . ومثّل عمر كمثّل جبرائيل ينزل بالعقوبة والنعمة ، ومثله في الأنبياء كنوح إذ يقول : « رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً »^(٣) ، وموسى إذ يقول : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم »^(٤) . وإث الله ليشد في هذا الدين قلوباً فيجعلها كاللحجارة ، ويلين فيه قلوباً / فيجعلها ألين من اللبن . وشبه عثمان بلوط عليه السلام ، فإنه لما أسلم آذنه قريش ، فهرب بدينه إلى أرض الحبشة ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ودعها رسول الله ﷺ وعانت عثمان وقال : « إنه لأول من هاجر بدينه مع أهله بعد لوط » ، وقال عليه السلام : « من أحب أن يسمع القرآن غصاً كما أنزل فليسمع من ابن أم عبد »^(٥) ، وقال عليه السلام : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد ، وكرهت لها ما كرهه ابن أم عبد »^(٦) ، وقال للانصار : « إنكم لتكثرلون عند الفزع وتقبلون عند الطمع » ، « ولو سلك الناس شعباً

ووادياً وسلكت الانصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الانصار وواديهم » ، وقال : « الانصار كرسقي وغيبتي ، ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الانصار »^(١) وقال في عمه العباس وفي تفضيله وتفضيل ولده الاقوال الكثيرة ، وقال في معاذ ، وفي عبد الرحمن ، وأبي عبيدة^(٢) ، وغيرهم من المهاجرين والانصار ما هو معروف مكشوف لا يشك فيه ؛ فقد كان يقبني على ما يدعي هؤلاء ان تكون هذه الفضائل نصوصاً^(٣) اذا كانت الالفاظ على خلاف ما يعرف منها في اللغة العربية .

وهؤلاء يقولون : انتم لستم من العرب ولا تعرفون العربية ، فلهذا ذهب عليكم ان قوله : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، وانت مني بمنزلة هرون من موسى ، [يعني الاستخلاف]^(٤) .

قلنا قد فرغنا من هذا مرة وبيننا ان هذا ليس من الفاظ الاستخلاف البتة ، لا في عقل ، ولا في لغة ، ولا في شريعة .

وأيضاً ، فلو كان هذا من ألفاظ الاستخلاف لكان اولئك القوم الذين سمعوا هذا من رسول الله ﷺ قد عرفوا صدقه وقصده ، فكان من بعدهم يعرف ذلك كما عرفوا وان لم يكن من العرب ولا يعرف العربية ، لأن مدار الامر في ذلك / وأشباهه على المعاني لا على الالفاظ . ألا ترى ان رسول

(١) ابراهيم ٣٦

(٢) المائدة ١١٨

(٣) نوح ٢٦

(٤) يونس ٨٨

(٥) رواه الامام احمد في مسنده وابن ماجه والحاكم عن ابي بكر وعمر . انظر الزيادة على

الجامع الصغير ٣ : ١٤٨

(٦) رواه الحاكم عن ابن مسعود . انظر الجامع الصغير ٤ : ٣٣

(١) لفضل الانصار انظر مناقب الانصار والصحابة في كتب الحديث .

(٢) انظر لفضلاء هؤلاء ابواب المناقب في كتب الحديث ، وانظر الرياض النضرة في فضائل العشرة للطبري .

(٣) في الاصل : نصوص

(٤) في العبارة نقص ، ولعلها ان تستقيم بإضافة « يعني الاستخلاف » في آخرها .

الله ﷺ لما دعا ونصّ : أني رسول الله الى الناس كافة ، وأنه حجة الله على كل ما يأتي الى يوم القيامة ، وأنه لا شيء معه ولا بعده ، وجميع ما دعا اليه وحرمه من المحرمات ، علم ذلك من قصده وماعناه وأراده كل عاقل سمع اخباره من العرب والروم والفرس والهند والقبط والأرمن ، ممن يحسن العربية ومن لا يحسنها ولا يدور لسانها ، ولا يحسن [التلفظ] ^(١) بقول رسول الله ، ولا يحسن يتلفظ بشيء من المحرمات ؛ كل قد عرف ذلك من قصده بإشارة الخرس الذين بلغتهم الدعوة من المؤمنين والكافرين . فيعلم بطلان هذه الدعاوى .

بل لو تكلم ﷺ بما لا يعرفونه في اللغة ، وقصد به معنى من المعاني ، ونقلهم عما يعرفون في لغتهم لعرفوا قصده ومراده . ألا ترى ان الوضوء في اللغة انما هو التنظيف ، فجعله اسماً لغسل هذه الأعضاء الاربعة فعرفوا قصده ، وان لم يكن قبل ذلك في اللغة . والصلاة في اللغة : الاتباع والدعاء ، لا يعرفون إلا هذا ، فجعل ﷺ هذا اسماً للتوجه الى القبلة بعد الوضوء مع الركوع والسجود ، فعرفوا قصده وإن لم يكن ذلك في لغتهم .

وكذا الزكاة ، انما هي في اللغة اسم للزيادة والنماء في المال ، فجعله اسماً ^(٢) لما يؤخذ من اموالهم ، فعرفوا قصده ، وعرف من بعدهم ممن بلغه خبرهم مثل ما عرفوا ، فيعلم ان رسول الله ﷺ ما عني بالأخبار التي يروونها عنه ما ظنوه وعنوه .

وقد دعا امير المؤمنين علي بن ابي طالب الى نفسه ، وفرض على الناس

(١) اضافة على الاصل

(٢) في الاصل : اسم

طاعته ، وابتلى بن خالفه ، / وعن قعد عنه ، وعن ضلله ، وعن ارتد عنه من اصحابه ؛ فما احتج على مخالفه إلا بالاختيار ، وان طاعته قد وجبت لأنه قد بايعه الذين بايعوا ابا بكر ، وعمر ، وعثمان . وقد احتج لنفسه ، واحتج عنه ولده وشيعته وأهل بيته ، وكاتب معاوية وراسله . ثم صار الى الشام ، واحتج على اهل الشام وأهل البصرة وأهل النهر هو وأصحابه ؛ فما احتجوا في مكاتبة ولا في مراسلة ولا في مشافهة ، إلا بأنه قد بايعه الذين بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان وأنه لا تحمل مخالفته كما لم تحمل مخالفتهم ، ولا يذكرون في احتجاجهم كما يذكر هؤلاء من الآيات ولا من الاخبار ، ولا قوله « من كنت مولاه » ، ولا « انت مني بمنزلة هرون من موسى » ، مما يحتجون به . فلو كانوا هؤلاء شيعة رضي الله عنه لسلخوا سبيله واقتفوا اثره ؛ فقد بُلي من هذا الأمر ، ومن خلاف الناس عليه ، ومن رجوع اصحابه عنه ، ومن اكفارهم له ، ما لم يبتل به ابو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا احد من اهل الشورى والبدريين . وقد بالغ في اقامة الحجة عليهم وكلمهم من اهل القبلة وأهل الصلاة والى القرآن يرجعون ، وبأحاديث رسول الله ﷺ يحتجون ، والحجة من قبله يطلبون ؛ فما قال قط ولا ولده ولا من يحتج عنه من اهل بيته : ان رسول الله ﷺ قد قال في : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ولا انت مني بمنزلة هارون من موسى ، وهذا نص منه على استخلافه ، وهذا شيء تأويله النص ، وباطنه الاستخلاف . ولا قال هو ولا احد من اصحابه ومن يحتج له : لم تكفروني وتضلوني والني قد استخلفني ونص علي وشهد بعصمتي ، وأني لا أخطيء . ولا أزل ولا أضل ولا يقع مني معصية الله . وهو رضي الله عنه أعلم بدين الله وبالحجة وأفق وأبصر وأشجع ، فلو كان لذلك أدنى إشارة / من رسول الله ﷺ

لاحتج بها وببَيِّنَتها قبلوا ذلك منه أو لم يقبلوا . وفي هذا أتم بيان وأوضح حجة .

وأعلم ، أن هؤلاء يحتجون منذ زمن ابن الراوندي : ان رسول الله ﷺ وسلم نص عليه نصاً مكشوفاً لا يحتمل التأويل ، فقال : علي بن ابي طالب الخليفة عليكم من بعدي ، وقال لهم : « سلموا عليه بإمرة المؤمنين ^(١) » ، وأن رسول الله ﷺ قام فيه في مقام بعد مقام ، وفي عام بعد عام ، نحو مائة مقام منذ بعثه الله بمكة والمدينة ، والسفر والحضر ، الى ان توفاه الله ؛ فينبغي ان لا تكلمهم إلا في هذا النص المكشوف المعروف ، وتقول لهم ، المصير الى الأمر المكشوف والحجة الواضحة اولى بنا وبكم من المصير الى المشكل الملتبس الذي يحتمل التأويل ، فإن الكلام عليهم حينئذ يكون اوضح وأقصر ؛ فيجري هذا مثل نصه عليه السلام على النبوة .

وهم يفرّون شديداً من هذا النص المكشوف مع من يعلم ويحصل ، فإن ابتليت منهم بمن يقول : لا أتكلم في النص المكشوف بهذا ، فقل له : إن كنت لا تتكلم فيه فسلم لنا بطلانه وكذب من ادعاه وادّعى نقله . فان قال : لا أسلم ، قيل له : ليس يخلو من ان يكون حقاً وصدقاً فينبغي أن تصير بنا اليه ، أو كذباً وباطلاً فينبغي ان تتبرأ منه وتخطيء من احتج به . فإن قال : كذلك أفعل ، قيل له : فهذا شيء قد ادّعته أمم عظيمة ،

(١) ان اكثر الاحاديث التي رويت في خلافة علي ضعيفة او موضوعة ، وعلى فرض صحتها فانها تشير الى الخلافة على اهل صلي الله عليه وسلم ، منها : « ان اخي ووزيري وخليفتي من اهلي وخير من اترك بعدي يقضي ديني وينجز موعدي علي » . انظر تنزيه الشريعة عن الاخبار الشنيعة لعلي بن القرن الكتاني ، الجزء الاول ، ففيه الكثير من هذه الاخبار .

وادّعت معرفته ونقله . فإن قال : هم كذا يدّعون ، وإنما وضعه لهم واحد من الناس وقال لهم : إن هذا قد قاله النبي ﷺ ونقلته عنه الامم فأحسنوا به الظن وصدقوه وإن كان لا أصل له .

قيل له : وكذلك ما تدعيه انت من التأويل في الآيات / والأحاديث التي تحتج بها ، ما أراد رسول الله ﷺ ولا امير المؤمنين بها ما تعنيه انت وتعتقده ، وإنما هي فضائل ، ولكن هشام بن الحكم قال هي نصوص والنبي ﷺ اراد بها الاستخلاف ؛ فأحسن به قوم الظن قبلوا ذلك منه واعتقدوه وادّعوا انهم ومن قبلهم قد نقل ذلك عن رسول الله ﷺ ، وليس هناك شيء ينقل ولا يكتب ، ولكنهم قوم سمّوا اعتقادهم نصاً ودعواهم نقلاً ، كما يدّعي اليهود ان موسى عليه السلام نصّ لهم على تأييد شريعته ؛ وكما يدعون هم والنصارى من الصلب وكما يدعي النصارى خاصة قيامه من قبره وانه عليه السلام أقام معهم اربعين يوماً ثم صعد الى السماء وهم يرونه ؛ وكما ادّعوا ان هيلانة الخرازية وقع اليها [الخشبة] ^(٢) التي صلب عليها المسيح مع خشب غيرها فلم تعرفها وأشككت عليها فامتحننت ذلك بجنائز مرت بها ، فجعلت تضع عليها خشبة بعد اخرى من خشب المصلين ، فلم يقم الميت إلا بآخر خشبة ، قالوا : فعلت انها هي الخشبة التي صلب عليها المسيح . فقالوا : وقد شهد هذا الامم الكثيرة بببيت المقدس من اليهود والروم غير ان اليهود كتموا ذلك ، ويسمّون هذا اليوم : عيد الصليب ^(٣) ؛ ويوم قيام المسيح من قبره بزعمهم عيد السلامة . ولهم مثل ذلك كثير ، وهذا امر لا

(١) في الاصل : الصليب ، وقد صححها المعلق بالخشبة .

(٢) في الحاشية عنوان الكاتب او المعلق لهذا البحث بقوله : عيد الصليب عيد السلامة .

أصل له ، وإنما هو موضوع لهم أحسنوا به الظن كما أصاب هؤلاء الرافضة من اصحاب النص .

ب / على ان هشام بن الحكم قد أقر بذلك فقال : قد ادركت الشيعة في الصدر الاول وهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ويصوبونهم ، ويقولون : هؤلاء ما دفعوا امير المؤمنين عن حقه ومقامه ، وإنما دفعه المنافقون / الذين كان القرآن يهتف بهم فنظر هؤلاء فاذا ليس احد أحق بالإمامة بعد علي منهم ، فقاموا ذلك المقام بحق .

وقال هشام بن الحكم : ومنهم من قال : لما رأى الوصي علي بن ابي طالب المنافقين قد أزالوه عن موضعه ، قدم أبا بكر واستخلفه ليكون بمكانه الى ان يتمكن فيزيله .

قال هشام : وهذا كله تلزيق وتلفيق دعاهم اليه الجبن من الإقدام على التبرؤ من ابي بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والانصار ولو عرفوهم كما عرفتهم أنا لأقدموا على البراءة منهم ^(١) .

وقد ذكر هذا ايضاً ابن الراوندي في كتابه « الإمامة » الذي نصر فيه قول الرافضة في البراءة من المهاجرين والانصار وحكاه عن هشام .

فهذا ما أقر به الخصم فكيف ما لم يقر به ؛ ولو لم يقر به لعلمنا ان الامر كذلك . وهشام انما كان في ايام بني العباس وهلك في دولة هارون

(١) علق الناسخ او المعلق على هذا بقوله : « لمن الله ناقل هذا القول وقائده » حيث كانوا يطلبون تغريب شمس الدين وإطفاء انوار الاسلام والمسلمين ، عندهم الله تعالى وأقوالهم ، وأطفاهم وآثارهم آمين ، آمين ، آمين .

الرشيده ، لتعلم ان الذي ادعى النص وجراً للناس على شتم ابي بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والانصار هشام بن الحكم ، وهو ابتداء ووضعه ، وما ادعى هذا النص والاستخلاف احد قبله .

ولو كان هشام من اهل القبلة ، لما كان دعواه ودعوى مائة ألف معه مثله حجة ، فكيف به وليس من اهل القبلة ، وهو معروف بعداوة الانبياء ، وقد أخذ مع ابي شاعر الديصاني ^(١) صاحب الديصانية ^(٢) وكان معروفاً به وبصحبته ، فادعى انه من الشيعة ، فخلصه بعض اصحاب المهدي حين ادعى انه يتشيع لبني هاشم فلم يصلبه مع ابي شاعر .

وقد ذكره العلماء بالمقالات بمذهب الديصانية ، وذكره الحسن بن موسى النوبختي في كتابه « في الآراء والديانات » ^(٣) حين نقض عليه / مذهبه في ان الله جسم ونور يتحرك ؛ فقال له الحسن : هذا مذهب المانوية نعوذ بالله من موافقتهم . وإنما ذكرنا الحسن بن موسى ، لأنه من الرافضة .

وقد حكى عن هشام ايضاً ابو عيسى الوراق ، وابن الراوندي ، وأبو سهل بن نوبخت ، وهؤلاء كلهم رافضة .

والذين حكى هشام عنهم من الشيعة أن المنافقين أزالوا امير المؤمنين عن مقامه ، فقد غلطوا ايضاً ، فإنه قد بينا ان رسول الله ﷺ ما كان منه نص في ذلك فيزيله احد من الناس .

(١) انظر الفهرست لابن التديم ص ٤٨٧

(٢) الديصانية إحدى فرق الثنوية ، وتعتبر أصلاً للمانوية ، وإنما اختلفت الفرقتان في كيفية اختلاط النور بالظلمة . انظر الفهرست ٤٨٨

(٣) من كبار المتكلمين ومؤرخي الفرق ، ويعتبر كتابه « الآراء والديانات » من أهم ما كتب حول الاديان والمذاهب والفرق . انظر الفهرست ٢٦٥ - ٢٦٦

وأيضاً ، فإن الغلبة بعد موت رسول الله ﷺ لم تكن للمنافقين وإنما كانت للبدرين والمهاجرين والانصار ، الذين يعتقدون نبوته صلى الله عليه ، وصدقه ، وإقامة نصوصه ، وإحياء شريعته ، وإذلال عدوه ، وإعزاز وليه ، وهم الذين ردوا الى الاسلام من ارتد من العرب ، وغزوا من أعداء رسول الله ﷺ ملوك الفرس والروم والهند والترك وسائر الامم المشركين وأدخلوهم في دينه وأدخلوا بلدانهم في ممالكه ﷺ ، وإنما يدّعي أن الغلبة كانت للمنافقين من لا علم له ولا تحصيل عنده .

وكان هشام يقول : لعمرى إن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما احتج في إمامته بنص النبي ﷺ ولا بوصيته في الأمة إليه ، وأنه كتم ذلك خوفاً من المهاجرين والانصار ، فأمسك وسكت .

قبل له : قد فرغنا من هذا ، وبيننا ان ليس هناك نص ولا وصية ولا شيء يكتّم ولا ينقل .

وأيضاً ، فإن امير المؤمنين ما سكت ولا أمسك ، بل تدين بالاختيار وأظهره وجعله الحجة على من خالفه وقال : وجبت طاعتي وإمامتي لأنه بايعني اهل دار الهجرة الذين / بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان ، فوجبت طاعتي وإمامتي كما وجبت طاعتهم ، وحرمت مخالفتي كما حرمت مخالفتهم ، وأعاد هذا وأبداه في خطبه وكتبه وجعله الحجة ؛ فتمى سكت وأمسك .

وأيضاً ، فلم يكن سلطان ابي بكر وعمر وعثمان وعلي سلطاناً يخاف فيه محقق ولو كانت امرأة ارملة ذمية ، فضلاً عن غيرها . ألا ترى ان الأنصار قد تكلموا مع سعد بن عبادة والعباس وبني هاشم وأبي سفيان وبني عبد مناف في الإمامية بما ارادوا ، وكلوا ابا بكر وثابذوه الى ان أقام الحجة .

١٠٧ / ب

وعارضوه في انفاذ جيش أسامة بن زيد وقالوا له : ليس علينا في هذا الوقت من الروم خوف ، ولا حاجة بنا الى غزوهم في هذا الوقت والعرب قد ارتدت وأحاطت بنا ، فدفع هذا الجيش يكون لنا ، فقال لهم ابو بكر رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ يقول والوحي ينزل عليه : أنفذوا جيش أسامة ونقول نحن لا نرى ذلك ، برأينا ؛ فقال له قوم : فأقم على جيشه اميراً مكانه احسن منه فإنه حدث وفي جيشه المشيخة والكهول ، فقال : أيوليه رسول الله ﷺ وأنزعه انا ، لا يحل هذا .

ولما جاء الذين منعوا الزكاة ونزلوا على المهاجرين وقالوا لهم : قولوا لخليفة رسول الله ﷺ يعفينا من الزكاة فانا نقيم الصلاة ونجاهد معكم ، فان لم يفعل صرنا مع العدو وحاربناكم . فمشوا الى ابي بكر رضي الله عنه ، وسألوه أن يقبل ذلك منهم ، فقال : لا أفعل ، ولا يحل لي هذا ولا لكم ، قالوا : فنحن في قلة والعرب قد ارتدت ، فمن نقاقل ومن ندع ؟ لا طاقة لنا بقتال الناس كلهم ، فاقبل منهم الى ان تنكشف هذه الفتن فانا قد خفنا على المدينة وعلى ائثال رسول الله ﷺ وأثقنا ، فقال : ما كنت لأفعل ولو بقيت وحدي ، اني إن قبلت رأيكم نقضت / الاسلام عروة فعمرة . ايها الناس ، إن مات رسول الله ﷺ نبيكم ﷺ ، وكثر عدوكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان هذه منكم ؛ والله ليظهرن الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، وليستخلفنكم في الأرض كما وعدكم ، وتلا قوله عز وجل : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

(١) التوبة ٣٣ ، والصف ٩

ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ^(١) ، وقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ^(٢) » .

وقالوا له : أفتقاتلهم وتقتلهم وقد قالوا : لا إله الا الله ؟ قال : انها غير مقبولة منهم لأنهم منعوا الزكاة ؛ قالوا : فتقتلهم على ابن لبون ^(٣) وعلى الحقبة والشاة وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ^(٤) » فقال ابو بكر فان فيه : إلا بحقها ، وهذا من حقها . فطال ما بينهم في ذلك ، فحين اقام الحجة صاروا الى قوله .

ولما فتح الفتوح وواتته ^(٥) الاموال من كل وجه سوى بين الناس في العطاء ، فعارضوه في ذلك ، وقالوا : سويت بين من اسلم الآن وبين من سبق وبين من نصر وهاجر ، فقال : هؤلاء عمال الله وأجورهم على الله ، وانما الدنيا بلاغ ؛ والله لو شتمت معشر الانصار ان تقولوا : طردتم فأويناكم وخذلتهم فنصرناكم

(١) النور ٥٥

(٢) البقرة ٢٤٩

(٣) ابن لبون من الإبل : ما له سلتان ، والحقبة من الإبل بنت ثلاث .

(٤) حديث متواتر ، رواه الستة بإسناد صحيح . انظر الجامع الصغير شرح المناوي ١٨٨:٢

(٥) وافته في الأصل ، لعل اضافة الواو تجعل اسباق اكثر انسجاماً .

وأفقرتم فواسيناكم ، واني لأجد / مثلنا ومثلكم في قول طفيل الغنوى : ١٠٨ / ب

جزى الله عنا جعفراً حين اشرفت ^(١) بنا فعلنا في الواطنين فزلت
أبو أن يحلونا ولو ان امننا تلاقي الذي يلقون منا مللت
لهذو الحظ موفور وكل مقسم لدى حجرات اثقات ^(٢) أظلت

وراسته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وعليها وقالت :
ما بالك خليفة رسول الله ورثت رسول الله دوننا ، فقال : ما ورثته ،
قالت : فأين نصيينا من امواله بخير وفدك ، فقال : اني سمعت رسول الله ﷺ
يقول : « هذا المال لحمد وآله حياته ، فإذا مت فموا الى والي الامر
بعدي ، فان كان معك من رسول الله ﷺ عهد صرت الى قولك ؛
والله ما اريد شاهداً معك غيرك . فرجع الرسول فقال : تقول لك فاطمة :
لا والله ما معي عهد من رسول الله ﷺ ، ولكن رسول الله دخل علينا
وهو يتلو : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كيلا يكون دولة بين الاغنياء
منكم » ^(٣) ، فقال : ابشروا آل محمد بالغنى . قال ابو بكر : إن كان
بكم الغنى ولكم الغنى . ثم صار اليها ابو بكر وسألها عن عهد من رسول
الله ﷺ ، فقالت : ما معي اكثر مما قلت ، فقال : إذا لم يكن معك عهد
من رسول الله ﷺ فما كنت لأدع ما اسمعه من رسول الله ﷺ بقول احد .
وكلمه العباس في ذلك وطالبه بالحجة ، فذكر ما سمعه من رسول الله ﷺ

(١) ووردت في موضع آخر « ازلقت » . انظر فتوح البلدان ٣١

(٢) ووردت في موضع آخر « ارفأت » .

(٣) الحشر ٧

وقال : انا اوجه هذا المال / في الوجوه التي كان رسول الله ﷺ يجعلها فيها ، ورد ابو بكر هذه الاموال الى علي بن ابي طالب وقال له : افعل فيها ما كان رسول الله ﷺ يفعل . وكذا فعل امير المؤمنين رضي الله عنه حين صارت اليه الخلافة بعد عثمان ، وهو فعل الخلفاء الاربعة وجميع الصحابة والتابعين بعدهم ، فاعرف ذلك .

وعارضوه حين شاروهم في استخلاف عمر ، فقال له قوم : هو الخيرة بعدك غير أن فيه شدة وهو مهيب ، وفي الناس الأرملة والضعيف وذو الحاجة ، فاستعمل علينا من هو ألين منه كنفاً ؛ وكانت لهم معه في ذلك مطالبات ومراجعات وعمر يسمعها ويعلمها ، الى أن قال لهم ابو بكر : انما أستعمله عليكم لأنه أقواكم عليكم وأنفعكم لكم وأردكم عليكم ، شهيدي الله : ما أردت إلا ذلك ، وقد خاب من تزود من أعمالكم بظلم ، إن عمر ليس ولدي ولا من اهلي ، وانما أردت الخير لكم ؛ وإني قد رمقته فكنت اذا لنت في الشيء أراني فيه الشدة ، واذا أشددت أراني فيه اللين ، ولو قد وليكم للان واشتد . ثم قال : ان عمر لا يأنف من التعلم ، فحين أقام الحجة سلموا ورضوا . ثم عهد تلك العهود المعروفة ، وكل من شيء قد عارضوه فطالبوه بالحجة مما هو اكثر من هذا .

ومعارضتهم لعمر في امر الشواد (١) ، وفي فتوح الشام ، وفي تأمير الامراء ، وفي الفتوى والقضاء ؛ حتى كان يعارضه في ذلك المرأة والبدوي فضلاً عن المهاجرين بما هو معروف الى ان يقيم الحجة او يرجع الى قول من معه الحجة .

(١) يقصد هنا اختلاف من آراء المسلمين في امر سواد العراق لما فتح الله على المسلمين العراق وفارس ، فقد كان من رأي البعض توزيعه على المسلمين ، بينما رأى عمر رضي الله عنه إبقاء الأرض في ايدي اصحابها ليستفيد من خراجها المسلمون جميعاً وقد وافقه المسلمون على رأيه .

وعثمان ، فقد عارضوه في إتمام الصلاة بئى ، وفي الحمى ، وفي الحكم بن ابي العاص ، وفيمن ولاء من اهله ، وأخذوه بإقامة الحدود عليهم ، وبإقامة الحجة فيما يأتيه بما هو معلوم (١) .

وعلي رضي الله عنه قد عارضوه في تولية أقاربه وفي الحكم الذي أنقذه بما هو معلوم / ؛ حتى كان يجري على هؤلاء الخلفاء الاربعة من صغار رعيتهم في الفروع وفي صغار الامور ما هو معروف ، فكيف يجوز ان يتوهم عاقل تدبر أمورهم وعرف سيرهم ، أنه قد كان اقل من الناس فخافهم ان يذكر لهم الحق ، او ينطق بحضرتهم ، او يتوقى ان يذكر ان يذكر لهم عهداً من رسول الله (ﷺ) او وصية لرسول الله (ﷺ) ؛ هذا لا يظنه الا أجهل الناس بهم وبأحوالهم ، او عاقل بقبس أحوالهم بأحوال من رأى وسمع من الجبارة وولاة الجور ، فاعرف هذا .

وانما لقي هذا الى الإمامية فيما صنفوه لهم قوم من أعداء الانبياء ادعوا التشيع وتستروا بالرفض ، لينفروا الناس عن شيد الاسلام وبنائه ونصر الرسول في حياته وبعد موته ، ليخرجهم من الاسلام من حيث لا يشعرون . وكما صنفوا في تهمة المهاجرين والانصار فقد صنفوا ايضاً في تهمة الانبياء

(١) مجموع المآخذ على عثمان رضي الله عنه ثمانية عشر هي :

ضربه لعمار بن ياسر ، ولابن مسعود ، وجمع القرآن وتوحيده في مصحف واحد ، وأنه حمى الحمى وأجلى ابا ذر الى الريزة ، وأخرج من الشام ابا الدرداء ، ورد الحكم بعد ان نفاه الرسول ، وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر ، وولى معاوية ومروان والوليد بن عقبة ، وأعطى مروان خمس افرريقية ، وضرب بالعصا وعلا على درجة رسول الله في المنبر ، ولم يحضر بدرأ ، ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان ، وكتب الى ابن ابي سرح في قتل البعض . وقد رد ابن العربي على هذا كله في كتابه القيم : العواصم من القواصم .

وشتهم وتكذيبهم ، وأنهم قد كانوا يتكلمون بالكذب وبالبهت بحضرة أمهم فيسكتون عنهم خوفاً منهم ؛ وهذا فعله بالأنبياء عمر بن زياد الحداد ، وأبو الوراق ، وأبو الحسين بن الراوندي ، وأبو سعيد الحسن بن علي الحصري ، وجابر بن حيان ، وهشام بن الحكم ، وأمثالهم ، كما قد عرفه العلماء (١) ، وكل هؤلاء الذين طعنوا علي أبي بكر وعمر والمهاجرين والانصار لفضل غيظهم على رسول الله ﷺ ، ولأن هؤلاء قاموا بأمره ونصروه في حياته ، وقاموا بدينه بعد وفاته وبثوه في مشارق الارض ومغاربها ، وقتلوا أعداءه ﷺ من العرب وملوك الفرس وملوك الروم وملوك القبط وملوك الهند والترك وأمم الشرك وأدخلوا امهم في دينه ﷺ .

فهذا ذنبهم عند علماء الرافضة ، ولكن عوامهم لا يفتنون . ولهذا قالت العلماء حين حدثت هذه البدع : لا تسبوا اصحاب محمد ﷺ ، فإنهم أسلموا من خوف الله وأسلم الناس بعدهم من خوف أسيافهم . ثم يقال هؤلاء قد وجدنا امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه مكاشفاً بالحق في جميع احواله ، لا يخاف من احد من المخلوقين وان كان وحده والناس عليه ؛ فإن رسول الله ﷺ خلقه بمكة وهي إذ ذاك دار كفر فما خافهم ولا فارقه مع وحدته وتفردته ، وقد كاشف معاوية وهو في مائة ألف سيف ، ولعنه بلسانه ، وقتت عليه في صلاته ، وضربه بسيفه ، وبين له وإن علم انه لا يقبل ، وقد كاشف الخوارج وبرى منهم وان علم انهم لا يقبلون وهم كانوا

(١) سبق ان عرفنا هؤلاء الأشخاص ، اما جابر بن حيان فهو ابو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي ، قال ابن النديم : « واختلف الناس في امره » ، فقالت الشيعة : انه من كبارهم ، وزعم الفلاسفة انه كانت منهم ، وذهب اهل صناعة الذهب والفضة الى انه رئيسهم . وذلك انه كان واسع الثقافة ، له باع طويل في التأليف في مختلف العلوم .

اصحابه وبهم صال على عدوه واستطال ، وأقام على مخالفتهم وإن فرقوا عنه اصحابه وإن قتلوه (١) ، فما قاربهم في كلمة ، لأنهم قالوا له : إن ثبت من الحكومة رجعتنا لك كما كنا وقاتلنا عدوك ، وإن أبيت اقتنا على حربك وقاتلناك حتى نقتلك او تقتلنا ، فقال لهم : انتم دعوتوني الى الحكومة ، قالوا : صدقت فقد تبنا وما كان لنا ان ندعوك وما كان لك ان تجيبنا ولا تحكم الرجال في دين الله ، فقال : بل كان لي ان احكم ، فلو كان ذلك معصية لما أجبتكم اليه ، ومن زعم ان الحكومة ضلال فهو أضل ، ومن زعم اني ارجع عنها فقد كذب . فصبر رضي الله عنه على ذلك ولم يقاربهم في لفظة تحتل التأويل ، لأنه لو قال انا قائب الى الله من كل ذنب وخطيئة وهو يعني غير الحكومة ، لكان اللفظ يحتمل ، ويتلافاهم ويرداهم ويكون بهم في عسكر عظيم / كما كان قبل رجوعهم عنه ، ويصول بهم على عدوه . فلم يفعل ، وأقام على حربهم ، الى ان قتلهم وقتلوه رضي الله عنه ؛ فما لان في كلمة تحتل التأويل ، ليبين للأولين والآخرين امر الدين ، فسا داراهم ولا قاربهم مع حاجته اليهم وخوفه من أسيافهم ؛ فهو ما كان يخاف الجبابرة والأحياء الذين هم في عساكر ويخافهم الناس فكيف يخاف من ابي بكر وعمر وعثمان في حياتهم وبعد مماتهم ، وهم في حياتهم وسلطانهم ما خافهم بحق قط وإن كان عبداً او امرأة ارملة ذمية . وانما يقول هذا من لا يعرف علياً ولا ابا بكر ولا عمر ولا عثمان ؛ فعليك بالمعرفة فانها حياة ، والذهاب عن طلبها موت ، وقد علم اهل المعرفة والعناية ان علياً كان في زمن ابي بكر وعمر وعثمان في علو الكلمة ونفاذ الامر مثله في سلطانه ، وأنه كان في سلطان هؤلاء أنفذ امراً وأعلى قولاً وأبسط لساناً منه في زمن رسول الله ﷺ وفي حياته .

(١) لعلها : قاتلوه

بَاب آخِر

قد علمت الحال التي ابداهها رسول الله ﷺ حين ادعى النبوة ودعا الى الله ، فانه اكفر الامم كلها وتبرأ منها واسقطها واسخطها واغضبها ، فما اعتمد بمخلوق كما قد تقدم ذكر ذلك . فكانت العرب واليهود والنصارى وقريش وغيرهم يبدأ واحدة في عداوته وطلب عثراته والحرص على قتله ، وهو بينهم على وحدته ، فيصرفهم الله عن ذلك بوجوه لا هو يعرفها ولا هم ، وبوجوه يعرفها ويعرفونها . غير انهم قد كانوا ينالونه بالشتم والضرب ويلقونه بالأرض ويدوسونه بأقدامهم ويلقون الفرث والتراب على رأسه ، ثم صار الواحد بعد الواحد والنفر بعد النفر يجهلون هذه حاله ، فيلقون معه الضرب والهوان ، ويعذبون ويحاجون ويحصبون في الشعاب ، ومنهم من يقتل ، ولا يمكنهم المقام معه بمكة فيهربون بأديانهم ، ويعبرون البحار ، والنبي ﷺ مقيم بمكة معه ابو بكر ونفر يسير .

وكان يخرج في المواسم الى العرب ، ويتلو القرآن ، ويدعو الى الله ، ويقم الحجة ، وقريش من اهل بيته يخرجون الى العرب يقولون لهم : لا تسمعوا منه فانه ساحر كذاب ونحن اهل بيته وأعرف به ، ويقولون : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون » ويمنعونه ﷺ / من البيان والاستيفاء ، وربما شغلوه بالضرب ، يتولى ذلك منه عمه ابو لهب وأشباؤه ، فيقول له العرب : اهلك اعلم بك ، ما نجيبك ، فاذهب عنا فقد عاديتنا وخالفتنا واسمعتنا في آلهتنا وآبائنا وأنفسنا ما لا نجيب ، وتستجيب له القبيلة بعد القبيلة من قبائل طيء وقبائل اسلم . وتسامعت به قبائل عبد القيس من ربيعة فأتوه وسمعوا

ولا فرق بين من ادعى ان علياً كان يخاف من هؤلاء الخلفاء او ان رسول الله ﷺ كان يخافهم ايضاً ، وأنه من خوفهم كان يشهد لهم بالجنة ويذكرهم . وهذا لازم لهم ، بل هو قول الرافضة لأنهم قالوا : ان علي بن ابي طالب حجة الله على خلقه كما كان رسول الله ﷺ ، وأنه معصوم كعصمة الانبياء . وقالوا مع هذا : قد زكى ابا بكر وعمر وعثمان ، وصاهر بعضهم ، وصلى خلفهم ، وحج معهم ، ودخل الشورى وعمل بالاختيار ، وصلى خلف صهيب كما وصى عمر ، وأطاع عمر كما وصى ابو بكر ، وعمل لهم اعمالاً كثيرة ، وأظهر تركيتهم ، ومدحهم بايمانهم وإن كانوا كفاراً ، كل هذا خوفاً منهم ومن بعدهم من شيعتهم فما تبين / الحق الى ان خرج من الدنيا .

قلنا : فاذا كان هذا هو الحجة والمعصوم والقائم مقام الرسول فعل هذا بغير حق ، لم نأمن أن يكون كل من صاهر النبي ومدحه ونص عليه وشهد له بالجنة وأمر الناس بطاعته ان لا يكون هذا حاله ، وأنه فعل مثل فعل هذا الحجة ، وهذا ما لا حيلة لهم فيه ، وفيه فساد الديانات كلها ، وإلى هذا قصد هشام ابن الحكم حين وضع هذه البدعة فاعرف ذلك (١) .

(١) وردت بهامش اللوحة ١١١ التعليق التالي :

رحمك الله يا سيدنا اقضى قضاة الحكم القاضي عبد الجبار ، أحسنت في حججك على الفاسقين الملاعين الكلاب المارقين الكاذبين الخاطئين المتحرفين عن الحق الحبشاء الروافض ، كتبهم الله تعالى وأبعدهم ، حيث يفسقون اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم اجمعين ، قلت : ما رأيت كلام رد على الملاعين الروافض أحسن وأدق وأثبت وأقوى وأنجح من هذه الحجج التي ذكرها القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه هذا ، فلا بد للمعتني بردهم ان ينظر في هذا الكتاب المبارك ، وهذا قليل الوجود وغير معلوم لأكثر الناس ، ولو علموا اسمه لا يعلمون ما فيه من الفوائد الكثيرة ، فاحتفظ وكرر نظره . ولكن مؤلفه مشهور بالاعتزال فان تاب منه فمحله الفردوس الأعلى في مقام المتقدمين ان شاء الله حيث نفع المسلمين بهذه الحجج والله اعلم .

منه واسلموا طوعاً بهذه الشرائط ، وتسامعت به بنو قيلة من قبائل الاوس والخزرج فأتوه وسمعوا منه القرآن والحجة فأسلموا ، ورجعوا الى قومهم فبجأوا بهم اليه عاماً بعد عام فأسلموا وبايعوه ، ورجعوا الى قومهم وهم قبائل كثيرة فأسلم اكثرهم طوعاً بهذه الشرائط .

وهاجر اصحابه الى المدينة بعد الذين هاجروا الى ارض الحبشة ، وقال الانصار للنبي ﷺ : انا كثرة ونمنع منك ونجاهد الأمم كلها معك ونطيعك في المحيا وبعد المحات ولا تأخذنا في الله لومة لائم ؛ فأخذ ذلك عليهم وانصرفوا . ثم صار إليهم مع ابي بكر الصديق رضي الله عنه ، وصار في عز ومنعة وفي عسكر ، ودعا الى الله ، وكانت له غزوات ووقائع ، وما زال امره يقوى حتى دلت اليهود والنصارى في جزيرة العرب وهم قبائل كثيرة ، حتى ادوا إليه الجزية ، وحتى صار من لا يعتقد نبوته في جزيرة العرب لا يمكنه اظهار ذلك لكثرة المهاجرين والانصار وأمثالهم ممن يعتقد نبوته وصدقه ، وحتى غزا الروم غزاة تبوك وهي آخر غزواته في ثلاثين ألفاً غير من خلفه من عماله واصحابه في جزيرة العرب وهي (١) ، اوسع من بلاد الروم .

وقبض ﷺ بالمدينة والغلبة فيها لمن يعتقد صدقه ونبوته من المهاجرين والانصار واتباعهم / وامثالهم ، وهم الذين احاطوا بأبي بكر وأقاموه خليفة وغزوا من ارتد عن دين رسول الله ﷺ حتى غلبوهم وأذلّوهم وقتلّوهم ، وغزوا فارس والروم وامم الشرك وجميع اعداء رسول الله ﷺ وأذلّوهم

(١) في الاصل : ولها ، ولعل الصحيح ما اثبتناه

وقتلوا ملوكهم وادخلوهم طوعاً وكرهاً في دين رسول الله وفي شريعته وادخلوا بلدانهم في بلدان الاسلام ، ولم يكن لهم شغل إلا اعزاز دينه ، وإقامة نصوصه ، واحياء شريعته وبثها ونشرها وإظهارها ، وإعزاز من اقام بدينه واذلال من تعرض لامانة شيء منه .

وكانوا بعد وفاته اشد بصيرة منهم في حياته ، لأنهم كانوا في حياته يتكلمون على تدبيره ، فلما مات ، وصار الامر إليهم ، زاد تيقظهم ، فرفضوا كل راحة ، وهجروا كل لذة ، وقصدوا لإقامة نصوصه واحياء شريعته الى ان يلقوا الارض كلها بذلك ؛ وما عندهم عمل ازكى من هذا .

وانما يظن ان نصوصه كانت تبدل وان كتابه كان يغير وان بئنه كانت 'تلتطم' ، الذي لم ينظر ولم يتدبر ، وهو كمن قال انه ﷺ كان بالمدينة يضرب ويشتم ويداس بحضرة المهاجرين كما كان بمكة ، وهذا لا يظنه إلا الغاية في الجهل بشأن المهاجرين والانصار .

فان قيل : او ليس قوم موسى قد عبد قوم منهم العجل في حياته وحياته اخيه هرون ، فلم انكرتم ان يرتد المهاجرون والانصار عن دين محمد ﷺ ، او ليس قد كانوا على ذلك قادرين ؟

قيل له : إن هذا السؤال لا يسأل عنه من فهم ما قلنا ، لأننا لم نقل : ان هؤلاء ما ارتدوا من طريق التزكية لهم ، ولا من طريق حسن الظن بهم ، ولا محابة لهم ، ولا لأنهم ما قدروا على ذلك ؛ بل قد كانوا على ذلك قادرين ولكنهم ما اختاروا ذلك ولا / فعلموه ، كما علمنا ان صاحبهم رسول الله ﷺ ما رجع عما كان عليه وان كان على ذلك قادراً ، وان كان عدوه قد ادعى عليه انه رجع واظهر الشك في امره بقوله : ما ادري ما يفعل بي

ولا بكم ، ^(١) وبقوله : « فان كنت في شك مما اتزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » ^(٢) . وهذا قد ادعاه عليه رؤساء الرافضة الذين قدمنا ذكرهم .

ولا تكون الردة بالقياس فيقال : كما ارتد قوم موسى ينبغي ان يرتد قوم محمد ﷺ ؛ هذا لا يظنه إلا الغاية في الجهل والبله والنقص ، وهؤلاء قالوا : كما قتل يزيد بن معاوية الحسين فينبغي ان يكون ابو بكر قد ضرب فاطمة وقتل الحسن ، فالعلم بأنه عليه السلام ما رجع عن دينه وأن ابا بكر وعمر والمهاجرين والانصار ما رجعوا عن دينه بعده قبل العلم بنبوته وصدقه وأنه دعا الى حق ، والعلم بإقامة ابي بكر وعمر والمهاجرين والانصار على دينه عليه السلام كالعلم بإقامته هو على ذلك ، والعلم بذلك قبل العلم بنبوته .

وما منزلة من ادعى عليهم ذلك إلا كمن قال لنا : كنت بالقسطنطينية من بلاد الروم فوجدتهم يشتمون بولص ويبرؤون منه ويبسقون ^(٣) على الصليب ، فقلنا له : كذبت ، فقال : ولم كذبتوني وما كنتم معي ، اوليس بولص كافر يستحق الشتم ويجب ان يبسقى على الصليب ولا يعظم ؟ قلنا : وإن لم نكن معك فعقولنا معنا ، وعلمنا ان الغلبة هناك لمن يعظم الصليب وبولص ^(٤) .

(١) الاحقاف ٩

(٢) يونس ٩٤

(٣) يبسقون : اي يبصقون

(٤) لم نحاول ان نعلق على ما يورده القاضي حول ما يوجهه الرافضة الى الخلفاء الراشدين من اتهامات لأن القاضي يتبنى وجهة نظر اهل السنة تماماً ، وفي شرحه ما يكفي عن التعليق .

او بمنزلة من قال لنا : كنت بالأندلس فوجدتهم يلعنون معاوية ويبرؤون منه ومن مروان بن الحكم وولده كما يفعل ذلك بالكوفة والمدينة ، لقلنا : كذبت ، فقال : انتم لم تكونوا معي فصدقوني او شكوا في خبري ، قلنا : / وإن لم نكن معك فعقولنا معنا ، وقد علمنا ان الغلبة هناك لمن يقول بإمامة معاوية ومروان وولده .

فهذه سبيل من ادعى على ابي بكر وعمر والمهاجرين والانصار ما يدعيه الرافضة .

ومن عجيب امورهم قولهم : هذا كعبادة قوم موسى العجل ، فيجعلون الردة والكفر والايان بالقياس ، والذي اخبرنا ان قوم موسى عبدوا العجل هو الذي عرفنا بعقولنا ان اصحاب محمد ﷺ أقاموا على دينه ، والذي عرفنا بالخبر ان يزيد بن معاوية قتل الحسين وأشخص ذريته الى الشام هو الذي عرفنا بعقولنا أن ابا بكر ما ضرب فاطمة ولا قتل الحسن ؛ وهذا في القياس كمن قال : اذا كان يزيد بن معاوية قد غزى المدينة ومكة واستباحها ان يكون ابو بكر قد فعل مثل ذلك ، وإذا كان معاوية قد قتل عمار بن ياسر ان يكون ابو بكر ^(١) قد قتل العباس بن عبد المطلب ، وإذا كان معاوية قد قتل ولدين لعبدالله بن العباس ان يكون ابو بكر قد قتل اربعة اولاد من ولد العباس ، وأن يكون عمر وعثمان قد فعلا مثل ذلك ؛ او كمن قال اذا كان بنو اسرائيل قتلوا الانبياء ان يكون اصحاب محمد ﷺ قد فعلا ذلك .

(١) في الاصل : أبا بكر

وقيل ايضاً للرافضة : اذا كان ابو بكر قد ضرب فاطمة وقتل الحسن فقد كان ينبغي ان يحصل العلم بذلك عند كل من سمع الأخبار ، وأن يكون العلم بذلك مثل العلم بقتل يزيد الحسين ، ومثل قتل معاوية حجر بن عدي ، وعبيد الله بن زياد مسلم بن عقيل . بل كان ينبغي ان يكون العلم بما ادعيت اقوى من العلم بهؤلاء القتلى ، لأن هذه الحادثة التي ادعيتوها على ابي بكر كانت بالمدينة ، وقد شهدها العباس وولده ، وعلي بن ابي طالب وولده ، وعقيل وولده ، وجميع بن هاشم ومواليهم ونسائهم ، وجميع المهاجرين والانصار وأولادهم ونسائهم ؛ وقد كان بالمدينة حين توفي رسول الله ﷺ اكثر من مائة ألف إنسان، فكان يكون العلم بهذا أقوى مما (١) كان بكربلاء، ولكن دعاوى الرافضة في ضرب فاطمة عليها السلام وقتل ولدها وأمر ابي بكر خالد بن الوليد بقتل علي بن ابي طالب، كدعواهم على رسول الله ﷺ النصوص التي يدعونها ، وكل من تأمل امرهم تبين له بطلان ذلك ووضح له وضوح الشمس .

وما يزيدك بياناً بشأن هؤلاء الخلفاء والمهاجرين والانصار ولزومهم لوصايا رسول الله ﷺ ، ان عثمان بن عفان لما اتم الصلاة بنى انكر عليه للوقت علي ابن ابي طالب بحضرة الناس كلهم فقال له : ألم تصل مع رسول الله ﷺ ها هنا ركعتين ؟ قال : بلى ، قال : افلم تصل مع ابي بكر ها هنا ركعتين ؟ قال : بلى ، قال : افلم تصل مع عمر ها هنا ركعتين ، قال : بلى ، قال : افلم تصل بنا ها هنا شطر خلافتك ركعتين ؟ قال : بلى ، قال : فلم اتعمت ، وما عذرک في ذلك ؟ قال : نكحت امرأة بمكة وسمعت رسول الله ﷺ يقول : من تأهل بأرض فهو من اهلها ، ولي مال بالطائف نويت مطالعته ؛

(١) في الاصل : ما

وبعد ، فقد بلغني عن طغام من اهل اليمن انهم قالوا : صلاة المقيم ركعتان ، هذا امير المؤمنين عثمان يصلي ركعتين .

ولما نهى عثمان عن القرآن (١) وأمر الناس بإفراد الحج بلغ ذلك علياً ، فدخل عليه فقال له : بلغني انك نهيت من القرآن ، ثم قال علي : لبيك اللهم لبيك بحجة وعمره ، فقال له عثمان : لم فعلت هذا وقد نهينا عنه ؟ قال : ما كنت لأدع شيئاً أجازره رسول الله ﷺ لقول احد .

ولما ادعى على الوليد بن عقبة عامل عثمان على الكوفة وأخوه لأمه شرب الخمر ، قال له علي : أشخصه فاسمع الشهادة ، فأشخصه وسمع الشهادة فجلبه علي بيده ، والوليد من اشراف قريش ، وقد كان رسول الله ﷺ يستعمله ، واستعمله عمر وعثمان ، وهو كثير الفتوح في الاسلام ، وهو اخو امير المؤمنين فما تهيئه .

ولما تكلم من تكلم في عثمان لأنه ولي أقاربه وآثرهم ، وقالوا لعلي إن عمر لم يفعل مثل هذا بأقاربه ، فقصده علي وقال له : ورائي قوم وقد كلموني فيك وما ادري ما اقول لك ؟ ما نعرف شيئاً تجمله ، ولا ادلك على امر لا تعرفه ، ما سبقناك الى أمر فنبلغك ، ولا خلونا بأمر فنخبرك به ، ولا خصصنا بأمر دونك ، وإنك لتعلم ما نعلم . والله ما ابن ابي قحافة بأولى من عمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، انت أقرب الى رسول الله ﷺ رحماً وقد نلت من صهره ما لم ينالاه ، فالحق الله في امرك فانك والله ما تعلم من جهل ، ولا تبصر من عى ، وإن الحق لواضح بين ، وإن اعلام الدين لقائمة . فقال له عثمان : لقد علمت ليقولن الذي قلت ،

(١) القرآن : اي ان يقرن الحج بالعمرة

ولو كنت مكاني ما عتقتك ولا اسلمتك ، ولا جئت منكراً ان وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بن كان عمر يولي . أنشدك الله يا علي ، هل علمت ان المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم ، قال : فهل علمت ان عمر كان يوليه ؟ قال : نعم ، قال : فلم تلومني انت ان وليت ابن عامر مع رحمة وقربته ؟ فقال له علي : سأخبرك ، إن عمر كان من ولاته فأنا بطأ على سماخه ، إن بلغه حرف جلبه وبلغ منه الغاية ، وأنت لا تفعل ذلك ، ضعفت ورفقت على اقاربك . فقال له عثمان : وهم اقاربك ايضاً ، فقال له علي : أجل ، إن قرابتهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم ، قال له عثمان : هل تعلم ان عمر استخلف معاوية ؟ قال : نعم ، قال : فقد استخلفته كما استخلفه ، قال له علي : أنشدك الله ، هل تعلم ان معاوية كان أخوف من عمر من أرفأ غلام عمر من عمر ؟ قال عثمان : نعم ، قال له علي : فإذن معاوية لا يخافك ويقتطع الأمور دونك ، ويقول للناس : هذا امير المؤمنين عثمان .

وكان علي يعنفه في أقاربه ، ويقول له في وجوههم : لا يغلب عليك مروان والوليد وسعيد ^(١) ، لا تطعمهم ؛ فيقول أهله له : هذا قوله لك في وجهك ووجوهنا فكيف بما يقوله للناس من ورائك وأنت امامه وابن عمه ؟ فيقول لهم عثمان : هو انصح لي منكم .

وكان علي رضي الله عنه يوافق على صفار الأمور وكبارها ويدبر أمراً ، فإذا لم يقبل منه في أمر من الأمور عنفه ولامه وقعد عنه ، فيرسل اليه عثمان ويحييه به ، فيقول له : قعدت عني وكنت لأبي بكر وعمر انصح ، وأنا

(١) يقصد مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وسعيد بن العاص .

أولى بذلك منك ، وأنا إمامك وابن عمك ، فيقول له علي : كنا يقبلان ولا تقبل ، أكون معك على أمر فيجئنيك مرران وسعيد والوليد فيزيلانك عنه . ثم يقول علي رضي الله عنه للناس : من عذيري من هذا ؟ أكون معه على أمر فيدع رأبي ويأخذ برأي مروان والوليد ، فإن قعدت عنه يشكوني ويقول : قطعت رحمي ولم تقض حق بيعتي .

فانظر كيف يصنع به الأمور الصغار التي غيرها أولى ، يأخذها بما هو أفضل ، ويشير عليه ان يسير بالمسلمين سيرة ابي بكر وعمر ، وأن يأخذ بالفضل ولا يترخص ولا يزول من سيرتها ، فأبي عاقل تدبر وفكر يقع له ان هؤلاء كانوا يظلمون بنت رسول الله ﷺ ويبدلون القرآن ويعطلون النصوص ويغيرون الشريعة فيسكت عنهم .

وبمثل هذا كانت تشير عليه عائشة رضي الله عنها ، وتحذره مخالفة سيرة ابي بكر وعمر ، وبهذا كتبت إليه ام سلمة : أي بني ، ما لي ارى رعبتك / عنك مزورين ، وعن جنابك نافرين ، لا تعف سبيلاً كان رسول الله ﷺ يحبها ^(١) ، ولا تقدح بزند كان اكباها ^(٢) ، وتوخ حيث توخى صاحبك فلإنها ثكنا الأمر ثكماً ولم يظلمها ^(٣) والسلام . فأجابها بالجواب المعروف ^(٤) .

وعتب قوم عليه ان حمى الحمى ، وما رآه في خس أفريقية كما فتحها ، وفيمن سيره من اللعابين بالحمى والرامين بالجلاهق ^(٥) فيما كان في الكتاب

(١) في القاموس : حب : سلك ، والحب : الطريق الواضح .

(٢) في القاموس : كبا الزند لم يور .

(٣) في القاموس : شك آثارهم : اقتصها ، وشك الطريق : لزمه .

(٤) أم سلمة هي هند بنت أبي أمية ، إحدى زوجات الرسول (ص) ، وكانت قبله عند ابي

سلمة عبد الله بن الاسد الخزومي توفيت سنة تسع وخسين هجرية .

(٥) الجلاهق : البندق الذي يرمى به

المسبوب إليه في شأن محمد بن أبي بكر الصديق والنفر المصريين ؛ وهي كانت الطامة في السخط عليه والنكير له ، وما اقر بأنه كتب الكتاب ولا قامت عليه بيعة ، فقالوا : كاتبك كتبه فما اقر كاتبه ، وقال لهم : الخط قد يشبه الخط . فلم يزل الانكار عليه في هذه الأمور الى ان اغتيل بالسحر وقتل .

وليس في هذه تعطيل نص ولا تبديل قرآن ولا تغيير شريعة ، وانما هي امور من طريق الرأي والاجتهاد كان له أن يفعلها فجري عليه . هذا كله في شيء هذه سبيله ، وهو الخليفة والسلطان والملك ، وإليه السوط والعصا ويبيده الضر والنفع ، مع شرف رهطه وقرب قرابته وظهور ثروته وكثرة عدوه وأعدائه ومن تعصب له ، فكيف يتوهم عاقل تدبر ، ان النصوص كانت تعطل والقرآن يغير والشريعة تبدل وهم سكوت .

وهذا علي بن أبي طالب مع فضله وزهده وعلمه وسوابقه وآثاره الجميلة في الاسلام وقريب قرابته ، قد انكروا عليه ان ولي اقاربه ، ف قيل له : علام قتل عثمان بالأمس ؟ اي لأنه ولي اقاربه ، فقال لهم : ما علمت إلا خيراً ، فإن انكرتم فأنكروا . ولما بعث الحكم ارتدوا عنه ^(١) ، وقالوا : ضعفت وحكت الرجال في دين الله وما كان ذلك لك ، / وشككت في نفسك ؛ فتنب الى الله وإلا قاتلناك وجاهدناك ، او تقتلنا او نقتلك . فقال لهم : لو كانت الحكومة معصية لما جئت إليها وكان لي ان احكم ، وقد امر الله بالحكومة في شقاق يكون بين المرأة وزوجها وفي ارنب تصاب في الحرم

(١) يقصد قصة التحكيم المشهورة ، وذلك حين الح اهل العراق على علي بقبول التحكيم الذي عرضه معاوية ، فارسل ابا موسى الاشعري بالراح منهم وكان يريد ارسال عبدالله بن العباس . وبعث معاوية بدهاية العرب عمرو بن العاص ، وكان ما كان من الحادثة المشهورة وما تلاها من خروج الخوارج على علي وتكفيره لقبول التحكيم .

تساوي ربع درهم ؛ فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » ، فكيف بإمامة قد اشكلت على المسلمين . فقاتلوه وقتلهم ، وقتلهم وقتلوه ، في امر ليس فيه تعطيل نص ولا تغيير قرآن ، وإنما هو شيء من طريق الاجتهاد ، وكان له رضي الله عنه ان يفعله . وقد بلغوا في الانكار عليه هذا المبلغ ، فكيف بتغيير القرآن والنصوص وظلم ابنة رسول الله ﷺ ، لتعلم فحش غلط هؤلاء القوم ، وان ابا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم لو راموا بأجمعهم تعطيل نص لرسول الله ، او تغيير آية واحدة من كتاب الله ، او ظلم امرأة ارملة ذمية لقتلوا بأجمعهم . وقد عرف اهل العلم والتحصيل ، ان اهل البصائر ، ومن يعتقد دين محمد ﷺ ونبوته وصدقته واجلاله من اجل وتعظيم من عظم وإهانة من أهان في زمن ابي بكر وعمر اكثر وأوفر ، والغلبة لهم ، والامر بأيديهم ، وهم كانوا الظاهرين القاهرين ، وهم ولّوا ابا بكر وعظموه واجلوه وقدموه تقرباً الى الله ، لأن رسول الله قد كان يقدمه ويعظمه ويحله ويكرمه ؛ ولهذا كان يقول الرؤساء في ذلك الزمان من اقارب رسول الله ﷺ ، وقد رأوا تعظيم المهاجرين والأنصار ابا بكر ، وطاعتهم له ، وتنفيذهم وصاياه ووصايا خليفته بعده : كان والله حلواً في افواههم ، جليلاً في اعينهم ، مهيباً في صدورهم ، على سكون ريمه ولين جانبه . / فلا تظن ما يقول طوائف الامامية والرافضة فيهم إلا الغاية في الغفلة وترك النظر ؛ وتعليل الرجال هو الذي يوقع الناس في الضلال .

وَسَائِبُ آخِر

إن بين ابي بكر وعمر وتلك الجماعة وبين بني هاشم مع اخوة الاسلام فضل مودة وصداقة ، يمدح بعضهم بعضاً ويذكر بعضهم بعضاً ، ويتصاهرون ،

ويرى بعضهم بعضاً أهلاً للإمامة والولاية ، وينصح بعضهم بعضاً . ألا ترى أنهم بايعوا أبا بكر ، وصلّوا خلفه ، وغزوا معه ؛ ونفذوا وصيته بعد موته في عمر ، فاجتمعوا كلهم في طاعته ؛ ونفذوا وصايا عمر بعد موته وصلّوا خلف صهيب ، ورجعوا إلى عبدالرحمن كما وصّى ، فغزا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع أبي بكر رضي الله عنهما الربذة وإلى ذي القصة^(١) . وإسأله أبو بكر بالخروج عن المدينة والمسير إلى أصل الردة ، أخذ أمير المؤمنين علي بعنان فرسه وقال له : أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : سمّ سيفك ، وارجع مكانك ، ومتعنا بنفسك ، وأنا أقول لك : أنقذ جيشك وارجع إلى المدينة ، فإنك إن هلكت لم يكن للإسلام بعدك نظام ، فقبل رأيه ورجع .

وقد غزا غير واحد من بني هاشم في زمن عمر ، وفي غزواته هلك الفضل ابن العباس بالشام في طاعون عمواس في خلافة عمر ، وقد خرج العباس معه إلى الشام وغيره من بني هاشم ، وخلف علياً أميراً على المدينة في بعض خرجاته إلى الشام ، فانه خرج إليها أربع مرات ، فدخلها في بعضها ، وفي بعضها لم يدخل ، وزوجه أمير المؤمنين عليّ ابنته أم كلثوم وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، / وكان له منها زيد ورقية .

وقبل ذلك ما زوج رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أسماء بنت عميس الخثعمية ، وكانت تحل من رسول الله ﷺ محل ابن الأخوات وتختص به وببناته وتكون في بيوته . وكانت من المهاجرات بدينها إلى أرض الحبشة وإلى المدينة ، وكانت قبل ذلك امرأة جعفر بن أبي طالب ، وكان له منها

(١) انظر الطبري ٣ : ٢٤١ و ٢٤٧

غير واحد من الأولاد ، فجعل رسول الله ﷺ أبا بكر كافل بني هاشم ومربي ابنائهم ، فربّى أولاد جعفر بن أبي طالب وكفلهم وأديهم ، منهم : عبدالله ابن جعفر بن أبي طالب ، وأخوه محمد . وكان عبدالله بن جعفر يذكر من ربّ أبي بكر بهم ورأفته وتأديبه لهم ما يطول شرحه . وخلف أمير المؤمنين علي وعمر على المدينة في خروجه إلى جسر مهران^(١) ، وأشار عليه حين تكاثبت الأعاجم بإخراج المسلمين من ديارهم^(٢) ؛ وكان يزدرج بن شهربار ملك فارس الذي أخرجه عمر من ملكه حياً مقيماً عند خاقان ملك الترك وقد صاهره يستعينه على المسلمين ، فراسل أهل مملكته بإخراج المسلمين من ديارهم ، وأنه يوافيهم في الجيوش ويسير إلى المدينة فيقتل عمر ويستأصل الاسلام ، فكتب المسلمون الذين في ممالك الفرس إلى المسلمين بالكوفة بهذا ، وكتب أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين عمر ، فخطب الناس وقال : يا أيها الناس ، إن الشيطان قد جمع جموعه ، وإن الأعاجم من أهل جرجان وطبرستان والري وأصفهان وهمدان ونهاوند ، قد تكاثبوا وتعاهدوا في إخراج المسلمين من ديارهم وقصدهم إلى بلادكم ، وهذا يوم له ما بعده ، فأشيروا عليّ .

فقام طلحة بن عبدالله ، فقال ، / فجزاه خيراً ثم أمره بالجلوس ، ثم قال : أشيروا عليّ ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب

(١) سمي الجسر بذلك لأن قائد الفرس كان مهران بن مهربنداد الهمداني وكان قائد المسلمين المثنى بن الحارث ، وسميت المعركة معركة جسر مهران . وكان عمر رضي الله عنه قد هم بالخروج مع المسلمين في تلك الموقعة .

(٢) كان ذلك في سنة ١٩ - ٢٠ للهجرة . فقد تكاثبت الفرس وأهل الري وقوس وأصبهان وهمدان والمالامي وتجمعوا إلى يزدرج آخر ملوك فارس . فبعث عمر بعد مشورة الصحابة بجيش وولي عليه النعمان بن مقرن المزني . فتوح البلدان ، ٤٢٤ .

الى اهل اليمن فيسيروا اليك من بينهم ، وإلى اهل الشام فيسيروا اليك من شامهم ، وتسري بأهل هذين ^(١) الحرمين وأهل المصريين : الكوفة والبصرة ، وتلقي العدو بنفسك ، فاذا رآك في جوعك وعساكره هاله أمرك ، وقل هو وجيوشه في أعين المسلمين ، ففعلت وفعلت ، فجزاه خيراً وأمره بالجلوس ، ثم قال : أشيروا عليّ ، فقام علي بن أبي طالب ، فقال له : يا امير المؤمنين ، أما ما كرهته من مسيرهم فان الله عز وجل لذلك أكره ، وإنك يا امير المؤمنين إن سیرت اهل اليمن من بينهم سارت الحبشة الى ديارهم ، وإن سیرت اهل الشام من شامهم سارت الروم الى ديارهم ، وإن سرت بأهل الحرمين انتقضت العرب عليك ، فكان ما وراءك اهم لك مما بين يديك ، وإن رآك العدو ازداد كلبه عليك وقال لأصحابه : هذا واحد العرب فان قطعتموه قطعتم العرب كلها . ولكن أرى ان تكتب الى اهل اليمن ، فيكون ثلثهم في اهل عهدهم وثلثهم في ثغورهم ويسير منهم الثلث اليك ، وتكتب الى أهل الشام بمثل ذلك ، وتقيم بمكانك وتنفذ اميراً يلقاهم ، فان هلك أنفذت اميراً مكانه ، فقد علمت اننا كنا في زمن رسول الله ﷺ نقاضل بالبصرة لا بالكثرة ، فجزاه خيراً وأمره بالجلوس ، ثم قال : هذا والله هو الرأي ؛ إن انا أشخصت أهل اليمن من بينهم سارت الحبشة الى ديارهم ، وإن سیرت اهل الشام من شامهم سارت الروم اليهم ، هذا والله هو الرأي ان ساعدتوني عليه ، فقالوا : نساعدك ، فعمل على ذلك ، وأنفذ الجيش ، وأقام على ما اشار عليه عليّ ؛ وكما له معه مثل هذا ، وشرحه / يطول .

وكما قد أشار عليه العباس ونصح له مما هو مذكور معروف عند العلماء ،

(١) في الأصل : هذه

وكما قد اشاراً جميعاً على عثمان وغيرهما من بني هاشم ، وكما قد غزا الحسن ، والحسين ، وعبدالله بن جعفر ، وعبدالله بن العباس ، وغيرهم من بني هاشم مع امراء عثمان الى خراسان وغيرها ، وكما كان يقول عمر على المنبر : أقضانا عليّ ، ويقول : لا تكون نازلة لا يشهدها علي بن أبي طالب ؛ وولاه القضاء بالمدينة ، وتولى ، فكان يقضي ويفتي ، واستسقى بالعباس ، وألحق الحسن والحسين في العطاء بالبدرين ، ولما دوت الدراوين ، كتبوا اسمه في اول الديوان ، فقال لهم : لم فعلتم هذا ؟ فقالوا له : انت امير المؤمنين ، فقال : ابدؤوا بطرفي رسول الله ﷺ : هاشم وزهرة ، وضعوا عمر وآل عمر حيث وضعهم الله ، وأدخل علياً في الشورى : وكان لعليّ في اولاده من يسمى أبا بكر وعمر وعثمان كما يسمي الرجل اولاده بأسماء أحبائه وأئمنه ، وقد كان للحسين عليه السلام ولد يقال له ابو بكر قتل معه بكر بلاه ، وكان لملي بن الحسين ولد اسمه عمر ، وقد كان في أولادهم مثل هذا كثير ، وشرح هذا يطول ، وكذلك شرح ما كان بينهم من المودة والصداقة وحراسة بعضهم لبعض ، ومدح بعضهم لبعض بطول ، وللعلماء فيه كتب مفردة مغلدة ، انت تجدها اذا طلبتها . ولكن طال العهد وغلب الجهل ، فظن من لا علم له انهم كانوا متباعدين متباغضين ، وأن الذي كان بينهم من العداوة والبغضاء أشد مما كان بينهم وبين معاوية وولده ومروان بن الحكم وولده كما ظننت المنانية ومن ذهب مذهبا ، ان عيسى بن مريم ^(١) عليه السلام كان عدواً لموسى وهرون وداود وسليمان / ، وأنه كان يحرم أكل اللحمان وذبح الحيوان ، وكما يظن من لا يعلم ان هذه الطوائف من النصارى على دين المسيح وفي طاعته . وللبغضاء رحمة الله حال مبينة ، وللمحبة آثار وأعلام . ألا ترى ان

(١) في الأصل بعد كلمة مريم لفظة كان ، وهي زائدة .

معاوية وآل ابي سفيان وآل مروان ، لما ابغضوهم وعادوهم ، ما ذكروهم في الإمامة ولا رجعوا اليهم في القضاء والفتوى ، بل لعنواهم وحاربوهم وقتلوهم ، ووصوا اولادهم بذلك ، وكذا فعل بنو هاشم من ولد العباس وولد ابي طالب ببني امية .

فإن قالت الرافضة : إنما صنع ابو بكر وعمر هذا ببني هاشم حيلة وخديعة وليخرجوهم من الرئاسة ، قيل لهم : من الحيلة والخديعة ان لا يدخلوهم في الشورى ، ولا يذهبوا عليهم في الرئاسة ولا يستسقوا بهم ، ولا يستشفعوا الى الله بحاجتهم ومكانهم ، ولا يشهدوا لهم بالجنة ، ولا يسيروا إليهم بالعلم والمعرفة ؛ ألا ترى ان معاوية لما عاداهم ما جعلهم اهلاً للخلافة ، ولا ذكرهم للرئاسة ، ولا استسقى بهم ، ولا استفتاهم ، ولا استقضاهم ، ولا شهد لهم بالجنة ، بل كانت سيرته فيهم ما قد علم الناس ؛ ولا فرق بين من ادعى هذا ، او ادعى ان ما كان من مدح رسول الله ﷺ لأهله وأصحابه إنما كان على طريق المداراة والخديعة ، او ادعى ان ما كان من معاوية [مع] (١) آل بني هاشم إنما كان على طريق الرأفة والرحمة .

وبعد فما لأبي بكر وعمر على قولكم الى مداراة الناس وخديعتهم في بني هاشم ، وعندكم ان الناس قد علموا ان رسول الله ﷺ قد استخلف علياً ونص عليه ، وعرف الكافة انه الحجة على العالم . ثم ان ابا بكر دعاهم الى خلاف ذلك فأجابوه بأسرهم على قول بعضكم وهم الكاملية ، وعلى قول الهشامية اجابوه إلا نفرأ يسيراً كانوا مغلوبين . ودعاهم هو وعمر بعده وعثمان بعدهما الى تغيير القرآن والشريعة ، من الطهارة ، والأذان ، والصلاة

(١) اضافة على الاصل يقتضيها السياق

ومواقبتها ، والصيام ومواقبته ، والموارث ، والمناكح ، والطلاق ، والعنق ، الى غير ذلك ، فأجابوهم اليه .

وما سمع الناس بأعجب من امر هؤلاء القوم في دعواهم على ابي بكر وعمر ، انهم إنما زكوا بني هاشم مثل العباس وعلي وغيرهما ، وأدخلوهم في الشورى ، وقدموهم في القضاء والفتوى والرئاسة ، للنقص منهم ، والحيلة عليهم ؛ وهو كمن قال : ان ابا بكر وعمر وعثمان اخذوا الروم والعجم وملوك العرب بالدخول في دين النبي ﷺ ، وإدخال امهم في دينه ، والشهادة برسالته ، وإقامة شرائعه ، وموالاته اوليائه ، ومجاهدة اعدائه ، إنما فعلوا ذلك عداوة له صلى الله عليه وآله ، وللحيلة عليه ، واخراجهم من الرئاسة والنبوة ، وإماتة ذكره ؛ وكل امرهم عجب وخروج عما يعقل ويفهم .

فإن قالوا : إنما أدخله عمر في الشورى وقال يصلح للخلافة والرئاسة ليمحو نص النبي عليه واستخلافه له ، قلنا : فإن ذلك قد احى على قولكم وأجابته الناس الى محوه وإزالته ، فما حاجته الى ادخاله في الشورى لولا محبته له والتلبية على فضله ، ولو اراد ان يخرجهم من الرئاسة لما أدخله في الشورى ، ولا قال انه يصلح للخلافة والرئاسة ؛ وإنما الشورى وضعها عمر ليطلب الناس من يصلح في دين رسول الله ﷺ للقيام بأمر امته عليه السلام ، وليرجعوا الى وصاياه وعهوده فيمن يصلح لذلك في دينه وشريعته ؛ فلو كان هناك منصوب عليه ، او من فيه أدنى اشارة ، لما أدخله عمر في الشورى والرئاسة إن كان / يريد ان يبيت ذلك على ما يدعونه عليه ، وهذا لا يظنه عاقل ، وهو كمن قال إنما استسقى بالعباس واستشفع الى الله به ليميت ذكره وليخرجه من الفضل والرئاسة ومن استخلف النبي له ونصّه عليه ، فإن الراوندية

من شيعة بني العباس تدعي ان النبي ﷺ نص على العباس واستخلفه وجعله وارث مقامه ، وأن الخلافة تكون في ولده الى يوم القيامة ، كما تدعي ذلك الراضية في امير المؤمنين .

وبعد فإن كان الذي صنعه عمر في الشورى حيلة على امير المؤمنين ليخرجه من الرئاسة ، فلم دخل هو وقبله ، وصلى خلف صهيب ، ورجع الى عبد الرحمن في الاختيار ، فكيف شعرت انتم بهذا وخفي عليه .

فإن قالوا : فعل هذا خوفاً وتقية ، فقد بينا ان سلطان هؤلاء الخلفاء الأربعة ما كان سلطاناً يخافه بحق ولو كان عبداً او ذمياً ، وكشفنا ذلك من غير وجه . واعلم ان الكلام اذا انتهى الى مثل هذا فليس إلا السكوت ، فإن شرح المشروح والمجاهذة في امر المكشوف عناء وادخال له فيما يغمض ويخفى ، فارجع رحمك الله الى ما كان من ابي بكر وعمر وقول بعضهم في بعض وصنع بعضهم ببعض ، تجدهم أولياء واخواناً واصدقاء ، وقد تقدم لك في صدر هذا الكتاب ان ابا بكر وعمر وتلك الجماعة من المهاجرين والانصار كانوا احباب رسول الله ﷺ ، وكان يحبهم ويودهم ، ويوجب على الناس محبتهم ، ويفرض عليهم مودتهم ، وكانوا يحبونه ، وهو أحب اليهم من أبنائهم وأنفسهم ، ويحبون من أحب ، ويبغضون من ابغض ، وإن العلم بذلك قبل العلم بنبوته ، فارجع اليه .

وَبَابٌ آخِر

وهو ان افعال رسول الله ﷺ وأقواله ووصاياه وعهوده ، تشهد بأنه ما عهد في رجل بعينه ، وان الامر في الخلافة بعده الى خواصه واصحابه ليختاروا من يرون ، وان الخلفاء بعده يجوز عليهم الخطأ والزلل ؛ ألا تسمع

قوله ﷺ (١) : « أنفذوا جيش أسامة » وقوله : « لا تتركوا بعدي في جزيرة العرب دينين ، ولا تجمعوا فيها دينين » (٢) وقوله : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا لكم فخذوا سيوفكم على عواقبكم فأبيدوا خضراءهم ، وإلا فكونوا أشقياء حرّاثين تمشون خلف أذناب البقر ، وتأكولن كدّ أيديكم . أطيعوهم ما أطاعوا الله ورسوله ، فإذا عصوا الله ورسوله فلا طاعة لهم عليكم ؛ لا طاعة لخلق في معصية الخالق » (٣) .

وقوله : « هذا الأمر في قريش ما اذا استرحموا رحموا ، واذا حكموا عدلوا ، واذا قسموا أقسطوا ، واذا عاهدوا وفوا ؛ فإن لم يفعلوا ذلك ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل منهم صرف ولا عدل » . ومثل هذا من اقواله كثير ، ويعلم هذا من دينه ، كما يعلم من دينه أن الولد للفراس وللعاقر الحجر ، وان اليمين على المنكر والبينة على المدعي ، والنفقة على الزوج دون المرأة ، وما أشبه ذلك من شريعته . وهذه الوصايا منه انما هي لأصحابه وخاصته ، فمن اشكل عليه بعد هذا انه ما نص على رجل بعينه ، وان الخلفاء بعده يجوز أن يقع منهم الخطأ والزلل ، وأنه ليس فيهم من يؤمن منه ذلك ، فقد اشكل عليه الواضح من شريعة رسول الله ﷺ / وجلست سيرته ، والمكشوف عن شريعته ووصاياه .

(١) في الحاشية كتب : وصايا رسول الله (ص)

(٢) انظر طبقات ابن سعد . الجزء الثاني القسم الثاني ص ٢٤ بلفظ آخر « لا يجمع في جزيرة العرب دينان » .

(٣) انظر شرح الجامع الصغير للمناوي ١ : ١٤٩ ، وخضراءهم اي سوادهم ودمهم . وهناك احاديث كثيرة في هذا المعنى ، كلها تضع شرطاً في التبعية لقريش هي الاستقامة على الحق والتقوى والرحمة .

فإن قيل : كيف اشكل هذا على هؤلاء القوم ؟ قيل له : ليس يعرف هذا بكمال العقل وان كان واضحاً ، وانما يعرف بكثرة السماع وحسن الاصفاء والتأمل ، وجودة التحصيل وصحة النقل .

ألا ترى ان في هؤلاء من يقول : ان في القرآن زيادة ، وفيهم من يقول : فيه نقصان ، وفيهم من يقول : للطهارة والصلاة والصيام وسائر الشريعة باطن يخالف ما عليه الفقهاء والعامة ، والى ما يذهب اهل التناسخ وقوم من الصوفية . وكل من جالس العلماء وكثر سماعه وجاد تحصيله ، يعلم علماً يقيناً ان هذا خلاف دين النبي ﷺ ؛ وقد عرف اصحابه من سيرته جواز الاختيار في الائمة والامراء ، وعملوا بذلك في حياته ﷺ . ألا ترى انه لما انفذ عسكرياً لغزو الروم قال لهم : اميركم زيد بن حارثة ، فإن هلك فجعفر بن ابي طالب ، فإن هلك فعبد الله بن رواحة ؛ فهلك هؤلاء الامراء الثلاثة فاستعمل الجيش بعدهم خالد بن الوليد المخزومي اميراً عليهم ، فدبرهم وساسهم ولقى العدو بهم ، فما انكر النبي ﷺ ذلك بل صوبهم ، وسمي خالد بن الوليد سيف الله . وقد كان النبي ﷺ انفذ عملاً لابي موسى الاشعري اميراً على جماعة فهلك ، فاستعملوا بعده ابا موسى ، فما انكر رسول الله ﷺ ذلك بل صوبهم ؛ بل انهم انما فعلوا هذا لأنهم قد عرفوه من سيرته . وقد ولي رسول الله ﷺ ابو العلاء بن الحضرمي ^(١) البحرين ، وانفذه في

(١) أرسل الرسول (ص) العلاء بن الحضرمي الى المنذر الساري بالبحر بالكتاب التالي : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المنذر ساوي . سلام عليك فاني احمد الله إليك الذي لا إله الا هو ، واشهد ان لا اله الا وان محمداً عبده ورسوله . أما بعد ، فإني اذكرك الله عز وجل فان من ينصح فانما ينصح لنفسه وان من يطع رسلي ويتبع امرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وان رسلي قد اثنوا عليك خيراً ، واني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه ، وعفوت عن اهل الذنوب فاقبل منهم ، وانك مها تصلح يفر لك عن عملك ، ومن اقام على يهوديته او مجوسيته فعليه الجزية . السيرة الحلبية ٣ : ٢٥٢

جماعة ، وعهد إليه عهداً معروفاً ، وقال ﷺ / في هذا العهد : وانا اشهد الله على رجل وليته امراً من امور المسلمين فلم يعدل فيه قليلاً كان ام كثيراً فانه لا طاعة له ، وهو خلیع محاولتيه ، واني قد برأت المسلمين الذين معه من عهدهم وايمانهم منه ومن ولايته ، فليستخبروا عند ذلك الله ثم ليستعملوا عليهم افضلهم في انفسهم ؛ واشباه هذا في وصاياء وعهوده وسيره كثيرة ، وأنت تجده متى طلبته ، وفيما معك اتم كفاية .

باب آخر

وهو ان الصحابة قد خاضوا في باب الامارة في مرض رسول الله ﷺ وقبل ذلك في ازمان مختلفة ، وجرى لهم من الخوض في ذلك اكثر مما جرى لهم من كل شيء في كبار الامور وصغارها ، فأقواهم وأفعالهم افعال من لا عهد عنده في رجل بعينه ؛ وان الائمة بعد رسول الله ﷺ يجوز ان تقع منهم المعاصي والخطايا .

فمن ذلك ، ان الصحابة سألوا علياً في مرض رسول الله ﷺ فقالوا : كيف اصبح رسول الله يا أبا الحسن؟ فقال : اصبح رسول الله بحمد الله بارئاً ، فقال له العباس : أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله ﷺ كما أعرفه في وجوه بني عبد مناف ، وإني لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجعه هذا ، فانطلق بنا الى رسول الله ﷺ نسأله فإن كان هذا الامر فينا علمنا ، وإن كان في غيرنا امرناه فوصى الناس بنا . فقال له علي : ما كنت لأسأله رسول الله ﷺ ، فإنما إن سألناه فقال ليست فيكم منعناها الناس وقالوا : رسول الله ﷺ قال ليست فيكم ، والله لا سألتها ابداً .

فانظر كم في هذا من بيان على صحة ما قلنا ؛ فهذا العباس ، وهذا علي ،

وهؤلاء الصحابة ، فلو كان النبي ﷺ / قد نص لما جاز ان يذهب علمه عنهم ، أو لو قال قولاً يحتمل تأويله هذا المعنى لما ذهب عنهم ، فإن البحث والنظر والخوض يخرج خفيات الأمور ويذكر بغوامضها وبما قد تقدم عهده وزمانه ، فكيف بالشيء الواضح القريب العهد ، ورسول الله ﷺ حي بينهم ، فكيف لم يقل علي للعباس : يا عم ، أما تعلم ان رسول الله ﷺ قد نص علي وجعلني حجة على العالم واستخلفني وولدي على امته الى يوم القيامة ، وكيف نسيت مع قرب العهد ، أو ليس قد قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، و « انت مني بمنزلة هرون من موسى » ، وهذا نص واستخلاف . فإن كان امير المؤمنين علي رضي الله عنه نسي ان النبي ﷺ استخلفه كما نسي العباس فكيف لم يذكرهما الصحابة وهم يسمعون ما يجري ، وهذا لا يخفى على متأمل ، فقد وجدت رحمك الله علياً والعباس والصحابة قد اطبقوا على ان رسول الله ﷺ ما نص ولا استخلف رجلاً بعينه ، ولا قال قولاً قصد به هذا المعنى . فان قيل : ومن سلم لكم ان هذا قد جرى بين علي والعباس رضي الله عنهما ؟ قيل له : إن هذا كالذي جرى في السقيفة وفي الشورى ، لا يرتاب بذلك اهل العلم ، والعجب انكم تقولون أن النبي ﷺ قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » وتتكرون مثل هذا وهو أصح ، والعلم به اقوى ، وما زال ولد العباس وولد علي من قديم الدهر يتذاكرون هذا الذي جرى من آباؤهما في أنها أصوب رأياً ، ويخوض اهل العلم في ذلك ، كالشعبي وعبد الرزاق (١) ، وإنما يذهب مثل هذا على معاند أو من لا نصيب له

(١) الشعبي هو عامر بن شراحيل الشعبي الحنظلي (ابو عمرو) رواية من التابعين ، وهو من رجال الحديث التقات توفي سنة ١٠٣ هـ . تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥
واما عبد الرزاق فهو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحنظلي (ابو بكر) من حفاظ الحديث التقات . له «الجامع الكبير» في الحديث . توفي سنة ٢١١ هـ . تهذيب التهذيب ٦ : ٣١٠

في العلم .

وفي هذا الباب ، ان النبي ﷺ لما مرض جزع اصحابه لمرضه ، فكانوا معه وحوله ومسجده بهم مثل الرمانة ، وعنده في بيته ازواجه وعماته وبناته ، فكان / اذا وجد خفياً خرج فصلى بهم ، فاشتد به يوماً مرضه فقالوا : الصلاة يا رسول الله ، فقال : ما أستطيع الخروج ، صلوا ، قالوا : يا رسول الله من يصلي قال : يؤذن بلال ويصلي أبو بكر .

ففي قولهم : من يصلي ، دليل على انه ما استخلف رجلاً بعينه ، لأنه لو كان فعل ذلك لما قالوا من يصلي ولا خفي عليهم مكانه ، كما لا يخفى عليهم القبلة وقد فرغ لهم منها ، فلا يقولون الى ابن نصلي . وأكد ذلك ايضاً بقوله : يصلي بكم ابو بكر ، ولو كان قد استخلف رجلاً بعينه لقال : اوليس قد استخلفت عليكم علياً ، فكيف نسيت مع قرب العهد ، ولأمر علياً بالصلاة .

فان قيل : ومن سلم لكم هذا ، وإنما عائشة قالت له لا رسول الله ، وأن رسول الله ﷺ لما احس به خرج وصرفه .

قيل لهم : انه ليس لرسول الله عهد اوثق ولا عهد اوضح من عهده الى ابي بكر في الصلاة بالناس في مرضه ، فانه عقد كان منه في بيته وبحضرة اصحابه ، الذين صفتهم على المحافظة على دينه الصفة التي قدمنا ، والعلم بذلك يجري مجرى مرضه في بيت عائشة ودفنه فيه ، ويجري العلم بأن ابا بكر وعمر دفنا عنده ؛ والعجيب من يقول : قد علمنا ان رسول الله ﷺ قال : من كنت مولاه فعلي مولاه وعلي مني بمنزلة هرون من موسى ، وقال : انفذوا جيش اسامة ، وينكر امر ابي بكر في الصلاة بالناس ، وهذا من

العناد الشديد والجهل الفاض ، وهو كمن قال : إن رسول الله ﷺ ما اختار أباً بكر للهجرة معه ولا كان معه في الغار ، ولا اختصه بأن يكون معه في العريش يوم بدر دون الناس كلهم ، ولا كان معه في بيعة الرضوان ، ولا أقامه مقام نفسه في الحج بالناس في سنة تسع ولم يقدم غيره في ذلك ، وهو أول أمير حج بعده ﷺ / في حياته من المدينة .

ولقد أمر أبو بكر بالصلاة ، فصلى بجميع أصحابه وأهل بيته كالعباس وعليّ وجميع بني هاشم ومواليه ، وهو ينظر إليهم من بيته وفي مسجده وهم يصلون خلف أبي بكر ، فصلى بهم أبو بكر [عدة] (١) أيام . ففي بعض تلك الأيام يخرج رسول الله ويصلي معهم ، وفي بعضها يخرج وقد فرغ أبو بكر فيجلس معهم ، وفي بعضها يحس به أبو بكر فيتحنى ويقدمه ويصلي بهم . لا يتدافع أهل العلم من الصحابة والتابعين والذين يلونهم والذين يلونهم في ذلك . ولقد صلى بهم أبو بكر الظهر في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ قبل دفنه وقبل البيعة له بذلك العهد الذي كان من رسول الله ﷺ لا ينازعه في ذلك أحد .

وقد روي هذا الحديث وأمر رسول الله ﷺ لأبي بكر بالصلاة علي بن أبي طالب ، ذكر ذلك في خلافته وعلي منبره مرات كثيرة ، ورواه العباس وابنه عبد الله ، وذكره عمر على منبره في خلافته ، ورواه أبو عبيدة ، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، والبراء بن عازب ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله بن زمعة ، ومن لا يحصى كثرة من المهاجرين والانصار . وإنما كان سبب ذكرهم له ، لأنهم كانوا يذكرون مرض رسول الله وكيف صنع ، وإنما

(١) في الأصل فراغ أملائه بعده ، ويمكن أن يقرأ بدونها فتقول حينذاك : فصلى بهم أبو بكر أياماً .

يظن أن أبا بكر تقدم فصلى بالمهاجرين والانصار بغير عهد من رسول الله ﷺ ، من لا يعرف المهاجرين والانصار ، وشدة بضائهم ، وإعظامهم لمقام رسول الله ﷺ أن يقوم فيه أحد مقامه سيما في خاصته بغير أمره .

وبعد فإن مسجده في بيته ونصب عينيه ، يسمع وهو في بيته صوت من في مسجده وإبراهيم ، وأمره لأبي بكر / بالصلاة بحضرة أصحابه ، ويسمع ذلك جميع أزواجه وبناته وعماته ، فقد كنّ في مرضه هذا اجتمعن كلهنّ عنده في بيت عائشة . وكان أمره له بذلك مرة بعد مرة ، فإن الصحابة كانوا يدخلون في أوقات الصلاة فإن وجد خفّاً خرج معهم ، وإلا قال لهم : يصلي بكم أبو بكر . وكان في أول أمره أمر بذلك ، قالت عائشة : يا رسول الله ، إن أبي رجل أسيف (١) لا يستطيع أن يسمع الناس ، فلو أمرت غيره ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك ولم يجبه اليه ، فاستعانت ببعض أزواجه عليه ليشفعها ويأمر غير أبي بكر بالصلاة ، فردّهن رسول الله وغضب وقال : يأبى الله والمؤمنون غير أبي بكر ، إلیکن عني صويحبات يوسف . فهذا الذي كان من عائشة فادعوا عليها ما لم يكن ، وهذا شأنهم . ولقد قيل لعائشة لم كرهت أن يصلي أبوك بالناس في مرض رسول الله ﷺ وراجعت رسول الله ﷺ في ذلك حتى غضب ؟ قالت : ظننت بجداثة سني أنه لا يطيق ذلك ، وأن المسلمين يتشاءمون به .

وقد قال بعض العلماء في قول رسول الله ﷺ : إلیکن عني صويحبات يوسف ، أن أولئك النساء ظنن أن يوسف عليه السلام إذا دفع إلى شدة

(١) الرجل الأسيف : الشيخ الفاني والسريع الحزن والرقيق القلب ، انظر قاموس المحيط .

يضعف ويحيب الى المعصية فلم يكن كما ظن ، فأراد رسول الله ان ابا بكر سيدفع الى شذائد فيصبر ويحتمل .

ثم يقال لهم : وكيف طمع ابو بكر ان يتقدم بأصحاب رسول الله ﷺ وقد علم ان رسول الله ﷺ قد استخلف علياً وعرفهم انه حجة الله عليهم وعلى رسول الله وجميع الصحابة حضور شهود ، كيف يتوهم عاقل هذا ؟ وبعد فكيف اقر رسول الله ﷺ عائشة / في ازواجه واقام عليها وقد ارتدت بهذا الصنيع ، وقد قال الله عز وجل : « ولا تمسكوا بعهص الكوافر » (١) ؟

فادعيت ان ابا بكر اغتصب هذا المقام ، وان ذلك بلغ رسول الله ﷺ ، وانه غضب من ذلك وانكره ، وخرج وعزل ابا بكر ، وانكر على الصحابة طاعتهم لأبي بكر في الصلاة خلفه ؛ هذا امر عظيم ، ومراجعات كثيرة ، إذ لو كانت لكان العلم بها اقوى من العلم بما كان من المراجعة لرسول الله ﷺ من المراجعة والمناقلة يوم الحديبية مع سهيل بن عمرو (٢) وما اشبه ذلك ، ولكن مذاهبكم مقصورة على دعاويكم . ومن العجب كونكم ما ادعيت ان رسول الله ﷺ لما غضب وخرج وعزل ابا بكر ان يكون قد قدم علياً فصلى بالناس ليتم بهتكم ، بل لو كنتم صادقين في دعوى النص عليه لكان هذا وقت تقديمه والغضب لأجله لو ادعيت ان رسول الله ﷺ لم يختر

(١) المتحنة ١٠

(٢) كانت سهيل بن عمرو سفير قريش الى الرسول يوم الحديبية ، وقد عرض على الرسول الانصراف عن مكة ذلك العام على ان يأتيها في العام الذي يليه وعلى ان يقوم بينه (ص) وبين قريش صلح متصل عشرة اعوام . وقد حدثت أثناء المفاوضات مراجعات من المسلمين واحداث تجدها في كتب السيرة

بيت عائشة لمرضه ودفنه والموت فيه وانما اختار بيت ابنته فاطمة ولكن ابا بكر مضى واغتصبه وحمله وجاء به الى بيت عائشة ، فهذا رحك الله من الأدلة التي تشهد ان رسول الله ﷺ ما استخلف علياً ولا نص عليه كما يدعي هؤلاء وانما ينكرون الاخبار .

فان قالوا : لو كان رسول الله ﷺ ما استخلفه لعلمنا باضطرار انه لم يستخلفه .

قيل لهم : ما لم يفعله رسول الله ﷺ لا يعلم بالاضطرار ، انما يعلم بالاستدلال ، فمن استدل علم ومن لم يستدل جاز ان يظن انه قد فعل .

ولو كان فعل شيئاً أو فرض شيئاً على الامة من سائر احكام الشريعة لجاء بحجج العلم كما جاء غيره ، وهذا هو الاصل كما شرحنا وقدمنا .

بَاب آخِر

من هذا ، ان الانصار لما قبض رسول الله ﷺ حزنوا لفراقه ، فاشتد حزنهم وعظمت مصيبتهم ، فقالوا هداانا الله به ، وجمع الفتنة بدعوته ، وعظمت علينا بركاته . فرجع بعضهم على بعض فقالوا : احمدوا / الله فقد قبض وهو عنكم راض ، فقالوا : الحمد لله ، ولكن قد وترنا الأمام ، وقد قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف ، ولا بد لنا من امير نقيمه فنغزوا معه ونجاهد ، فقال قائل منهم : لا بد لكم من هذا ، فأقيموا رجلاً منكم .

فانظر كيف أفصحوا بأنه لم يستخلف ، ولو كان كما يدعون هؤلاء لقليل لهم ذلك ورد عليهم هذا القول والنبي ﷺ لم يدفن بعد ، وكيف لم يستدل

عليهم بالآيات والأحاديث التي تروونها وتستدلون انتم بها فلو لم يكن إلا هذا لكفى في الدلالة على بطلان ما يدعونه هؤلاء، وما يدعيه العباسية والبهيرية.

فإن قيل: فالنبي ﷺ قد قال: «الأئمة من قريش» في الجماعات الكثيرة وقد ذهب هذا على الانصار، فما تنكرون ان يكون قد نص على علي والعباس وأبي بكر وذهب عنهم؟

قلنا: لا ندعي ان رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» في الجماعات الكثيرة، ولا قسام فيهم خطيباً كما تقولون في دعواكم لعلي، ولا اخذه على الناس، ولا هو ايضاً من فرض الكافة، وإنما هو من فرض الفقهاء والخاصة، فيعقده اربعة نفر أو خمسة لواحد، وهو يجري مجرى قوله عليه السلام: «لا وصية لوارث» (١)، و«أهل ملتين لا يتوارثون» (٢)، و«الخراج بالضمان» (٣)، وليس كذلك ما يدعونه من انه نص على رجل بعينه وفرض طاعته على جميع أمته وجعله الحجة عليهم بعده، فأوجب على الرجال والنساء والأحرار والعبيد والمقيمين والمسافرين طاعته، وأعلمهم هذا الغرض وأداه اليهم بحسب وجوبه وشمول عمومهم، فجري في الغرض مجرى قوله: «أنا رسول الله اليكم وحجة الله عليكم»، فهذا لا يذهب على النفر اليسير، من هو دون الانصار في الرتبة والاختصاص برسول الله ﷺ، وهو يقول: «الانصار كرشي وعيبي» (٤)، يريد بذلك انهم موضع سرّي وخاصتي،

(١) حديث لا وصية لوارث في الجامع الصغير، في الدارقطني عن جابر ٢: ٥٠٢.

(٢) ورد معنى هذا الحديث بلفظ آخر في الجامع الصغير ٢: ٥٠٥، مسند ابن حنبل والبخاري ومسلم وأبي يعلى عن أسامة.

(٣) الحديث في شرح الجامع الصغير ١: ٥٢٥، عن مسند ابن حنبل، والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن عائشة،

(٤) انظر الحديث في مناقب الانصار من صحيح مسلم وغيره.

فإن / فرض هذا من قوله: «الأئمة من قريش» (١)، ومع كون هذا من فرض الخاصة، فعند الحاجة ذكر وقبيله الانصار كلهم وعملوا به، فلو كان دعواكم انتم ايضاً كذلك لكان قبل وعمل به مثل هذا.

وَبَابُ آخِر

من هذا ان العباس وبني هاشم بلغهم قول الانصار وما عزموا عليه، فما أنكروا قولهم ان رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف، وان الإمامة تجب بالاختيار، بل مدحهم العباس وأثنى عليهم وأقبل على عليّ وقال له: قد كنت قلت لك ورسول الله ﷺ حيّ عليل انطلق بنا اليه نسأله فيمن يكون هذا الامر فان كان فينا لم 'تنازع فلم تفعل، والآن فامدد يدك أبايعك فيقال: هذا عم رسول الله ﷺ بايع ابن عم رسول الله ﷺ فلا يختلف عليك اثنان.

فتأمل رحك الله هذا البيان وهذا الإفصاح من الجميع، ان رسول الله ﷺ ما نص ولا استخلف، فكيف لم يقل علي لعمه: كيف تقول إنك لو بايعتني ما اختلف عليّ اثنان ورسول الله ﷺ قد عقد لي وجعلني الحجة وقد خالفوني.

وانما كان قوله رضي الله عنه للعباس لما قال له أمدد يدك: هذا امر المسلمين، وما كنت لأفتات عليهم بأمر، فإن ارادوني فقد عرفوا مكاني.

(١) انظر الجامع الصغير شرح المناري ١: ٤٢٧، وفي الحاكم والسنن الكبرى عن علي. قال الحاكم: صحيح، ونعقب بأنه منكر.

ف قيل له : أقبل فانهم لا يخالفونك ولا يكرهونك ، وقال له ابو سفيان :
اقبل يا ابا الحسن ما يقول ابو الفضل وانا أبايعك ، فقال له العباس : اقبل
فهذا شيخ بني عبد مناف يبايعك ايضاً ، فقال ابو سفيان عليّ بنو عبد مناف
كلها ، بل عليّ قريش ان تبايع ولا تخالف ، فقال له العباس : افعل ، فقال :
لا يا عم إلا عن ملأ من المسلمين .

فانظر كيف بين رضي الله عنه امر الامامة للمسلمين وباختيارهم ، وانه
لا يبادر الى القبول لئلا يظن به الحرص على الامارة ، فقال له قائل من بني
هاشم : فأخبر الناس أن رسول الله ﷺ جعلها / في بني هاشم ، فقال رضي
الله عنه : والله لئن كنت أول من آمن به فلا اكون أول من كذب عليه .

ومقام آخر ، وهو ان العباس خرج الى ابي بكر وهو في المسجد فأخبره
بما بلغه عن الانصار ، وسأله ان يضي اليهم ويبين لهم ، لعلم العباس بعظم
قدر ابي بكر في المهاجرين والانصار . فنهض ابو بكر وتبعه عمرو وأبو عبيدة ،
وصاروا الى الانصار ، فأنكر عليهم ابو بكر ما عزموا عليه ، فعجبوا من
إنكاره وقالوا : لم تنكر ان تكون الامارة فينا ، فقد مضى رسول الله ﷺ
وما استخلف ، وقد قال فينا كذا ، ومدحنا بكذا ، فقال ابو بكر :
صدقتم ، وقد قال رسول الله ﷺ : ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت
الانصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الانصار ووادهم ؛ ثم قال ابو بكر
ولكن هذا الامر ينبغي ان يكون في الحي من المهاجرين من قريش ، فلا
تنفسوا عليهم الامارة : أسلمنا قبلكم ، وقدمنا الله في القرآن عليكم ، وما
كان في قريش نفاق .

فقال الحباب بن المنذر بن الجوح : فإن ابينم فنما امير ، ومنكم امير . ثم

اقبل على قومه من الانصار فقال لهم : البلاد بلادكم ، والبادية ياديتكم ، وأنتم
شعب الاسلام الذي لجأ اليه ، وإنما عز الاسلام بأسيا فكم ، فإنا ابي هؤلاء
[ان] ^(١) يكون منا امير ومنهم امير فأخرجوهم من بلادكم ، ثم اقبل على
المهاجرين وقال : إن شئتم اعدناها جذعة ، انا عزيزها المرجب وجذيلها
الحكك ^(٢) .

فقال ابو عبيدة : الله الله معشر الانصار ، إنكم اول من نصر وآزر فلا
تكونوا اول من بدل وغير ، وقال ابو بكر لسعد بن عباد : قد علمت يا
سعد إن رسول الله ﷺ قال ^(٣) : « الناس تبع لقريش ، فخير الناس
تبع لخيارهم ، وشرارهم تبع لشرارهم » ^(٤) / قال : صدقت ، فقال بشير بن
سعد الانصاري : والله لئن كنا اولي فضيلة في جهاد عدونا فما أردنا بذلك
الارضاء ربنا والكدر لأنفسنا ، وما ينبغي أن نستطيل على الناس ، فالمنة
لله ورسوله علينا . ورجع الانصار عما كانوا عليه ، وأقبلوا على ابي بكر
وقالوا : من ترضى لنا يا ابا بكر ، فقال : رضيت لكم عمرو أبا عبيدة ، إن
رسول الله ﷺ اتاه قوم فقالوا : ابعت معنا اميناً حق امين فبعث معهم ابا عبيدة ،
وقد قال في عمر كذا وكذا ، فقال عمر : اما انا فلأن اضجع فأذبح في غير

(١) زيادة على الاصل يقتضيها السياق

(٢) الجذيل : تصغير جذل . وهو عود يكون في وسط مبرك الابل تحتك به وتستريح اليه ،
ويضرب به المثل في الرجل يشتقي برأيه . والعذيق تصغير عذق وهو النخلة نفسها . والمرجب :
الذين تبني الى جانبه دعامة ترفده لثرة حمله ولعزه على اهله ، فصرّب به المثل في الرجل الشريف
الذي يعظمه أهله . انظر لمناقشة الحباب بن المنذر الطبري ٣ : ٢٢٠

(٣) كتب في حاشية الصفحة : قال رسول الله (ص) : الناس تبع لقريش .

(٤) في شرح الجامع الصغير للناوي ٢ : ٤٦٢ . وقد ورد في مسند ابن حنبل ومسلم عن
جابر . بلفظ آخر .

ماثم احب اليّ أن اتقدم قوماً فيهم ابو بكر ، ولكن انت يا ابا عبيدة ان شئت بايعتك ، فقال ابو عبيدة لعمر : ما سمعت منك فقه (١) في الاسلام قبلها ، اتقول هذا لي وفيكم الصديق وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله ، وقد أمتنا حياة رسول الله ﷺ . فقال عمر : معشر الانصار ، قد علمتم ان رسول الله ﷺ قدم ابا بكر واقامه مقامه في الصلاة بالناس ، فأياكم تطيب نفسه ان يتقدم علي من قدمه رسول الله ﷺ ، قالوا : معاذ الله أن نتقدم ابا بكر ، فقال بشير بن سعد الانصاري ثم الحزرجي : قوموا الى خليفة رسول الله ﷺ فبايعوه ، فاثالوا على ابي بكر ومدّوا يده فقبضها وقال : بايعوا عمر او ابا عبيدة ، ودفعهم عن نفسه يجهده ، وقبص يده فمدها عمر ، فقال له ابو بكر : أنت أنت يا عمر ، انت اقوى وأشد ، فقال عمر : شدي لك انت احق ، انت خليفة رسول الله ﷺ ، رضيك لنا ؛ فما زالوا به حتى بايعوه .

فانظر الى طول هذه المراجعة بين المهاجرين والانصار وهم يطلبون ويفتشون ما يحوز في دين رسول الله ﷺ ، ويرجعون الى أفعاله ووصاياه ، ويبتغون مرضاته ، هل تجد احداً منهم يذكر عن رسول الله ﷺ نصاً على رجل بعينه او ما يشبه النص او ما تأويله النص من انه كتاب الله او من حديث عن رسول الله ﷺ ، والعهد قريب وهو يوم موته ، ولم يدفن بعد ، وهذا موضع الحاجة الى ذكر ذلك ؛ والمناظرة والمباحثة تذكر بالأمور البعيدة وتخرج الغوامض فكيف بالأمر الواضح مع العهد القريب ؟ وما أراد الانصار بالبدار الى إقامة امير يكون على الناس إلا الله ، وإلا إحياء الاسلام

ب /

وقمع اعداء رسول الله ﷺ ، لينضبط الأمر ولا ينشر (١) ؛ فقد كان معهم وحولهم اليهود وقبائل العرب من النصارى ، وقد كانوا راسلوا ملوك الروم وأطعموهم في الاسلام ، ومسيلمة مقيم على حربهم وكذا طليعة ، وقد ارتد من ارتد ، فكان الصواب في المبادرة الى إقامة امير ، فلما قيل لهم : إن رسول الله ﷺ قد قال : الأئمة من قريش سمعوا وأطاعوا ، وقصدوا الى افضل قريش في انفسهم فعهقدوا له وقاتلوا بين يديه كما كانوا يقاتلون بين يدي رسول الله ، وتقاتلوا في طاعته ؛ ولو أرادوا الملك والدنيا لما أطاعهم المهاجرون ولا غيرهم ، فإن البلاد بلادهم ، والبادية باديتهم ، والبأس والنجدة والكثرة لهم وفيهم ، وانما المهاجرون ضيفانهم ونزال عليهم ، وبهم عزّوا ، وبهم صار رسول الله ﷺ في عساكر وجماعات ، وبهم غزا العدو وقد كان ﷺ وهو مقيم بمكة منذ دعا الى النبوة خمسة عشر سنة يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، ويتلو القرآن ، ويدعو الى الله ؛ فسمعتهم / قبائل الأوس والخزرج ، وأصغوا الى دعوته ، وأجابوه الى معاداة ملوك الأمم وجباية الأرض في طاعته ، وأن ينفقوا أموالهم ، ويسفكوا دماهم في نصرة دينه ، وأن يطيعوه حياً وميتاً . فلما أجابوه الى ذلك ، أمر اصحابه بالهجرة اليهم ، فقبلوهم وأظهروا الاسلام في المدينة وفي قبائلهم وبوادهم ، فهاجروا اليهم فوفوا بجميع ذلك ، وكان باطنهم في الايمان كظاهريهم ، فلهذا أسماهم الله الانصار وكذا المهاجرون ، ولهذا قال الله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، اولئك هم الصادقون » (٢) فأخبر عزّ وجل عن صحة نياتهم وصدق

(١) يقصد : كي لا يتفرق المسلمون
(٢) الحشر ٨

ضماثرهم ، وشهد لهم بالصدق ، ثم ذكر الانصار وقال : « والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يُحِبُّونَ من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) ، لأن الانصار كانوا بالمدينة قبل المهاجرين ، فلما جاءهم المهاجرون أحباب رسول الله ﷺ آثروهم على انفسهم بمنازلتهم ، وشاطروهم اموالهم بطيب من انفسهم ، فشهد لهم بالفلاح ، وفرض على من جاء من بعدهم مولاتهم والاستغفار لهم فقال : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » ، وأمرهم بالتعود من بغضهم وعداوتهم ، فمؤلاء الذين قاموا بدين رسول الله ﷺ بعده ، وهم الذين اختاروا أبا بكر ، والقرآن مملوء بمدحهم والثناء عليهم ، وأنت تحفظه ؛ فارجع الى ما في سورة بعد سورة من ذلك وتدبره ، فذكر جميعه يطول ولا يحتمله / هذا الموضع .

فهم لما بايعوا أبا بكر سكنت نفوسهم ، وباثوا وكان رسول الله ﷺ لم يمت ولم يفقد من بينهم ، فهذا الذي قصدوا بالبدار ، وهم كانوا اعلم بما يبشرونه ويقولونه ، وقد علموا انهم قد وتروا الهم كلها في طاعة رسول الله ﷺ ؛ فقد خلفهم ولا امير عليهم ، فخافوا ان يبيتوا وقد فقدوا نبيهم وليس عليهم امير فينشر امرهم ، فلشدته اهتمام هؤلاء بحراسة الاسلام بادروا الى من يعقدون له ، وإنما ذكرت لك هذا لتعرف الحال فإن من لا يعلم ومن هم الطعن في الاسلام يدعي عليهم انهم إنما فعلوا ذلك حباً للعالم ولسرورهم بموت رسول الله ﷺ ، ولا غلبا لهم بالراحة .

وأنت تجدهم وقد شهدت افعالهم بأنهم بعد موته اشد حبا له ، وأشد بصيرة في دينه .

ثم إن أبا بكر عاد من السقيفة وقام خطيباً ، وأخبر المهاجرين بما كان وقال : والله ما اردت الامارة ، ولا نويتها ، ولا تمنيتها في يوم ولا ليلة ، ولا رغبت فيها ، ولقد حرصت أن اجعلها في عمر فما تركت ، وإنما قبلتها خشية الفتنة ، ولأنه لم يكن عليّ امير ، وقد رجعت اموركم اليكم فاقبلوني وولوا من شئتم . فقال له عليّ : والله لا يقبلونك ولا يستقبلونك ، رضى رسول الله ﷺ لديننا فرضيناك لدينا ، قدّمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك ، فصوب الصحابة جميعهم قوله واستحسنوه (١) .

وانظر اعترافهم ان رسول الله ﷺ قد اعطى أبا بكر اكثر مما اعطوه ، وعجب علي رضي الله عنه من طمع الانصار في الامارة وقال : أما سمعوا قول رسول الله ﷺ : « اوصيكم بالانصار خيراً ، اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم » (٢) ، فلو كانوا هم الامراء لكانت الوصية لهم لا فيهم ، ولكن نتجاوز لهم كما وصى رسول الله ﷺ ، والله يرحم الانصار .

فان قال : انهم لم يعارضوا أبا بكر / خوفاً وتقية ، فقد بينا غير مرة ان سلطان هؤلاء الخلفاء الاربعة لم يكن سلطاناً يتقيه حق .

وقيل : إن أبا سفيان لقي علي بن ابي طالب بعد البيعة لأبي بكر فقال له : يا أبا الحسن ، ما بال هذا الأمر في اقل حيز من قريش ، إنما هي بنو عبد مناف ، إن شئت ملأتها على ابي بكر خيلاً ورجلاً ، فقال له عليّ : ما

(١) كتب في الحاشية : صوابه ان مقامه بعد قتل مسيلة

(٢) انظر الحديث في مناقب الانصار .

أريد ذلك ، إنا رأينا أبا بكر لها اهلا ، واني لأعد بيعتي له من جهادي مع رسول الله ﷺ . ثم أتى ابو سفيان العباس وبني هاشم فقال : ما لنا ولأبي فضل (١) ، إنما هي بنو عبد مناف ، يا بني عبد مناف ذبوا عن مجدكم وانصحووا عن سوددكم ، ولا تخلعوا تاج الكرامة إذ ألبسكم الله فضلها ، انها عقب نبوة ، من قصر عنها اتبع ، ومن ذب عنها اتبع ؛ فقال العباس : إن الاسلام قيد الفتك وأخذ بمنان الباطل ، فأهل نراجع الفكر ، فإن يكن لنا من الأمر مخرج نبسط أكفًا للجد لا نقبضها أو نبليغ المدى ، وإن تكن الأخرى فلا لغة في العدد ولا وهن في الأيد . فأنكر علي قول أبي سفيان ، ونهى بني هاشم عن الخلاف ، وقال لهم : عرجوا عن طريق المنافرة وحطوا تيجان المفاخرة . وقال لأبي سفيان : يا أبا سفيان ، إن المسلمين قوم نصيحة وإن تباعدت أنسابهم ، وإن المنافقين قوم غششة وإن تقاربت أنسابهم ، يا أبا سفيان ، طالما عادت الاسلام واهله فلم يضره ذلك شيئاً ، أنا وجدنا أبا بكر لها اهلا ، ولو لم نره اهلا لما وليناها .

وقد ذكر من هذا امير المؤمنين علي رضي الله عنه بعد مضي عثمان في رسالته الى معاوية إذ يقول له في فصل منها : وقد كان ابوك اثني حين ولي أبو بكر رحمه الله الناس ، فقال انت احق بهذا الأمر بعد محمد ﷺ فاهلم ابايك وأنا بذلك على من خالفك ، فكرهنا ذلك مخافة الفرقة ، / فكان ابوك اعرف بحقنا منك ، فإن تعرف منه ما كان يعرف تصب رشداً ، وإلا فسيفنى الله عنك .

وقد ذكر معاوية هذا المعنى لابن عباس وبني هاشم حين اخذ الأمر من الحسن ، فقالوا له : اغتصب وأخذت ما ليس لك ، فقال لهم : إن كان امر الخلافة يستعق بالقرابة دون الرضا والاجماع فما منع العباس منها وهو

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بكر

هم رسول الله ﷺ وقد ضمن له ابو سفيان بني عبد مناف ؟ فكان جوابهم ان ذلك امر رضىه المهاجرون والانصار واجمع عليه المسلمون ، وانت فما رضىناك .

وما كنا في صحة امامة ابي بكر ، وإنما كنا في ان الصحابة في كل زمان وأوان يخوضون فيمن يصلح للامامة ولا يذكرون عهداً من رسول الله ﷺ في انسان بعينه مع حاجتهم الى ذلك ، بل يجمعون على العمل بالاختيار ، فعرض لنا ما كان بين بني عبد مناف ، فذكرنا قول بني هاشم ، وإن أبا سفيان أحب أن تكون الخلافة في بني هاشم لأنهم اهله وأقاربه من بني عبد مناف ، ولأن السؤدد والرئاسة كانت فيهم قبل الاسلام .

ولهذا قال خالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن وقد قدم بعد وفاته وقد بايع الناس أبا بكر ، فعجب من كون الخلافة في أبي بكر دون العباس أو علي أو عثمان فمؤلاء اعمام رسول الله ﷺ وبنو (١) اعمامه ، فقال لعثمان وعلي وقد أتياه ليسلما عليه حين قدم من سفره : أرضيتم بني عبد مناف ان يلي امركم بنو تيم ، فقال علي : رضىنا ، فقال خالد : انتم الشجر الطوال ذوات الظلال فاذا رضىتم رضىناه .

فولاية ابي بكر ، وتقدمه على اهل رسول الله وأعمامه وبني اعمامه / وهم كثرة وفي عزة ومنعة وفيهم اليسار وليس لأبي بكر شيء من ذلك من المعائب ، ولهذا قال ابو قحافة وقد جال الناس جولة وهو بمكة : ما هذا؟ قالوا : مات رسول الله ﷺ ، قال : فما صنع الناس بعده قالوا : اقاموا ابنك مقامه ، قال : أفرضيت بنو عبد مناف؟ قالوا : نعم ، قال : أفرضيت

(١) في الأصل : بني

بنو المغيرة ؟ فقالوا : نعم ، قال : ودانت لرجل من تيم ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله .

فمجب أبو قحافة من تقدم ابنه والسيادة والرئاسة إنما كانت في بني عبد مناف وبني المغيرة من بني مخزوم دون بني تيم ، فلما قدم المهاجرون والأنصار ومن كان على دين رسول الله ﷺ ابنه أبا بكر ، علم أن ذلك الإسلام ومن قبل الله ، وإن ابنه قد كان أولى بالحسد والابعاد ، ولكن القوم رجعوا في توليته إلى الدين والإسلام دون الأحساب والأنساب .

ولما بلغ أهل اليمن والبحرين وعمان قالوا لعمال رسول الله ﷺ : هذا الذي يابعه الناس بعد رسول الله ﷺ ابنه أو أخوه ؟ فقبل لهم : لا ، قالوا : فأقرب الناس منه ؟ قبل : لا ، قالوا : فما شأنهم ؟ قبل : اختاروا أخيرهم فأمره عليهم ، قالوا : إن يزالوا بخير ما صنعوا هذا .

فتأمل رحمة الله حال القوم لتعرف حقيقتها وتعلم أنها بالضد مما قاله هؤلاء ، فقد طال العهد وقل التأمل .

وَبَابُ آخِر

وهو أن أبا بكر غزا اليمامة ، ومسيلمة ، وربيعة ، وطلحة ، وبني اسد ، وتلك القبائل المرتدة ، ومانعي الزكاة ، مع إزعاجهم بإقامة الصلاة ، وأنكر رضي الله عنه ^(١) تغير دين رسول الله ﷺ ، وأنه لا يقرهم على ترك خصلة واحدة من دينه ولا تعطيل شيء منه ، وقد غزاهم بالمهاجرين والأنصار ونكل بهم كل التنكيل ، وقتلهم ألوان القتل ، وصنع بالرجال والنساء منهم

(١) في الأصل : عنهم

من النكال ما يطول شرحه لأنهم غيروا دين رسول الله ﷺ ، / وعطلوا حدوده ، فما استطاعوا أن يقولوا لأمرأ أبي بكر لم تنكروا علينا هذا وأنتم قد عطلتم نصوص صاحبكم ، وغيرتم دينه ، وبدلتم كتابه ، وانصرفتم عن وصيه وعمّن استخلفه ، وضربتم ابنته ، وقتلتم جنينها في بطنها ، وهذا موضع حاجة هؤلاء إليه ، ولو كان لذلك أدنى إشارة لعوتوا عليه واستراحوا إليه ، فعلت أن ما يدعيه هؤلاء لا أصل له .

ولو كان بدا منهم شيء لكان العلم به أقوى مما كان بين أمير المؤمنين وأهل النهر ، وبينه وبين أهل الشام وغيرهم .

وَبَابُ آخِر

أن أبا بكر لما قتل مسليمة ، وأسر طلحة ، ورد أهل الردة ، واستولى على جزيرة العرب الإسلام ، وأنفذ جيوشه إلى العراق واستظهر المسلمون ، قام في المسلمين خطيباً فقال : إن أموركم قد عادت اليكم وبحمد الله استظهرتم على عدوكم فأقبلوني فقد تقلدت أمراً ما لي فيه راحة ولا يدان إلا بمعونة الله ، فقال له علي رضي الله عنه : ما يقبلونك ولا يستقبلونك ، وما منك بدل ولا بدل عنك حول ، ومشى في الناس ثلاثاً يستقبل فما أقالوه .

وَبَابُ آخِر

أن أبا بكر لما مرض مرض موته قال : يا ليتني يوم ظلة بني ساعدة قد كنت وليت عمر أو أبا عبيدة ، فكنت أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً ، وليتني حين بعثت خالداً إلى الشام كنت بعثت عمر إلى العراق فكنت

قد بسطت يميني وشمالى . ثم عزم على استخلاف خليفة يكون بعده ، وأخذ يشاور في ذلك ؛ فقال لهبط من المسلمين : إن وليت عليكم رجلاً منكم أترضون ؟ فقال عليّ بن أبي طالب : لا إلا أن يكون عمر ، فأمسك ؛ ثم خلا بعبد الرحمن بن عوف وشاوره في عمر . وأخذ رأيهم فيه ثم قال له : اكتب يا أبا محمد ما كان بيننا إلى أن أقوله لك ، ثم شاور عثمان بن عفان ، ثم شاور أسيد بن حضير في رهط من الأنصار في ذلك ، فقال له أسيد : / ما اعلمه إلا الحيرة بعدك لولا ما فيه من شدة فقال له أبو بكر : يا أبا يحيى اني قد رمقته ، فكنت اذا شددت في الشيء اراني فيه اللين ، وإذا لنت في الشيء اراني فيه الشدة ، ولو قد وليكم للان واشتد .

ثم اظهر أبو بكر الأمر للناس وذكر لهم رأيهم في عمر ، فقال طلحة وغيره : ان عمر رجل مهيب ، له هيبه وليس بخليفة ، فكيف اذا صار خليفة ؟ فاعدل بنا عنه إلى رجل هو اخفض جناحاً وألين جانباً فكان جواب أبي بكر ما قد تقدم ؛ فكيف يظن عاقل تدبر الأمور ان هناك رجلاً قد اقامه رسول الله ﷺ وفرغ لهم منه ، وكلهم ومعهم ذلك الرجل الذي يدعي هؤلاء ، يطلبون رجلاً يصلح في دين رسول الله وعند رسول الله للقيام بأمر امته ؟ وهل هذا إلا كقائل قال في جماعة كثيرة قيام في الشمس وهم يطلبون الشمس ويسألون عن الشمس ، وتأمل الحال ، وكيف ينطق كل واحد بما عنده وبما يراه ، غير راهب ولا خائف من الأنصار ومن المهاجرين ومن أبي سفيان ومن بني هاشم ومن خالد بن سعيد لتعلم سلطان هؤلاء الخلفاء كيف كان .

فكان المسلمون يفرغون إلى أبي بكر في كل صغير وكبير ، فيقول لهم : أنظرون انكم تجدون عندي ما كنتم تجدونه عند رسول الله ﷺ ، لا تجدون

ذلك ، إن رسول الله ﷺ كان يأتيه الوحي ، وإنما انا مثلكم ، فان احسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني ؛ ويُسأل عن مسألة فيقول : اقول فيها برأي ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، فيستحسن المسلمون هذا منه ويحمدونه عليه ، ولا يقول قائل كيف يزبغ إمام المسلمين وكيف يخطيء ، وعند الإمامية ان إمام المسلمين لا يخطيء ولا يزل .

وقد قال عمر ايضاً مثل قول أبي بكر مرات كثيرة ، وقال عثمان مثل ذلك .

وما بُلي به علي / وما قاله في هذا الباب فأكثر مما ابتلي به أبو بكر وعمر وعثمان ، فإنه ابتلي من أهل زمانه ومن أصحابه طول خلافته بالإضلال والإكفار فما احتج هو لنفسه بالنص ولا بالعصمة ، ولا احتج له من في زمانه بمن كان يخاصم عنه من ولده وأهل بيته وشيعته بشيء من ذلك ، وكانوا وكان هو ايضاً لا يأبون ان يحوز عليه ما يحوز على أهل الشورى وعلى الخلفاء قبله . وكان ما يتدين به من الاختيار أكثر وأشهر مما كان من الخلفاء قبله ، ولهذا قالت العلماء : إن العلم بأن رسول الله ما نص على علي ولا استخلفه أقوى من العلم بأنه ما نص على بلال ، أو عمار ، وأبي ذر ، أو ابن مسعود ، فانه رضي الله عنه قد بقي بعد الخلفاء خليفة وإماماً معه مائة الف سيف تطيعه ، وقد نازعه خلق كثير في الإمامة وناظروه ، وادعوا عليه الخطأ والضلال والإكفار ، فما ادعى النص ولا العصمة ولا احتج في مشافهة ولا مراسلة ولا مكاتبة بشيء من ذلك ، بل كان يحتاج بأن طاعني وجبت لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فوجب طاعني كما وجبت طاعتهم .

ومن نعمة الله على المسلمين ان بقاءه رضي الله عنه بعد الخلفاء خليفة وإماماً وسلطاناً ومعه مائة الف سيف تطيعه ، فما سار في تركت رسول الله ﷺ

إلا سيرة أبي بكر وعمر وعثمان ، ولا حبا السواد ومصر وفارس وأرمينية وأذربيجان وخراسان إلا ما حباه الخلفاء قبله ، ولا قرأ إلا المصحف ، ولا أقرأ أولاده والناس إلا هذا المصحف ، وملك الأرض كانت كله بيده إلا كرة فلسطين ، وأقام التراويح بنفسه وأقامه عماله في ممالكه كلها ، وكان يقيم إماماً للنساء في التراويح ، وأثنى على الخلفاء قبله بما يطول شرحه وقد ماتوا وبلّوا ، وهو يلعبن معاوية ويبرأ منه وهو حي ومعه أكثر من مائة ألف / سيف ، وكذا صنع بالخوارج . فهو لا يخاف الجبايرة الأحياء ، وعند الإمامية أنه قد خاف الموتى وهو سلطان عظيم الشأن ، وقد بينّا أن هؤلاء في حياتهم وسلطانهم ما كان يخافهم بحق (١) .

فإن قيل : ومن سلم لكم أنه كان يقيم التراويح ، بل يقول أنه قد نهام عنها ، فقالوا : وأعمراء ، فلما قالوا ذلك ، أقامها لهم .

قبل له : لا فرق بين من ادعى هذا ، أو ادعى أنه قد كان نهام عن هذا المصحف فقالوا وأحمداه ، أو قال : قد كان نهام عن هذه الصلاة وقال لهم : لها باطن وهي شخص ، ألا تسمعون يقول : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا ينهى إلا الشخص كما يدعيه عليه الاسماعيلية فصاحوا وأحمداه ، أو كمن ادعى أنه كان يعيد في آخر ذي الحجة ويقول : هذا اليوم الذي نص عليّ فيه رسول الله ﷺ واستخلفني كما يفعل الإمامية ذلك في زماننا ببغداد ، وأنه كان يقيم المناحات بالشعر على فاطمة وابنها الحسن الذي زعم الإمامية أن عمر قتله ، كما يفعل الإمامية ذلك ببغداد والكوفة . وبأي شيء يعلم العاقل

(١) في الأصل : يخاف ، ولكن السياق يقتضي ما أثبتناه

المتأمل أن العباس وولده وبنو هاشم كانوا يقيمون التراويح إلا والعلم الذي يعلم به أن علياً كان يقيمها بنفسه وعامله قرظ بن كعب (١) بالكوفة وعامله بالبصرة وبمكة والمدينة وسائر بلدان الإسلام التي في ملكه وسلطانه أقوى وأقهر .

ولو ادّعى مدّع أن ابن مسعود بالكوفة وأبا عبيدة ومعاذ بن جبل بالشام كانوا لا يرونها ولا يقيمونها ، هل كانت الدلالة على بطلان دعواه الظاهرة ، والدلالة على بطلان من ادّعى ذلك على أمير المؤمنين أقوى وأقهر . والعجب أن رؤسائهم والذين لقنوم هذا / المذهب قد قالوا : أنه أقام التراويح .

وإذا قيل لهم : هبكم أنكم ادعيتم أنه كان في زمن أبي بكر وعمر وعثمان كان مغلوباً مقهوراً ، فما باله حين مات هؤلاء [و] (٢) صارت الخلافة إليه وصار السلطان بيده والغيء يحجب إليه فيعطيه من يرى وهو في العساكر والجيوش ، لم يدّع (٣) النص وتعطيل التراويح ويظهر المصحف الذي تدعون ويسير في أموال رسول الله ﷺ ما تدعون ويظهر البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان سيما وقد ماتوا ، كما أظهرها في معاوية والخوارج وهم أحياء وفي عساكر ؟ قالوا : ما فعل ذلك ولا قدر عليه لأن جنده وأعوانه من المهاجرين والانصار والتابعين بعدهم كانوا أولياء أبي بكر وعمر ، فلو اتهموه ببغضهم لقتلوه ، فما زال مظهرهم أنصرتهم ومواليتهم إلى أن خرج من الدنيا . قالوا : وكذا فعل الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين .

(١) في الأصل : كعب بن قرظ ، والصواب ما أثبتناه ، وهو أحد كبار مساعدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحضر معه صفين سنة ٣٧ هـ .

(٢) في الأصل : صارت

(٣) في الأصل : يدعي

والآن يدعي هذا المدعي في هذا الزمان انه كان قد نهى عن التراويح ، فلما صاحوا واعمره خافهم فتقدم واقامها لهم ، فما يجري كلامهم على تحصيل ولكن كما يسنح لهم .

ومما كان ينبغي ان يقدم قبل هذا ، ما كان من عهد عمر حين جرحه فيروز النصراني ، فإنه ورد على عليّ والمهاجرين والانصار وجميع المسلمين من ذلك ما ذهلت له عقولهم أسفاً عليه ؛ فانه قد كان دوتخ ملوك الفرس والروم وأذلهم ، وغلب على ممالكهم ، وأجأهم الى الحرب ، وبلغت خيوله افريقية وأوائل خراسان وأوائل الهند ، فذلّ الشرك كله به ، وغزا الاسلام بمكانه وسلطانه . فخاف المسلمون ان تكرر ملوك الشرك عليهم بفقده ، فاجتمعوا وانفردوا عنه / مفكرين ، وأملوا ان يبتدىء ويستخلف عليهم . فدخل عليه أهل الامصار فقالوا له : أوصنا يا امير المؤمنين ، قال : أوصيكم بالقرآن فتمسكوا به ، فيه هدى الله نبيكم وهذاكم من بعده ، وفيه نجاتكم ، قالوا : أوصنا ، قال : أوصيكم بالمهاجرين والانصار وذكر فضلهم ، قالوا : أوصنا ، قال : أوصيكم بالعرب فإنهم مادة الاسلام ، قالوا : أوصنا ، قال : أوصيكم بدمتكم فإنهم ذمة نبيكم وقوت عيالكم ، قالوا : أوصنا ، قال : قوموا عني وإلا قتلت عنكم . فلما رآه اصحاب رسول الله ﷺ لا يذكر أحداً للخلافة دخلوا عليه ، وابتدأ ابن عباس يسأله الاستخلاف ؛ واقتتح الكلام ، فقال : قد توليتها حياتي واجتهدت لكم رأيي ونصحت لكم جهدي ومنعت نفسي وأهلي ، وأرجو ان انجو منها كفافاً لا عليّ ولا لي ؛ فآثنوا ، وابتدأ عليّ يبشره عن رسول الله ﷺ بالجنة ، وقال له : وأشار الى ابن عباس يشهد على رسول الله ﷺ بمثل ما شهدت ، وشيع غيرها ذلك وسأله الاستخلاف ، فقال : ما أحب ان تحملها حياً وميماً ، قالوا : بل تفعل ، ولك في ذلك

١٣ / ٢

الاجر ؛ انظر يا امير المؤمنين لأمة محمد ﷺ ، فقال : دلوني على من أستخلف ، فقال له المغيرة : انا أدلك عليه : عبد الله بن عمر ، فقال له عمر : والله ما أردت بذلك الله ، فقال له ابن عباس : يا امير المؤمنين ، وما يمنعك من إخوانك ، وأشار الى عليّ وعثمان وعبد الرحمن وتلك الجماعة ، فقال عمر : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني أن رسول الله ما استخلف وأن ابا بكر استخلف - ثم قال : هي في واحد من هؤلاء الستة الذين شهد لهم / رسول الله بالجنة وقبض وهو عنهم راض : عليّ وعثمان ابنا عبد مناف ، وسعد وعبد الرحمن خالا رسول الله ﷺ ، والزبير حواري رسول الله ﷺ ، وطلحة وقاية رسول الله . ثم حذر كل واحد منهم من خلق كرهه له . وقال لعليّ : إن وليت هذا فاعدل ولا تجعل بني هاشم على رقاب الناس ، وقال لعثمان مثل ذلك ، وقال له : لا تحمل بني ابي معيط على رقاب الناس ، ثم اقبل على عمار ومقداد في ان يكونا في ثلاثين من المهاجرين ، وقال لأبي طلحة الانصاري : إن الله لم يزل يعزّ هذا الاسلام بقومك فكان في خمسين منهم ، فإذا مت فليصل عليّ صهيّب ، وليصل بالناس الى ان يقيموا خليفة ، وكونوا عليهم رقباء لثلاثين مستبد ، وقال : لا يأتي اليوم الثالث إلا وقد أقمت احداً من هؤلاء الستة خليفة ، وجدوا في امركم ، وجاهدوا عدوكم .

فلما قبض أنفذوا وصيته كما رسم ، فكف في هذا من شاهد على بطلان دعاوي هؤلاء القوم ، وما حاجة الصحابة ان يختار لهم عمر خليفة وقد فرغ لهم من ذلك رسول الله ﷺ وهو قائم العين نصب اعينهم . وأعجب من هذا قول عمر وهم يسمعون ان رسول الله ﷺ ما استخلف ، وأعجب منه ان الذي يدعون ان رسول الله استخلفه معهم في ان رسول الله ما استخلف ،

وأن الخلافة بالاختيار لا بالنص، وأنها في واحد منهم وفيهم الهاشمي والاموي والزهري والتيمي والاسدي، ففيم كانت منهم كان صواباً، لا ينكر ذلك احد من المسلمين. وأعجب من هذا قوله لعلي: ان ولك فاعدل ولا تحمل بني هاشم على رقاب الناس، فكيف لم يقل له: ما أحتاج الى توليتهم لي؛ ولأنني رسول الله واختارني وشهد بعصمي، / وكيف تقول هذا لي؛ وكيف تقول إن رسول الله ﷺ ما استخلف؟

وَبَابُ آخِر

ان علياً والجماعة ردوا الامر الى عبد الرحمن ليختار واحداً منهم للخلافة وعليهم الرضا بحكمه، فقال لهم: تكلموا فأخبروا الناس بذلك، فتكلموا، وقام امير المؤمنين علي رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: لو عهد الينا رسول الله ﷺ عهداً لجالدنا عليه حتى نموت، او قال لنا قولاً انفدنا قوله على رغنا، لن يسرع احد قبلي الى صلة رحم ودعوة حق، والامر اليك يا ابن عوف وعلي صدق اليقين وجهد النصح وأستغفر الله لي ولكم. فلم يقل^(١) رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ ما ولاه ولا ولت عليه.

ثم انظر في باب آخر في امر عثمان وما لحقه في آخر امره من الإعراض والخصومة، حتى تجرأ عليه العبيد والنساء والصغير والكبير، هل قرع احد من خصومه وأعدائه بأنه جلس في غير مجلسه؟ وقد بالغوا في التشنيع عليه، وهو كان يسمى الخليفة المستضعف، فكيف لم يتقدم الخليفة المنصوص عليه فيأخذ الامر من هذا الذي قد قهر وحصر.

(١) في الاصل: يقول

وأعجب من هذا، ان المصريين أتوه رضي الله عنه بعد ان مضى عثمان فقالوا: امدد يدك نبايك، فقال: ليس هذا اليكم، هذا للمهاجرين والانصار، من أمره اولئك فكان اميراً. فانظر كم يقول إن هذا امر المسلمين وأنه بالاختيار. ثم ان المصريين انصرفوا عنه، فجاءه المهاجرون والانصار، فقالوا: امدد يدك نبايك، فقال لهم: اختاروا غيري تبايعونه وأبايعه، فلأن اكون لكم وزيراً خير من ان اكون اميراً، فدفعهم عن نفسه، فعادوه فقال لهم: إن عمر كان رجلاً مباركاً / وقد جعلها شوري، قالوا: فأنت من الشوري وقد رضيناك، فقال: اختاروا غيري، فدفعهم، فعادوا فقال: قد علمت اني اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه امركم، قالوا: قد رضيناك، فدفعهم ومشى الى طلحة والزبير فعرضها عليهما، وقال: من شاء منك بايعته، فقالا: لا، الناس بك ارضى، فترددوا اليه وهو يأبى ويقول: اختاروا غيري فيقال انهم اختلفوا اليه بعد مضي عثمان ثمانية ايام، ومنهم من يقول []^(١) يوماً وهو يقول: اختاروا غيري ابايعه وتبايعونه.

هذا، وقد مات ابو بكر وعمر وعثمان وما هناك سلطان ولا خليفة، فأين ما ادعيتهموه؟ ثم انه لما اتوا وألحوا عليه فقال بعد الحمد والثناء والصلاة: ايها الناس، ان احق الناس بهذا الامر اقوامهم عليه واتقاهم الله، ولا يحل بعد إلا برضى المهاجرين والانصار، فاذا رضوا لم يكن الخيار، فان شغب شاغب استتيب، فان ابى قوتل حتى يفيء الى امر الله.

(١) فراغ في الاصل، والقول الصحيح ما ذكره القاضي من ان عثمان رضي الله عنه قتل يوم ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ. وان علياً رضي الله عنه يبيع يوم الجمعة خمس بقين من ذي الحجة. انظر الطبري.

فانظر الى هذا البيان والكشف ، وان الامامة بالاختيار ، وانها الى المهاجرين والانصار ، فقالوا نبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله ، فإن لم تف فلا بيعة لك ، قال : نعم .

ثم خطبهم فقال بعد الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ مقدار نعم الله على الخلائق برسول الله ﷺ ، ثم قال : ان الله يعلم اني كنت كارهاً للولاية على امة محمد عليه السلام حتى اجتمع رأيكم على ذلك لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ايما والي الامر بعدي اقيم على حد الصراط ، ونشرت الملائكة صحيفته ، فان كان عادلاً انجاه الله بعد له ، وان كان جائراً انتفض به الصراط انتفاضة حتى تقتزيل ما بين مفاصله ، ثم تتحرق به الصراط فيكون اول ما يتقي به النار انفه وحر وجهه ، ولكن لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم . اقول ما سمعتم ، واستغفر الله لي ولكم .

فانظر الى هذا ففيه اتم كفاية ، وانظر الى بيانه ان الامام يجوز ويخطيء ويزل .

وخطبته المشهورة بالعراق التي لا يستطاع دفعها :

ايها الناس ، انه لما توفي رسول الله ﷺ بايعتم ابا بكر فبايعت ورضيت ، ثم بايعتم عمر فبايعت ورضيت ، ثم بايعتم عثمان فبايعت ورضيت ، حتى اذا مضى عثمان تذاكمتكم علي كتدالك^(١) عرف الصبح ، فمددت يدي فقبضتها وقلت : اختاروا لانفسكم فابيتكم الا مبايعتي ، حتى اذا كثر الجمع ووطئ الحسين وشق عطاؤه ، فابيت الا أن تكون بيعتي ظاهرة مكشوفة على منبر رسول الله ﷺ وفي مسجده ، فبايعني كل ، لا أرى منكراً ، فلما قلد قمونها

(١) تذاكمتكم : تهاكمت . وفي الحاشية كتب : صوابه تهاكمت .

نكث فاكثون ممن بايعني وقسط قاسطون ، فلم اجد إلا قتال من بغى ومحاربة من اعتدى الى كتاب الله ؛ وليس يجب انكار امامة من عقدت له الامامة إلا أن يجور في حكم ، او يعطل حداً ، او يضعف عن القيام بها ؛ فوالله ما عطلت لكم حداً ، ولا جرت عليكم في حكم ، ولا ضعفت عن القيام بالامامة ، فأوجبوا لي على انفسكم مثل ما اوجبتموه لمن تقدمني من ابي بكر وعمر وعثمان يرحمهم الله .

فانظر كيف يذكرهم ببيعة الخلفاء قبله ورضاه بهم ، ويجعلهم إجماعاً وحجة على الأمة ، ويذكر انه صار إماماً ببيعتهم له ، وأنهم هم قلدوه إياها ، وأنه لا يحل انكار امامة الامام الا ان يجور في حكم او يعطل حداً او يضعف عن القيام بها ، وأن هذا جائز على كل امام بعد رسول الله ﷺ ، وهو رضي الله عنه اعلم بنفسه وبدينه وأفقه في دين الله ، فيذبغي الرجوع الى قوله لا الى قول هؤلاء . وقد قال في خطبة له بالمدينة وهو يأمر الناس بتفقد افعاله وأحكامه : رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه ، ورأى جوراً فردّه ، وكان عوناً بالحق على من خالفه .

وقد قال الحسن ابنه رضي الله عنها لأهل الكوفة حين استنفرهم الى ابيه : يا ايها الناس ، إن امير المؤمنين يقول اني خرجت مخرجي هذا ظالماً او مظلوماً ، وإني اذكر الله رجلاً رعى الله حقاً إلا نفر ، فان كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً اخذ مني .

ومن مقاماته بالبصرة يوم الجمل بعد انقضاء الحرب فقال : ابن مشوى القوم ؟ قالوا : صرعى حول الجمل ، فقام خطيباً فقال بعد حمد الله والثناء : توفي رسول ولم يعهد اليها في الامارة عهداً فنتبّع اثره ، ولكننا رأيناها من

تلقاه انفسنا ، فان يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمننا ومن الشيطان .
استخلف ابو بكر ويرحم الله ابا بكر فاستقام وأقام ، ثم استخلف عمر
ويرحم الله عمر فاستقام وأقام ، ثم ضرب الدين بحجرانه ، يرحم الله من يشاء
ويعذب من يشاء .

ثم القول الذي كان يقوله ويعيده ويبيديه ويذكر ايام الإلفة والاستقامة
وما حدث بعد ذلك من الخلاف في آخر ايام عثمان : سبق رسول الله ﷺ ،
وصلى ابو بكر ، وثلاث عمر ، ثم خبطتنا فتنة فما شاء الله (١) - قوله ما
شاء الله على طريق الاستغاثة بالله لأن الله يشاء نصرة الحق ولا يشاء الله
الباطل - أي اللهم افعل ما تشاء ، قد قال الحسن البصري فيما حكاه الله عن
احد الرجلين : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله » (٢) أي ما شاء
الله من شكره وحمده والرجوع اليه .

ولما فرغ امير المؤمنين / من امر البصرة وبلغه خلاف معاوية وندب الناس
الى حربه ، دخل عليه ابن الكواء وقيس بن عباد اليشكري وهناك اصحابه
فقال له : أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت ، تضرب الناس بعضهم ببعض
ليتبين الناس أمورهم فتستولي بها عليهم ، أمن رأي رأيته حين تفرقت الأمة
واختلفت الدعوة أنك احق الناس بهذا الامر ، فإن كان رأياً رأيته أجبنك
في رأيك ، وإن كان عهداً عهدك اليك رسول الله ﷺ فأنت الموثوق به
والصدق المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه .

(١) في الحاشية : قوله ما شاء الله على طريق الاستغاثة

(٢) الكهف ٣٩

قالوا : فلتشهد امير المؤمنين وحده الله وقال : لأننا والله اول من صدقه
فلا اكون اول من كذب عليه ، اما ان يكون عندي عهد من رسول الله ﷺ
فلا والله ، ولو كان عهد من رسول الله ما تركت أخا تيم ابن مرة (١) ولا ابن
الخطاب على منبره ولو لم آخذ الا بيدي هذه ، ولكن نبيكم نبي الرحمة لم
يقتل قتلاً ولم يمت فجأة ، مرض ليالي وأياماً ، يأتيه بلال يؤذن بالصلاة
فيقول له : انت ابا بكر - وهو يرى مكاني - فلما قبض الله نبيه عليه السلام
نظرنا في امرنا ، فإن الصلاة أعظم الاسلام وقوام الدين فرضينا لديننا من
رضي رسول الله ﷺ لديننا ، فولينا ابا بكر امورنا ، فأقام بين أظهرنا :
الكلمة جامعة والامر واحد ، لا يختلف عليه منا اثنان ، ولا يشهد أحد
منا الى صاحبه بالشرك ولا يقطع منه البراءة ، فكنت والله آخذ اذا اعطاني
وأغزو اذا أغزاني ، واضرب بيدي هذه الحدود بين يديه .

فلما قبض ابو بكر ظن ان عمر اقواها عليها وأحمل لها منا قولها عمر ،
فأقام عمر بين أظهرنا : الكلمة جامعة والامر واحد ، لا / يختلف عليه منا
اثنان ولا يشهد احد منا على صاحبه بالشرك ، فكنت والله آخذ اذا
اعطاني وأغزو اذا أغزاني ، واضرب هذه الحدود بين يديه .

فلما حضرت عمر الوفاة ظن انه إن يستخلف خليفة فيعمل ذلك الخليفة
بخطئه إلا لحقت عمر في قبره ، فأخرج منها ولده واهل بيته وجعلها في ستة
رهط من قريش ، وكان فينا عبد الرحمن بن عوف فقال : هل لكم الى ان
ادع لكم نصيبي منها على ان اختار الله ولرسوله والمسلمين ، فقلنا : نعم ،
فأخذنا ميثاقه على ذلك ، واخذ ميثاقنا على ان نسمع ونطيع لمن ولاه امرنا ،

(١) يقصد أبا بكر الصديق رضي الله عنه

فضرب بيده على يد عثمان ، فنظرت في امري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي ،
واذا ميثاقي لغيري في عنقي ، فأديت الى عثمان حقه ، وكنت اضرب بين
يديه الحدود .

فلما قُتل عثمان رحمه الله ، نظرت فإذا الخليفة^(١) اللذان اخذاها من
رسول الله ﷺ بالعهد في الصلاة قد هلكا ولا عهد لهما واذا الخليفة الذي
اخذاها بمشورة المسلمين قد قتل وخرجت ربقته من عنقي وقتل ولا عهد له .
فلما قتل ، بايعني اهل هذين الحرمين : مكة والمدينة ، واهل هذين المصرين
البصرة والكوفة ؛ فجاء معاوية يقاتلني مع اهل الشام وكنت احق بالامر منه :
كنت مهاجراً وكان اعرابياً ، وكنت سابقاً وكان طليقاً ، وكان لي الصحبة ؛
قالوا : صدقت ، انت احق من معاوية .

فتأمل هذا الشرح والكشف وحصل ما فيه ، فلو لم يكن معك غيره
لكان فيه اتم كفاية ؛ وإنما سألوه هل معه في ذلك عهد من رسول الله ﷺ
ألقاه اليه وحده كما سأل عمران / بن حصين وأبو الأسود الدؤلي عائشة
وطليحة والزبير كل واحد منهم على انفراده ، هل معه العهد من رسول الله
في مسيره فكلهم قال : لا .

فإن قيل : قد علمنا انه كان يأخذ اذا اعطوه ، ويقم الحدود بين ايديهم ،
ويعينهم ، فمن اين لنا انهم غزوه ؟ قلنا : لو لم يكن معنا خبر بأنهم قد
غزوه إلا هذا لكفى وأغنى .

وكان رضي الله عنه قد انكر من معاوية تبسطه في زمن عثمان فتتكرر
له ، وأشار عليه بعض اصحابه فقال : انت بقية الناس ولك حق الطاعة ،

(١) في الاصل : الخليفة

فأقر ابن عامر^(١) ومعاوية وغيرهما فانهم يبايعون لك الناس ، ويهدون البلاد
ويسكنونهم . فقال له : والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ولا
وليت هؤلاء ولا مثلهم يولي ، والله لا اداهن في ديني ولا اعطي الديني في
امري .

وكان المغيرة هو الذي اشار عليه بهذا ، فلما قدم ابن عباس من مكة
استشاره امير المؤمنين فقال : ما ترى فقد اشار المغيرة بإقرار معاوية ، فقال :
قد نصح لك يا امير المؤمنين فافعل واقبل ، فقال : والله ما اشك ان ذلك
خير في عاجل الدنيا لأصحابها ، وما الذي يلزمني من الحق والمعرفة ألا
اولي منهم احداً ، فإن قبلوا ذلك فخير لهم ، وإن ادبروا بذلت لهم السيف ،
وما علي إلا الاجتهاد . فقال له ابن عباس : خلني اولته ثم انزعه من غير
نقصان ولا إثم ، فقال : لا افعل ، ما كنت متخذ المضلين عضداً ، اخاف
ان يظلم مسلماً او معاهداً فأجده في صحيفتي ، لا اوليه ساعة واحدة .
فراجعته ابن عباس فقال : لا يظلم ، فقال : لا أشرك في امانتي الا من
ارضاه .

فانظر الى هذه المكاشفة بالحق في جميع اموره لتعلم فرية من نسبه الى
الخوف من المخلوقين وقولهم انه كان يقي نفسه بدينه . وكان رضي الله عنه
اذا سئل المدارة ونحوه من / الخلاف يقول : ابا الموت تخوفوني ، فوالله
ما أبالي سقطت على الموت ام سقط الموت علي ، وكان يقول : علي آنس
بالموت من الطفل بشدي امه ، ومذا امره الله ونهاه ما رأى منكراً قط ولا

(١) يقصد عبدالله بن عامر بن كريز ، عامل عثمان على البصرة

سمعه إلا ردّه وأنكره ، ولا رأى معروفاً إلا شيدّه وقوّاه ونصره . وكان ظاهره كباطنه ، وسره كعلانيته . وكان لا يخاف الجسارة الطغاة الذين يخافهم البشر فكيف [يخاف] (١) أبابكر وعمر وعثمان ، ولا يخاف سلطانهم بحق ولو انه عبد او امرأة او ذمي كما تقدم شرح ذلك ؟ لتعلم ان معونته لهم ونصرته لسلطانهم وطاعته لهم في حياتهم وتنفيذه وصاياهم بعد موتهم لأنهم أئمة هدى .

وقد كتب رضي الله عنه الى معاوية (٢) : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي امير المؤمنين الى معاوية بن ابي سفيان . اما بعد ، فان بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد ان يختار ولا للغائب ان يرد ، وإنما الشورى للهاجرين والانصار ، فاذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلك رضي الله عنه ، فان خرج من امرهم ردوه الى ما خرج منه ، فان ابى قاتلوه على ابتغائه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً .

فما دخل معاوية فيما دخل فيه المسلمون ، فان احب الامر اليّ فيك العافية الا ان تتعرض للبلاء ، فان تعرضت قاتلتك واستعنت بالله عليك ، فقد اكثر في قتلة عثمان يرحمه الله . فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم اليّ احلك وإياهم على الحق وعلى كتاب الله ، فأما تلك التي تريد فيها خدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان رضي الله عنه . واعلم يا معاوية انك من المطلقاء

(١) اضافة على الاصل يقتضيها السياق
(٢) كتب في الحاشية : كتاب علي رضي الله عنه الى معاوية

الذين لا يحل لهم الخلافة ولا يعرض فيهم الشورى ، وقد / انك ومن قبلك جرير بن عبدالله (١) ، وهو من اهل الايمان والهجرة فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

فانظر هل يحتج الا بالاختيار وبالشورى وبالاجماع وبسنة الخلفاء قبله ، فهم عنده حجة وقودة ، وكما يقول ويبين ان الامامة الى المهاجرين والانصار فمن بايعوه وعقدوا له كان اماماً ؛ فهو يحتج بأن طاعته طاعة الخلفاء قبله ، وعند الامامية ان التدين بالاختيار وبالشورى والاقتداء بأبي بكر وعثمان شرك وكفر ، وهم مع هذا يدعون انهم شيعة لأمر المؤمنين ، فهل سمعت بأعجب من هذا .

وانظر مكاشفته بالحق لمعاوية ، وقوله في كل انسان ما فيه ، وقوله له انك اظهرت الطلب بدم عثمان وما ذاك قصدك ونيتك ، وإنما نيتك وقصدك وضميرك الملك والدنيا ، ولم يكن لك سابقة في الدين تحل لك بها الخلافة ، فما تأخذه رضي الله عنه لومة لائم ولا يتقي احداً من المخلوقين . وكان يقول : ايها الناس ، إنما اهلك من كان قبلكم خبث اعمالهم حين لم ينههم الربانيون والأخبار قياموا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فان ذلك لن يقدم من أجل ولن يؤخر رزقاً . وكان يقول : لا خير في قوم لا يروى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضاً ، ولا خير في قوم يأمن بينهم اهل المعاصي ويعملون بينهم بالكبائر . وكان يقول : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرب الشهداء مني وأفضلهم عندي بعد حمزة وجعفر من قام الى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

(١) هو جرير بن عبدالله البجلي المتوفى سنة ٥١ هـ .

(٢) انظر شرح الجامع الصغير ١ : ٦٤ . وقد اورده الحاكم عن جابر بلفظ آخر .

وكم له رضي الله عنه مثل هذا الكتاب الى معاوية ، يمدح فيه الخلفاء قبله ، ويذم معاوية ، وكم له من الرسل اليه في هذا المعنى ، وما رضى من إنكار المنكر حق سافر الى اهله بعد المكاتبة فشافهم به . فسار الى معاوية ونزل بصفين ، وأقام نحو الشهرين لا يحارب / ولا يقاتل ، ويقيم الحجة على معاوية ، ويبين براءته من دم عثمان ومن خذلانه ، وانه قد بذل لعثمان النصرة فأبأها عثمان وكره القتال ، وأراد ان ينصرف القوم عنه راضين بغير قتال ، وانه ما ظن ولا ظن عثمان انه 'يقتل' ، وان القوم اغتالوه وتسلفوا عليه وقتلوه ليلاً . ويستشهد على ذلك المهاجرين والانصار ، ثم يحلف بعد هذا ويقول : والله ما قتلت عثمان ولا مآلات على قتله ولا رضيت ولا هويت ، وبلغن قتلة عثمان ويقول : اللهم العن قتلة عثمان في الليل والنهار والبر والبحر ، ويرفع يديه بذلك حتى يبين ما تحت منكميه .

وقد فعل مثل ذلك بالبصرة ، فقال معاوية نحن نصدقك ، ولكن في عسكره شناعة عثمان وغزاته يسلمهم اليها . الى ان قال اهل الشام 'تخلصي معاوية على الولاية وهو يسمع لك ويطيع' ، فقال : لا افعل ، وسألوه في ذلك فما أجاب . فأثاه وفد اهل الشام وفيهم رجل يقال له حوشب ذو ظلم له قدر ونباهة ، فقام فقال : ألا ترى يا علي ان الله قد قسم لك قسماً حسناً فخذ به بشكر ، إن لك قدماً في الاسلام وسابقة وقرابة من رسول الله ﷺ ، وصهرأ وتجربة وسناً، فإن تتلف بيننا غداً فلأنه لبوار العرب وضيفة الحرمان ، ولكن انصرف راشداً وخل بيننا وبين شامنا واحقن دماءنا ودماء اصحابك . فقال له رضي الله عنه : إنك لم تأل عن النصيحة يجهدك ، ولو علمت ان

ذلك يسعني في ديني أجبتك ولكن اهون علي من المؤونة ، ولكن الله لم يرض لأهل القرآن ان 'يعمل بمعاصي الله في اكناف الارض وهم سكوت لا يأمرهم بمعروف ولا ينهون عن منكر' ، واعلم يا حوشب اني قد ضربت الامر ظهره وبطنه وأنفه وعينه ، حتى لقد منعني من نوم / الليل ، فما وجدته يسعني إلا قتالهم او الكفر بما جاء به محمد ﷺ ، فكان معالجة القتال اهون من معالجة الاغلال ، وكانت مؤونات الدنيا اهون علي من النار .

فتأمل ما في هذا القول من الانوار والحجج الشاهدة ببطلان دعاوي هؤلاء القوم ، فانهم زعموا انه مكث خمساً وعشرين سنة مع ابي بكر وعمر وعثمان وقد كفروا وارقدوا لا ينكر عليهم بل كان اكبر اعوانهم ، وهو يقول هذا القول . وكان اصحابه يقولون لأهل الشام - مثل عمار بن ياسر ، وقيس ابن سعد ، وشريح بن هانئ ، وعدي بن حاتم ، وصعصعة بن صوحان ، والأشتر - : ان علينا اذا ظهر سار فيكم سيرة ابي بكر وعمر ، وان معاوية لا يفعل ذلك ، انما يريد العاجلة ويطلب الدنيا ، وان صاحبنا كان يتقدم عند ابي بكر وعمر ويرجعان الى رأيه ، وقولهم (١) ان صاحبنا من البدرين والمهاجرين وليس صاحبكم كذلك . فانظر بأي شيء يمدحونه وبأي شيء يحتجون له لتعرف بطلان دعاوي هؤلاء القوم ، فانهم يقولون : الحجة في إمامته نص النبي عليه ، وظهور المعجزات عليه بعد النبي ﷺ ، وهو رضي الله عنه لا يذكرها هو ولا يحتج بها ولا يعرفها ، ولا احد من ولده وأهل بيته وشيعته في زمانه .

(١) في الاصل : وقوله ، ولعل الصواب ما اثبتناه

ولما رفع اهل الشام المصاحف وقالوا : بيننا وبينكم ما جاء به رسول الله ﷺ ، ردونا اليه فقد رضىنا به ، وهذا كتاب الله ؛ فما قال لهم هو ولا اصحابه : فرسول الله قد نصّ عليّ وقال من كنت مولاه فعلي مولاه ، وهذا نصّ او تأويله النص او معناه النصّ ، او آية كذا او حديث كذا ، فما احتج عليهم لا هو ولا شيعته الذين قتلوا بين يديه بشيء مما يذكره هؤلاء .

ولما قال له اصحابه : ضعفت وسكنت في نفسك حق حكمت الرجال / في امرك ، وأي حاجة كانت بك الى هذا وقد بايعك المهاجرون والانصار ، وما احوجننا واياك الى امام مثل عمر يسوسنا ويسوسك ، وقد كفرت بما صنعت . فما احتجّ عليهم لا هو ولا من كان يحنّج عنه مثل ابن عباس وصعصعة بأني معصوم ولا اخطيء ولا اعصي ، وان النبي ﷺ قد نصّ عليّ وقد رأيتم المعجزات او قد بلغتمكم ، وما احتجّ عليهم الا بما قد تقدم لك في كل وقت وكل حال .

وكان يقول والله لتخضبن هذه من هذه ويشير الى لحيته وهامته ، فيقول له اصحابه : لو علمنا من ذلك لأبدنا وأبترنا (١) ، فيقول : كيف تقتلونني ولم يقتلني ، فيقولون : يا امير المؤمنين اوص واستخلف ، فيقول : ما اوصى رسول الله فأوصى ولا استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف ، فيراجعونه فيرجع عليهم بمثل ذلك ثم يقول : ان ادع فقد ترك من هو خير مني ، وان استخلف فقد استخلف من هو خير مني . ولما ضربه ابن ملجم الملعون دخلوا عليه ، فقالوا : استخلف ، فقال : لا ، انا دخلنا على رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله : استخلف فقال : لا ، اخاف ان تفرقوا عنه كما تفرقت بنو

(١) في القاموس : أبر القوم : اهلكهم

اسرائيل عن هرون ، ولكن ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يختر لكم . قال امير المؤمنين فعلم [الله والله] (١) في قلوبنا خيراً فاختر لنا ابا بكر ، ثم اقبل على صعصعة بن صوحان وكان في القوم فقال : ولكن يا صعصعة ، ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يختر لكم . فتركوه ثم عاودوه فما فعل ، وسألوه أن يشير عليهم بأحد فما فعل ، فقالوا له : ان فقدناك يا امير المؤمنين فلا نفقدك ان نبائع الحسن ، فقال لا آمركم ولا انهاكم . فعاودوا القول فقال كذلك انتم ابصر ، وكان آخر عهدهم به ، وقبض صلوات الله عليه ، فلم يقل (٢)

غير هذا .

فإن قالوا : فانا / لا نقبل هذه الاخبار ، قلنا : لو قلتم انه ما جرى بينه وبين العباس ما قلنا ، ولا كان من الانصار في السقيفة ما ذكرنا ، ولا كان من ابي بكر والصحابه في استخلاف عمر ما قلنا ، ولا دخل عليّ في الشورى ، ولا صلى خلف صهيب ، ولا رجع الى عبد الرحمن ، ولا سأل القوم عمر أن يستخلف عليهم ولا قال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني وان اترك فقد ترك من هو خير مني ، بل ما وضع عمر شورى اصلاً ، وهذا كله كذب ، ما كان عندنا في ذلك الا ما عندنا في انكاركم ما كان من امير المؤمنين . وكذا لو قلتم ما كاتب معاوية ، ولا رفع معاوية المصاحف ، ولا كان من امير المؤمنين وبين اصحابه الذين صاروا خوارج ما ذكرنا ، ولكنكم لو سلمتم هذا لبطل مذهبكم ، ولو انصفتم لتركتموه وصرتم الى مذاهب امير المؤمنين وهي هذه التي قد ذكرناها ، وما شأنكم إلا انكار (٣) ما قد كان وادعاء ما لم يكن ، وما لو كان له اصل لكان العلم به قد قهر .

(١) كذا في الاصل ، ولعلها : الله ان

(٢) في الاصل : يقول

(٣) في الاصل : الانكار

وفي اقل قليل مما كتبت دليل على بطلان دعاويهم ، وانما ذكرنا لك هذا في هذا الموضع لأنك طلبته وذكرت حاجتك اليه .

وكثيراً تسأل الامامية عما كان من عثمان في تولية اقاربه وغير ذلك ، وفي سير طلحة والزبير وعائشة الى البصرة ، وما ذاك الا لضعفهم وانقطاعهم لأن عثمان لو لم يول اقاربه ولم يصنع ما صنع لكان كافراً مشركاً عندهم بادعائه الامامة لنفسه ولأبي بكر وعمر ، ولو كان طلحة والزبير وعائشة في عسكر امير المؤمنين وفي المحاربين معه ما كانوا إلا مشركين باعتقادهم امامة ابي بكر وعمر وعثمان ، فكلام الامامية / في هذا الكلام مسلم لو كلم اليهود في وجوب النية في الطهارة ، او كلم النصارى في استحلالهم الخمر ، وانما يكلم في هذا من قال : لا ذنب لعثمان إلا ما اتاه من الحى وتولية الاقارب ولولا ذلك لكان مثل عمر ، ومن قال : لا ذنب لطلحة والزبير وعائشة إلا مسيرهم الى البصرة ولولا ذلك لكانوا مثل ابي عبيدة وعبدالرحمن وابن مسعود .

فاعرف هذا ولا تكلمهم فيه البتة ، وكلهم فيما يدعونه من النص فهو الاضل . واما طلحة والزبير وعائشة فانهم انما سلموا علينا لأنهم سلموا على امير المؤمنين ، وتوليناهم وزكيناهم لأنه زكاهم وتولاهم ومدحهم وترحم عليهم بعد كان منهم بالبصرة وبعد موتهم ، فلو عاديناهم لكننا قد خالفناه وصرنا بغير سيرته وسلكتنا غير سبيله ، ونحن لا نرى خلافه ، بل هو امامنا وسيدنا والقُدوة عندنا ، وهو الذي ظاهره كباطنه وسريته كعلانيته .

وهذا كلام مع الخوارج فيقال لهم : علي بن ابي طالب امام هدي ، وانما برئتم منه وادعيتم انه كفر بالتحكيم وقبل ذلك كان مرضياً ، وقد زكى هؤلاء قبل التحكيم ، وقد وجب عليكم الاقتداء به . فإن قالوا : ومتى كان

هذا منه ؟ قلنا : قد كان يتصفح القتلى بعد انقضاء الحرب ، فمر بطلحة وهو صريع فنزل اليه واخذ رأسه في حجره ومسح التراب عنه وقال : يرحمك الله يا ابا محمد ، يعزّ عليّ ان اراك قتيلاً تحت نجوم السماء وفي اودية الارض ، ثم انشد :

ففى كان يدينه الغنى من صديقه اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وامر يجمع القتلى وصلى عليهم وامر بدفنهم ، ودخل عليه ولد طلحة فأدناه وقربه / وقال له : يا ابن اخي ، خذ كتابي الى قرظة بن كعب الانصاري ليرد عليكم اموالكم وما اخذ منها ، فما امرته بإدخال يده فيها ، انما اردت قبضها لئلا تمتد اليها ايدي السفهاء وليحفظها عليكم ، اتبسط يا ابن اخي في الحاجة تكون لكم فاني ارجو ان اكون انا وطلحة والزبير من الذين قال الله : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ اخواناً على سررٍ متقابلين »^(١) .

ولما قيل له رضي الله عنه : قاتل الزبير بالباب يستأذن ، انزعج هو وأولاده حزناً عليه وإنكاراً لقتله ، وصار عندهم مأتم ومصيبة عظيمة ، وقال : كيف قتله وليس من اقرانه ؟ قالوا اغتاله ومعه سيفه ، فقال : خذوا السيف منه وبشروه بالنار ، فأخذ السيف منه ؟ فما زال امير المؤمنين يقلب السيف ويقول كم كربة كشفها صاحب هذا السيف عن وجه رسول الله ﷺ ، ولم يأذن له في الدخول عليه . ثم دخل عليه بعد ذلك مع الناس فقال : نحن اهل البلاء فلم نجفا ؟ قال : من تكون ؟ قال : قاتل الزبير ،

(١) سورة الحجر ٤٦

قال امير المؤمنين : بفيك الحجر ، بفيك الحجر ، ليلج قاتل الزبير النار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : لكل نبي حواري ، وحواري الزبير . وسمعت يقول : الزبير في الجنة وطلحة في الجنة ، فقال ابن جرهموز : انما قتلته أبتغي بقتله عند علي الزلفة فبشرني بالنار ، وندم على قتله ، وصار ينكر ان يكون قتله .

وجهاز عائشة بكل ما تحتاج اليه ، وشيعها هو وأولاده وقال لأخيها ومن خرج معها : بلغوها ، ووصى باكرامها ، وكان يقول لها : يا أمه ، وأم المؤمنين سائرة ، فمن اراد المسير معها من قدم بقدمها فليسر ، وقال : ايها الناس ، انما امكم وزوجة نبيكم في الدنيا وزوجته في الجنة ، وردها الى سدانة قبر رسول الله والى بيتها ، وأعطاهما ما كان يعطيها من قبله من الخلفاء .

ولا يحل لامرأة / زعم هؤلاء انها كافرة ، يردها امير المؤمنين الى قبر رسول الله ﷺ [وتمطى] (١) ما يعطى امهات المؤمنين* سياتي المدينة في ملكه وسلطانه ، وفيها عماله ، وليس به في امرها حاجة الى المداراة والمداينة بعد مقاتلتها كما كان يزعمهم يفعل مع من تقدم من الخلفاء .

وكم كان يركب اليها هو وأولاده وابن عباس وعبد الله بن جعفر ، ويجلسون اليها ويعظمونها ، وقد استغفرت واستغفر لها امير المؤمنين ، وقد سمع عمار ابن ياسر رجلاً ينال منها والحرب قائمة فقال له : اسكت مقبوحاً منبوحاً ، والله إنا لنقاتلها وإنا لنعلم انها زوجة نبيكم ومعه في الجنة ، ولكن الله ابتلانا بها ليعلم إياه نطيع أم إياها ؛ وشرح إكرامه لها وإكرام أولاده وهم بالبصرة يطول .

(١) في الاصل ولا تمطى ، ولعل الصواب ما اثبتناه

وكانت هي تلعن اصحابه الذين ارتدوا عنه ولعنوه وصاروا خوارج وتبرأ منهم ، وتروي عن رسول الله ﷺ تصويبه وتضليلهم ، وتقول : أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد فسبّوهم ، وتسميهم كلاب النار ، ولما بلغها موته استرجعت وقالت : ذهب والله من لم يسفه الملك ولا أطفته الدنيا ، لتصنع العرب ما شاءت فما بقي بعد ابن ابي طالب من يكفها ولا يردعها ، ثم انشدت :

فألفت عصاها واستقر^(١) بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكم قد طعنت على معاوية وواجهته بالتخطئة لما ورد المدينة ودخل عليها ، حتى اخجلته وهو جبار قد غلب ، وكم فعل ذلك به اخوها عبد الرحمن بما يطول شرحه . ولا يرد هذه الأخبار إلا معانداً أو من قال انه كان يلعنها كما يلعن معاوية ولم يردّها الى المدينة ، ومن قال هذا فقد أتى في البهت على ما لا فيه حيلة .

والإمامية تقول : قد فعل هذا ولكن (٢) / على طريق حسن العشرة وعلى سبيل التكريم والتفضل ، قيل لهم : هو ﷺ أجل قدراً وأشد ورعاً من ان يرد امرأة كافرة او فاسقة الى قبر رسول الله ﷺ ويجكنها منه ، ويعطيها ما يعطي امهات المؤمنين ويسميها ام المؤمنين ، ويشهد لها بما قلنا ، ويترحم على كافرين ، ويرد الاموال ويشهد لها بالجنة ، هذا لا يحل في دين الله ولا يفعله مثله ﷺ بوجه من الوجوه ، وإنما قوله بشر قاتل ابن صفية بالنار ، وقوله : ليلج قاتل الزبير النار على طريق التزكية له كقول

(١) في الاصل : استقرت

(٢) مكررة في الاصل لانها اول الصفحة وآخرها

رسول الله ﷺ : « تقتل عمار الفئة الباغية » (١) على طريق التزكية لعمار .
فإن قالوا : لم لم يقتل قاتل الزبير ؟ قلنا : لم يكن ذلك له وإنما هو لولد
الزبير ، فإن شأؤوا قتلوا وإن شأؤوا عفوا .

ومن عجيب الامور ان عبد الله بن الزبير قام بعد معاوية ودعا الى نفسه
لإمرة المؤمنين ، وغلب على الارض بسبع سنين إلا كورة فلسطين ، وانبث
عماه في الامصار ، وعمرو (٢) بن جرموز حي بالبصرة فما تعرضوا له ،
ولقد قرئت جريدة اهل البصرة على مصعب بن الزبير بالبصرة ، فقرأ الكاتب
عمرو بن جرموز ، فقال قاتل لمصعب أصلح الله الامير وعمرو (٣) بن
جرموز وقد ساح في الارض وسار في البلاد فقال مصعب : او ظن ابن
جرموز اني أقيده بأبي عبد الله ، ليظهر ابن جرموز آمناً وليأخذ عطائنا
مسلماً فظهر وأخذ وأمن وترفع (٤) ولد الزبير عن قتله وقد كان لهم ذلك ،
وهو اليهم ، فكيف يتعجب عاقل من عفو امير المؤمنين عنه وليس القود له .

وكان عمرو بن جرموز بعد الذي سمعه من أمير المؤمنين شديد الندم
على قتله ، كثير الاستغفار ، شديد / الاشفاق ، وقد بقي بعد زوال آخر
آل الزبير ومصير الملك الى عبد الملك ، فكان الحجاج يقول له : انت
قتلت الزبير ؟ - لشدة عداوة الحجاج وبني امية لآل الزبير - فيقول ابن
جرموز : ما قتلت احداً ، فيقول له الحجاج : وما عليك في قتله ،

(١) انظر شرح الجامع الصغير ٢ : ١٤٧ . وقد اوردته ابو نعيم في الحلية عن ابي قتادة

(٢) في الاصل عمير ، الا انه ورد في معظم الكتب التاريخية باسم عمرو

(٣) في الاصل ابن عمير وابن زائدة

(٤) مطموسة في الاصل ، والقراءة اجتهادية

وقتله خير لك من جزاء وتدبير حسنات ؛ يشجعه الحجاج لينصرف عن
الغم والندم بما قاله أمير المؤمنين له في دخول النار بقتل الزبير ، لتعلم
رحمك الله شهرة انكار امير المؤمنين على من اعترف بقتل الزبير .
ولكن طال الأمر وقل الطالب المتأمل .

فإن قيل : فكيف سبيل تلك الدماء التي كانت بينهم يوم الجمل ؟ قيل
له : ان امير المؤمنين رضي الله عنه اعلم بذلك وافقه في الدين وأشد في
الورع ، ولم يكن ليقول في هؤلاء وفي غيرهم ما لا يحل ولا يجوز في الدين ،
فقد كفانا حكمه عن البحث والطلب ، وان كان العلماء قد ذكروا اتفاق رأي
امير المؤمنين وطلحة والزبير وعائشة على الصلح ووضع الحرب واستقبال
النظر في الأمر ، وان من كان في العسكر من اعداء عثمان كرهوا ذلك
وخافوا ان تتفرغ الجماعة لهم ، وقالوا : لنشغلهم عنا بنفوسهم ، فدبروا في
اللقاء الحرب بينهم ما هو مذكور فتم لهم ذلك ، وما بك حاجة ها هنا الى
ذكره ، وأفعال امير المؤمنين تغنيك ، فإن اردته وجدته في كتب العلماء (١) .

(١) بياض في الاصل حتى نهاية الورقة ١٤٠ ثم الورقة ١٤١ فراغ ايضاً . ويبدأ بعد ذلك
قسم جديد يبتدىء ببسم الله الرحمن الرحيم ، بداية الجزء الثاني من الكتاب .